أزمة ثقة

رباب فؤاد

الكتاب	أزمة ثقة
النوعية	رواية
اسم المؤلف	رباب فؤاد
الطبعة	الثانية (فبراير ٢٠١٦)
تصميم الغلاف	محمد حواس
تنسيق داخلي	إسلام علي
رقم الإيداع	2015/20858
الترقيم الدولي	978-977-6534-03-2
إشراف عام	رباب الشهاوي
لطلب الكتاب	01022897649 – 01126652278 - 01287895884





Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

أ زمــة ثــقــة

(رواية)

رباب فؤاد الشهاوي



إهداء

إلى

أرجو أن تروقك روايتي

وأن تجد بين طياتها المتعة والفائدة

شكرًا لثقتك بقلمي، وأرجو ألا أخيبها يومًا

مع خالص تحياتي

الثقة بناء لا يكتمل في يوم وليلة؛ وإنما يمر بمراحل عدة حتى يصل إلى شكله الأخير..

فاحذر وأنت تضع الأساس؛ كيلا ينهار البناء عند أول أزمة ثقة

(١)

٢٥ يناير ٢٠١١

بعد الظهيرة

القاهرة

ارتفعت شمس الظهيرة قوية لا لبس فيها حتى باتت أشبه بشمس الصيف لا الشتاء، وإلى جانبها ارتفع هتاف مدوٍ يهز شوارع وسط القاهرة، واندفعت خلفه حشود من المواطنين يحملون اللافتات التي تنادي بالإصلاح، وألسنتهم تهتف بثلاث كلمات "عيش، حرية، عدالة اجتماعية".

ومن شارع مجاور، اقتربت حشود أخرى بهتاف آخر يسخر من غلاء الأسعار صارخاً "يا سوزان قولي للبيه، كيلو اللحمة ب١٠٠ جنيه".

ومن شارع ثالث انضمت مجموعة جديدة تهتف بحماس "ياكلوا لحمة وياكلوا فراخ، وإحنا الجوع دوخنا وداخ".

التحمت الحشود الثلاثة في مشهد مهيب، بهدف الاتجاه نحو ميدان التحرير، أكبر ميادين العاصمة، والهتاف يتصاعد "سلمية، سلمية".

ولكن قبل أن تصل الحشود إلى مبتغاها، وقفت قوات الأمن المركزي بكامل عتادها حائلاً أمامهم.

لوهلة، توقف المتظاهرون بتوجس، وفي ذهن أغلبهم مشاهد قاسية لكيفية تعامل الأمن المركزي مع المتظاهرين، إما لأنه عاش موقفاً مشابهاً وتركت هراوات الأمن آثارها على جسده، أو لأنه رأى ما تنقله شاشات الجزيرة والعربية لما يحدث في مظاهرات مصر عادة.

وطال الصمت لدقيقة أو ما شابه، قبل أن يتقدم شاب إلى أقرب جندي ويمد يده إليه بـ ... وردة.

ارتُج على الجندي وهـو ينقـل بصـره بـين وجـه الشـاب المبتسـم وأصـابعه المحيطـة بـالوردة في هـدوء. كـان في موقـف جديـد تمامـاً لم يألفـه في أي مظاهرة سابقة. لذا أدار وجهه إلى قائده الذي يـئن كتفـه مـن ثقـل النسـر وثلاث نجمات ذهبية لامعة، ولسان حاله يقول "اعمل إيه في البلوة دي يـا باشا؟"

وقبل أن يستوعب الباشا مـا يحـدث، تقـدم الصـف الأول مـن المتظـاهرين نحو الجنـود، وبأيـديهم باقـات ورد يقـدمونها إلى إخـوانهم مـن المصـريين المقهورين بزي الشرطة.

لكن الأوامر كانت واضحة، ومسبقة.

"ممنوع العيال دي توصل وسـط البلـد. اضربـوهم بالعصـيان... اضربـوهم بالغـاز، ولـو مـا رجعـوش اضربـوهم بالرصـاص المطـاطي. يـاويلكوا لـو المظـاهرات دي اسـتمرت. عـاوز قبـل المغـرب يكـون وسـط البلـد فـاضي. مفهوم؟"

وبالطبع كان الرد بكل قوة "مفهوم يااااا فندم".

وقد كان...

فلم تنجح الورود في استدرار عطف الجنود، الذين سرعان ما رفعوا أيـديهم بالهراوات القصيرة التي يحملونها،

وهبطت الهراوات.

هبطت على كل من ساقه حظه العسر إلى مظاهرات ٢٥ يناير.

لم يُفرّق الجنود بين رجل وامرأة، أو بين شاب وكهل،

كان محركهم الأوامر،

حتى وإن لم يقتنعوا بها.

فـإذا لم ينفـذوا أوامـر الباشـا العميـد، الصـادرة عـن الباشـا مسـاعد وزيـر الداخلية بتوصية من السـيد الـوزير وفوقـه السـيد الرئيس...."يـااااالهوي...

دانا كنت أروح ورا الشمس لو ما نفزتش الأوامر. ياكش يولعوا كلهم. يعني هما يشتموا الـريس وأنـا الـلي اتعاقـب. ليلتـك سـودا منـك لـه إنـت وهـو وهي... قال حرية قال".

اختلط الحابل بالنابل، وشباب شهم يجذب النساء بعيداً عن أيـدي الجنـود التي إن لم تضرب بهراوة، فستعبث بما تطاله وتنتهك حرمة صـاحبته "مـش هيا اللي جابته لنفسها؟"

ووسط الهرج لمحها..

عرفها بحجابها المنقوش الذي رآها به أول مرة.

يحفظ نقوشه جيـداً وكأنهـا نُقشـت في قلبـه قبـل ذاكرتـه، عـلى غـير عـادة الرجال من ذوي الذاكرة الهلامية،

وحتى إذا تشابهت نقوش الحجاب بين الفتيات، فحجمها الضئيل المميز أكد له أنها هي.

كان من المستحيل أن يميز شخصٌ شخصاً آخر وسط هذا الهرج،

لكنـه ميزهـا ولم تلـتقط عينـاه سـواها بـين عشـرات الفتيـات المحجبـات الأخريات،

وكأنما أنبأه قلبه بأنها في خطر.

فما إن التفت قدراً تجاهها حتى لمحها بـالقرب مـن جنـدي يُخفـي ملامحـه خلف خوذة معدنية وغطاء شفاف ويرفع هراوته ليضربها.

حينها ثارت دماء الغيرة بعروقه، وتـدفقت بغـزارة إلى وجهـه الـذي احـتقن وهو يقفز نحوها ليرفع يد الجندي ويهتف به بلهجة حادة:

ـ "حسك عينك تمد إيدك.. أكسرهالك".

اتسعت عينا الجندي في دهشـة مـن خلـف غطـاء وجهـه الزجـاجي، وهـم بسب من جرؤ على تحديه، وربما ضربه أيضاً.

لكن هدفه سرعان ما اختفى من أمامه، وكأنه "فص ملح وداب".
أما هو، فما إن هتف بتهديده في وجه الجندي حتى استغل لحظة دهشته وهو يجذب فتاته من أمامه في سرعة ويختفي بها في شارع جانبي.

بالنسبة لها كان الأمر أشبه بالحلم.
منذ بدأ الاشتباك بين الجنود والمتظاهرين وهي تتلفت حولها كالتائهة ودقات قلبها تعلو حتى تصم أذنيها، وهي تلعن بداخلها نوبة التمرد التي أصابتها ودفعتها للمشاركة في هذه المظاهرة للمرة الأولى في حياتها.
وكلما سمعت صراخ الفتيات حولها ازداد عنف ضربات قلبها وهي تتخيل ما قد يكون سبب هذه الصرخات..
إما بسبب الضرب....أو الت.....

'يارب احفظني من شرهم.. يارب انت أعلم إني مخرجتش إلا عشان حقي وحق ولادي من بعدي.. يارب الفساد زاد وانتشر والساكت عن الحق شيطان أخرس؛ وإحنا عارفين الحق وعاوزين نقف في وش الظلم.. يارب أعنا وانصرنا عليهم بأقل خساير.. يارب احفظني واحفظ بناتنا منهم'.
كانت تدعو بداخلها وهي تحاول الخروج من زحام المظاهرة التي نجح جنود الأمن المركزي في تحويلها من مظاهرة سلمية إلى معركة انتقامية مع شباب أعزل سلاحه هو الهتاف.
وفجأة وجدت نفسها وجهاً لوجه مع أحد الجنود، والذي ابتسم لها ابتسامة صفراء جعلتها تقشعر ازدراء منه، وما لبث الازدراء أن صار رعباً وهي تراه يرفع هراوته ويستعد لأن يهوي بها على رأسها.
وفجأة ظهر هو، وكأنه فارسها.
بل هو فارسها بالفعل...

فارسها الذي قدر ما أسعدتها رؤيته، فقد أرعبها اكتشافه أمرها.

ووسط رعبها المزدوج من ردة فعله على وجودها بالمظاهرة ومن هراوة جندي الأمن المركزي، رأته يرفع يد الجندي بعيداً عنها ويهتف به في حدة قبل أن يقتلعها من الأرض بقبضته الثانية ويجذبها معه إلى شارع جانبي.
جنباً إلى جنب، وفي صمت تام، أطلق الاثنان العنان لسيقانهما وكأن حياتيهما تتوقف على ذلك.
فقد كان الوقوف في هذه اللحظة يعني شيئاً واحداً:
أن يلحق بهما بعض الجنود ويجذبانهما إلى مدخل أي من البنايات في هذه الشوارع الجانبية ويشبعانهما ضرباً "لحد ما يبان لهم صاحب".
بل وربما كان مصيرها أبشع من الضرب.
اقشعر بدنها ثانية وهي تتخيل ما قد يحدث إذا وقعت في أيدي رجال الأمن؛ وانعكس ذلك في رجفة يدها في قبضته، فالتفت إليها ليسألها باقتضاب:
ـ"مالك؟"
أجابته وهي تلهث من سرعتها:
ـ"خ... خايفة يا (مازن).. اجري بسرعة من هنا".
ضحك هازئاً وهو يواصل الجري إلى جانبها قائلاً:
ـ"دلوقتي خايفة؟ حسابك في البيت يا هانم".
حينها فقط انتبهت لحقيقة علاقتهما، فجذبت كفها من قبضته وتوقفت بغتة وهي تقول بثقة وعناد:
ـ"أنا معملتش حاجة غلط. أنا نزلت مظاهرة سلمية زي باقي الناس، و...".
قاطعها وهو يجذبها من كفها ثانية ليواصلا الجري هاتفاً بصرامة:
ـ"بطلي جنان واجري من سكات قبل ما يلحقونا".

قالها وهو ينحرف في شارع جانبي آخر ثم شارع رابع قبل أن يدفعها أمامه في مدخل مبنى سكني مظلم.

همت بأن تصرخ به، لكنه باغتها وهو يضع كفه على فمها ليخرسها قائلاً من بين أنفاسه السريعة:

ـ"اقلعي الطرحة بسرعة".

اتسعت عيناها بهلع وتجمدت نظراتها على وجهه حتى نسيت التقاط أنفاسها، لكنه لم يمهلها وهو يمد أصابعه في سرعة إلى رأسها وينزع الدبابيس عن حجابها الملون قائلاً بحسم:

ـ"كفاية البطانة القطن، لونها غامق".

وأمام أنظارها الذاهلة خلع سترته الثقيلة وقلبها على الوجه الآخر وألبسها إياها قائلاً وهو يدس الحجاب المنقوش في جيب السترة قائلاً بنفس الحسم:

ـ"كدا مش هيعرفونا لو لسه بيجروا ورانا".

وقبل أن يمنحها فرصة للرد جذبها من كفها ثانية وخرجا من المدخل الخلفي للمبنى إلى شارع مختلف وهو يتأبط ذراعها في هدوء وكأنهما حبيبين يتنزهان وهمس في أذنها:

ـ"حاولي تتنفسي بهدوء. متخليش حد يشك إننا كنا بنجري".

هزت رأسها بالموافقة في صمت وهي تحاول تهدئة أنفاسها قليلاً وإعادة نبضات قلبها إلى دقاتها المعتادة.

ولكن كيف لدقات قلبها أن تعتدل وهي ملتصقة به هكذا لا يفصلها عنه شيء، وهي التي اعتادت بُعده وكيّفت حياتها على ذلك.

بل كيف تهدأ ودفئه يغمرها عبر سترته، ويتغلغل ليذيب الجليد الذي غلّف حياتها مؤخراً.

أما هو فتغاضى عن تهدئة دقات قلبه المتسارعة المتصارعة منذ لمحها هـذا الصـباح، فقـد يـأس مـن محاولاتـه الفاشـلة واكتفـى بقربهـا منـه في هـذه اللحظة.

وليبعد ذهنه وقلبه عن تلك التي تتأبط ذراعه، تظاهر بالبحث عـن سـيارة أجرة، والتي سرعان ما توقفت أمامه بالفعل، ففـتح بابهـا الخلفـي ودفعهـا للداخل قبل أن يجلس إلى جوارها قائلاً للسائق:

ـ"المعادي".

سأله السائق بلهجة روتينية:

ـ"فين في المعادي يا بيه؟"

أجابه (مازن) بثقة:

ـ"مكتبة سوزان مبارك".

التفتت إليه في حدة وعيناها تحملان تساؤلاً عن سبب هذه الوجهة.

أما هو فضغط كفها في هدوء كي تصمت، وأذعنت له بالفعل.

طيلة الرحلة مـن وسـط القـاهرة حتـى مكتبـة سـوزان مبـارك لم ينـبس أي منهما بكلمة. حتى السـائق لم يكـن راغبـاً في الثرثـرة كعـادة بعـض سـائقي التاكسـي، ربما لأنه سأم الحديث والشكوى من صعوبة الحياة الخانقة.

وأمام المكتبة توقفت السيارة، فـترجلا منهـا وواصـلا السـير بـنفس الطريقـة الهادئة قبل أن ينحرف بها في شارع جانبي ومنه إلى شارع ثالث حتى وصلا إلى الشارع الذي تسكنه.

حينها فقط أدركت أنه كان يراوغ طيلة هذه الفـترة خشـية أن يكـون أحـد المخبرين خلفهما. ولهذا ألبسها سترته على وجهها الثاني كنوع من التخفي.

"ياا ربي إيه الغباء دا؟ هو قايل بلسانه كـدا مـش هيعرفونـا!! شـكلي مخـي مقفل".

قالتها في نفسها وهي تتبعه كالطفلة وكفها اليمنى حبيس قبضـته اليســرى وهو يصعد درجات سلم منزلها ويفتح باب الشقة بمفتاحه، قبل أن يدفعها إلى الداخل بنوع من الخشونة ويهتف بها وهو يغلق الباب خلفه بصخب:
ـ"ممكن تفهميني بقى إيه الجنان اللي عملتيه دا؟ إزاي تنزلي من غير إذني؟ وفين (مودي)؟"
قالت بصوت خافت:
ـ"(مودي) مع (أنجيل)".
هتف بعصبية:
ـ"يعني تسيبي الولـد عنـد الجـيران عشـان تخرجـي براحتـك ولا هامـك أي حاجة؟"
ازدردت لعابها وهي تجيبه:
ـ"(أنجيل) مش غريبة وهو متعود يقعد معاها لو ورايا مشـوار واضـطريت أنزل".
أمسك عضدها بحركة سريعة وهو يسألها من بين أسنانه:
ـ"وتنزلي ليه أصلاً وتسيبيه في البيـت. أنـا نفســي أفهـم إنتـي إزاي تفكـري تنزلي في مظاهرة وتسيبي الولد لوحده. افرضي جرالك حاجـة، وكانـت فعـلًا هتحصل لك مصيبة لولا ربنا ستر وبعتني في الوقت المناسب عشان ألحقك. وبعدين من إمتى أصلاً بتنزلي مظاهرات؟"
لا تدري من أين واتتها الجرأة لتشد ظهرهـا وتجـذب عضـدها مـن قبضـته وهي ترمقه بنظرة باردة وتجيب سؤاله بسؤال:
ـ"ومن إمتى وإنت تعرف عني حاجة؟"
شـعر بنبرتهـا المتحديـة، وشـعر بمـدى اختلافهـا عـن أول مـرة عرفهـا فيهـا، فاعتدل هو الآخر في وقفته وهو يجبيها ببرود مماثل:
ـ"من النهاردة."

وأردف بنبرة اشد قوة:

ـ"من النهاردة مفيش خروج بدون إذني، قصدي مفيش خروج أصلاً بما انك في أجازة من الشغل. دلوقتي تطلعي بهدوء تجيبي (مودي) من عند الجيران وبعدها تقفلي باب شقتك عليكي ومتفتحيش لجنس مخلوق".

وعاد يقترب بوجهه من وجهها ليهددها قائلاً:

ـ"وحسك عينك رِجلك تهوب برا الباب...ساعتها والله في سماه هتشوفي وش تاني خالص. فاهماني يا (علا)؟ يالا اتفضلي قدامي."

ولم يكن أمامها سوى أن تطيعه صاغرة.

***

بعد الظهيرة

المعادي

خرج من عندها بأسرع ما سمحت به ساقاه المنهكتان من طول الجري، وما إن أغلق الباب خلفه وسمعها توصده بالمزلاج حتى استند إليه بظهره وهو يتنهد في عمق وكأنه كان يحبس أنفاسه أمامها.

ظل على وضعه للحظات وقد أسبل جفنيه مكتفياً بما يتسلل إليه من نبرات صوتها العذب من خلف الباب وهي تحدث (مودي) وتضحك معه. وحينما أدرك أن وقوفه هكذا لن يُهدئ سعير شوقه، هز رأسه وابتعد عن الباب قبل أن يترك البناية بأسرها وهو يشغل نفسه بارتداء سترته التي تحمل رائحتها.

خرج من بوابة المنزل وهو يلتقط جواله من جيبه الداخلي، ليفاجأ بحجابها المنقوش مازال في موضعه، وكأنما أبت إلا أن تترك معه شيئًا يُذكره بها، وهو الذي لم ينسها للحظة. قبض كفه على الحجاب ورفعه خلسة إلى أنفه، قبل

أن يعيده ثانية بالقرب من قلبه. التقط الهاتف وجرت أنامله على شاشته في سرعة ليقول لمن على الطرف الآخر :

ـ"أيوه يا (رأفت)، انتو فين دلوقتي؟"

أتاه صوت (رأفت) من الطرف الثاني قائلاً بمرح يميزه:

ـ"وعليكم السلاااااام ورحمة الله وبركاته يا باشا. إنت اللي فين؟ اختفيت فجأة".

تنهد بقوة محاولاً ألا تلتقط أنفه رائحتها التي التصقت بالسترة قائلاً:

ـ"هقولك بعدين. المهم أجيلكم فين؟"

قال (رأفت) مازحاً:

ـ"الحمد لله انطردنا من الشارع أنا و(حمزة)، ورايحين القيادة دلوقتي إن شاء الله".

سأله باهتمام وهو يبحث بعينيه عن سيارة أجرة:

ـ"يعني أجيلكم هناك؟"

أتاه صوت (رأفت) مشوشاً هذه المرة ولم يميز منه سوى بضع كلمات متفرقة:

ـ"...براحتك....بنات...مظاهرة..."، قبل أن ينقطع الاتصال.

أشار بيده لسيارة أجرة، والتي ركبها فور وقوفها قائلاً للسائق بهدوء ورصانة:

ـ"شارع القصر العيني".

التفت إليه السائق في دهشة قائلاً:

ـ"القصر العيني؟ إنت مش عايش في البلد ولا إيه يا أستاذ؟ الشارع كله مظاهرات وعساكر أمن مركزي.. وسط البلد كله ملبش دلوقتي".

تطلع إلى ساعته للحظات قبل أن يقول بنفس الهدوء:

ـ"خلاص نزلني عند أقرب مكان مفيهوش لبش".

هز السائق كتفيه باستسلام، ومضى بهما إلى وسط البلد.

وهناك، أدرك (مازن) ما قصده السائق بكلمة "لبش".
فقد كانت سيارات الأمن المركزي منتشـرة بعشوائية في الشوارع المحيطة بميدان التحرير، بينما يطارد جنودها من خلف دروعهم الواقية بعض الشباب الذين يهرولون بصورة غير منتظمة.
ووسط الهرج، استطاع بصعوبة الوصول إلى مبتغاه في الدور السادس من أحد البنايات المطلة على شارع قصر العيني، أحد الروافد المؤدية إلى ميدان التحرير، والذي يضم مقار العديد من الوزارات الحيوية ومجلس الوزراء، ويؤدي إلى مجلسي الشعب والشورى.
دار بعينيه بحثاً عن (رأفت) و(حمزة)، ليجدهما في شرفة مكتب الأخير المطلة على هذا الشارع الحيوي.
كان مندهشاً من وقوفهما واندماجهما مع ما يحدث في الشارع، وكأنهما لم يكتفيا منذ الصباح، فداعبهما وهو يضع سبابتيه في منتصف ظهريهما هاتفاً بصرامة مصطنعة:
ـ"مكانك إنت وهو".
انتفض (رأفت) لجزء من الثانية وهو يلتفت إليه بذعر، بينما واصل (حمزة) متابعة ما يحدث بالشارع واكتفى بسؤال صديقه بسخرية:
ـ"مش هتبطل حركاتك دي؟ ساعة الجد فص ملح وداب؟"
هز (مازن) كتفيه قائلاً بقلة حيلة:
ـ"أعمل إيه بس؟ مهو لو شفت اللي أنا شفته كان الدم فار في عروقك. فوجئت ب(علا) هانم وسط المظاهرة، إزاي معرفش. وطبعاً إنت عارف العساكر مبتتوصاش مع البنات، فخدتها ورجّعتها البيت".
ثم عاد بنظره إلى (رأفت) قائلاً بلهجة خاصة:

ـ"وأكيد المجنونة خطيبتك هي اللي شدت (علا) وراها للمظاهرة. أصل دي مش دماغ (علا) اللي بتخاف من خيالها".

هم (رأفت) بالدفاع عن خطيبته حينما قاطعه هتاف (حمزة) الحماسي:

ـ"رااااااااجل".

تقدم (مازن) و(رأفت) إلى سور الشرفة ليتابعا ما جعل (حمزة) يهتف بهذا الحماس لتقشعر أجسادهم جميعاً من روعة الموقف أمام أعينهم.

فأسفل المبني كان الشباب يهرولون بلا نظام على طول الشارع مع اقتراب إحدى عربات الأمن المركزي المدرعة.

غير أن شاباً منهم استدار فجأة ليواجه المدرعة عاقداً ذراعيه أمام صدره في حركة تحدٍ واضحة تنم إما عن شجاعة فائقة أو جنون مطبق.

حينها هاجت الأصوات في الشرفات والنوافذ المطلة على شارع القصر العيني وجميع من فيها يهتف "راااااجل...خليك واقف...رجااااااااالة".

كان (حمزة) يسجل ما يشاهده بعدسة هاتفه المحمول، وأسرع (رأفت) يلتقط عدة صور ثابتة بكاميرته الاحترافية التي تتدلى من عنقه.

أما (مازن) فوقف مشدوهاً أمام المشهد، خاصة حينما ارتفع مدفع المياه بقوة من المدرعة في اتجاه الشاب الذي ظل صامداً على وقفته في وجه الماء المندفع والمدرعة تقترب منه في تهديد واضح.

ويبدو أن شجاعة الشاب وهتاف المتابعين أثارا حمية شباب آخرين هرعوا للوقوف إلى جانبه في وجه المدرعة ومدفع المياه، بل وتجرأ أحدهم ليقفز فوق المدرعة ويسد مدفع المياه بجسده ليتصاعد الهتاف من الجميع رجالاً ونساء "رجاااالة....خليكو واقفين".

كان (مازن) يتابع المشهد وقلبه يخفق بقوة وعقله يسبح بعيداً بينما تأتيه أصوات المحيطين به وكأنها تأتي من أعماق بئر سحيقة لم يخرج منها إلا على صوت (حمزة) وهو يهزه من ذراعه قائلاً:

ـ"مالك يا (مازن)؟ إنت بلمت كدا ليه؟ إوعـى تكـون مشـفتش المشـهد دا. أكاد أجزم إن مفيش مصري وقف بالشجاعة دي إلا أيام حرب ٧٣. الفيـديو دا هيغلب فيديو الطالب الصيني اللي وقف قدام الدبابات زمان".
حينها انتبه (مازن) ليقول له بحالمية ممتزجة بثقة غريبة:
ـ"بالروح اللي شفتها دي... لااااا الموضوع كبير فعـلاً. شـكلها مـش هـتخلص على شوية هتافات ومظاهرات زي ٦ ابريل... شكلها ممكن توسع قوي".
هزه (حمزة) من ذراعه ثانية وهو يسأله باهتمام:
ـ"تقصد إيه يا (مازن)؟ إيه اللي في دماغك"؟
منحه (مازن) ابتسامة غامضة وهو يعود إلى داخل الغرفة قائلاً بحماس:
ـ"اللي في دماغي كتيييير. يالا ارفـع إنـت الفيـديو دا عـلى يوتيـوب وعـلى فيس بوك. وأنا هدخل مكتبي دلوقتي اكتب مقال بكـرا. مـش لازم نسـيب الأحداث دي من غير ما نغطيها خصوصاً إننا كنا في قلب الحدث. أنـا هنـزّل الصور اللي على موبايلي وإنت و(رأفت) كمان جهـزوا صـوركم عشـان ننّـزل في عدد بكـرا تقريـر مصـور إن شـاء اللـه. ولازم مقـالات بكـرا كلهـا تـدعم الشباب في اللي جاي".
رفع (حمزة) أحد حاجبيه متسائلاً:
ــ"أفهم من كدا انك هتطالب بالنزول في مظاهرات تاني؟"
هز (مازن) كتفيه قائلاً:
ـ" وليه لأ؟ لحد إمتى هنسكت.. إستنى على رزقـك بـس وهتشـوف النـاس هتكتـب إيـه عـن الـلي شـافوه النهـاردة. وفيـديو زي دا كفيـل بإنـه يخـلي الشباب ينزل ويتشجع ويهتف ضد الفساد. وأنا رأيي نطـرق الحديـد وهـو سخن. وبصفتك نائب رئيس التحريـر المفـروض نخـلي العـدد الجـاي ثـوري بجد. أنا عن نفسـي مستعد اعتصم في التحرير من بكرا الصبح. وبكرا ليـه؟ من النهاردة بالليل. لازم يعرفوا إن اللي حصل النهـاردة مـش شـوية شـباب

بيجعجـع وخـلاص. دا شـباب خـرج ومـش هيرجـع إلا لمـا يحصـل تغيـير حقيقي".

هم (رأفت) بالرد عليه حينما سارع (حمزة) يقول باتزان يميزه:

ـ"أنا مش معاك يا (مازن). إذا اعتصمنا من النهاردة أو حتى بكـرا هيقولـوا إننا بنعطل سير العمل. أنا رأيي نعمل مظاهرة سـلمية تانيـة يـوم الجمعـة عشان يبقى الكل عنده أجازة ويقدر يشارك، زي ما النـاس النهـاردة نزلـت عشان كان أجازة. ولا إيه يا (رأفت)؟"

عدل (رأفت) من وضع نظارته الطبية على أنفه قائلاً بشكل عملي:

ـ"بيتهيألي (حمزة) عنده حق. إحنا دلـوقتي نجهـز مقالاتنـا ونشـوف بـاقي الحركات السياسية هتقول إيه وهي بتعلق على اللي حصل النهاردة".

هز (مازن) كتفيه قائلاً:

ـ"خلاص اللي تشوفوه.. يالا عاوزين نلحـق المطبعـة. هقـول لعـم (صـبحي) يجهز لنا أي أكل في السريع".

ضحك (رأفت) وهو يتجه إلى مكتبه قائلاً:

ـ"متتعبش نفسك. عم (صبحي) أجازة. كُل من البسكوت الـلي إنـت حاطـه على طول في درجك".

حك (مازن) شعره بحركة طفولية وهو يقول بتأفف:

ـ"يادي البسكوت... معدتي نشفت. خلاص أصبّر نفسـي بيـه لحـد مـاخلص المقال وابقى انزل أجيب لنا حاجة ناكلها.. مانا عارف انك مش هتنزل طبعاً ولا سيادة نائب رئيس التحرير. ولا إيه يا عم (حمزة)؟"

هم (حمزة) بإجابته لولا أن باغتـه رنـين هاتفـه برنـة مميـزة جعلتـه يعقـد حاجبيه في ضيق ويتجه نحو مكتبه ليجيب الهاتف بعدما أشار بيده وكأنـه يختنق من صاحب الاتصال.

حينها لم يتمالك (مازن) نفسه من الضحك وهو يقول ساخراً:

ـ"شكلها الحكومة".

***

السابعة مساء

المعادي

ارتفع رنين هاتفها المحمول فأجفلت للحظات قبل أن تتنفس بقوة وهي تلتقطه وتجيب المتصل قائلة:

ـ"السلام عليكم. أهلا يا (منار)".

أتاها صوت (منار) المتلهف من الطرف الآخر وهي تسألها باهتمام:

ـ"إنتي اختفيتي فين؟ كنتي جنبي في المظاهرة وفجأة ملقتكيش. قلبي وقع في رجليا لما تخيلت إنهم قبضو عليكي ولّا عملو فيكي حاجة".

ابتسمت في هدوء وهي تجيبها:

ـ"لا متخافيش... طلع لي فارس الأحلام وشالني من وسطهم على حصانه".

عقدت (منار) حاجبيها وهي تعتدل في جلستها قائلة بدهشة:

ـ"بتهرجي... إوعي تقولي (مازن) شافك؟"

مطت شفتيها قائلة باستسلام:

ـ"أيوه شافني. بس الحقيقة هو جه في وقته. العسكري كان رافع العصاية التخينة بتاعته دي وهينزل بيها على دماغي لولا ربنا ستر ولقيت اللي بيشد إيد العسكري لفوق ويشخط فيه، وبعدها لقيته بيشدني ويجري بيا في شوارع جانبية لحد ما رجعني البيت".

اتسعت عينا (منار) وتسارعت أنفاسها وهي تشعر بالإثارة مما تسمعه من صديقتها وقالت تستحثها:

ـ"واااو أكشن... ها وبعدين؟"

صدمتها بصوتها المحبط وهي تقول:

ـ"ولا قبلين. زعق لي لما روّحنا وتقريباً حلف مانزل من البيت بدون علمه".

سألتها صديقتها بخبث:

ـ"هو إنتي مكنتيش استأذنتي منه تروحي المظاهرة؟؟ تؤ تؤ تؤ... ميصحش يا (علا) برضه".

هتفت بها في غيظ:

ـ"(منار)... متستعبطيش. إنتي عارفة انه مش معايا في البيت. عايزاني اتصل بيه يفتكر إني باتلكك مثلا؟"

أجابتها (منار) بعقلانية:

ـ"والله لو على الصح يبقى لازم تستأذني منه. الشرع بيقول كدا."

زفرت في ضيق قبل أن تقول:

ـ"استغفر الله العظيم. عارفة إن الشرع بيقول كدا. بس بجد مكنتش هقدر اسمع صوته، ولا أحس إني مضطرة استأذن منه بعد كل اللي حصل. أصلا أنا ما صدقت أحس إني رجعت طبيعية".

سألتها صديقتها بهدوء:

ـ" ومين قال انك كدا طبيعية؟ إنتي عمرك ما طلعتي في مظاهرات ولا كان ليكي في السياسة أصلاً. إنتي اتغيرتي فعلاً يا (علا)."

تنهدت (علا) في عمق وهي تهمس بضيق:

ـ"والله مانا عارفة مين اللي اتغير...أنا ولا هو".

قالتها وعقلها يشرد بعيداً..... إلى ما قبل ٢٠١١

تحديداً إلى الخميس ٤ نوفمبر ٢٠١٠

اليوم الذي حمل أجمل أحلامها وأكبر مخاوفها معاً.

يوم أتاها اتصال هاتفي من مدرسة (مودي) يخبرها بأن الصغير يعاني من ارتفاع الحرارة ولابد لها من الحضور لاستلامه.

حينها فقدت التركيز نسبياً وعقلها يضخم أسباب مرض الصغير، فخرجت من فورها لا تلوي على شيء متجهة إلى المدرسة. ولقلة تركيزها ارتطمت رغماً عنها بحائط عريض تميزه رائحة عطر قوية زكمت أنفها.

رفعت عينيها المذعورتين لتحتلهما نظرة ارتباك عارمة حالما تعرفت هوية ذلك الحائط البشري.. حلمها وكابوسها في آن واحد.

همست بإسمه وهي تعتذر بحرج وهمت بالابتعاد حينما ابتدرها متسائلاً كيف تعرفه.. لم يتخيل أنها زميلته في ذات الصحيفة منذ أكثر من عامين، ورغم ذلك لم يرها أو يلمح طيفها. وحينها سألها ثانية فيم هروبها المذعور وكأنما تطاردها شياطين الإنس، ثم وبكل كياسة، أصر على أن يصحبها إلى وجهتها.

شيء ما بداخلها جعلها توافقه في تلك اللحظة، رغم تواريها عن أماكن تواجده منذ بدأت العمل في الصحيفة. ولولا الخوف من وصفها بالغرور لأقسمت أن عينيه لم تتركا جزءاً فيها دون فحص دقيق، بداية من حجابها الأنيق بدرجات الأوفوايت والبوستاج ونهاية بتاييرها الرسمي الأوفوايت الذي كسرت البلوزة البوستاج رسميته بنعومة حالمة. وبالتأكيد لم ينس أن تتلكأ نظراته على ملامحها العذبة وبشرتها الشفافة وعينيها الزرقاوين بلمعة الكريستال. كانت واثقة أن هذا ال"كازانوفا" يستغل نظارته الشمسية الأنيقة ليخفي خلفها نظراته الفاحصة، متظاهراً بمتابعة الطريق خلفه عبر مرآة السيارة الأمامية، بينما هو في الحقيقة يفحص تلك الفاتنة إلى جواره.

هي الأخرى سارعت بارتداء نظارتها الشمسية لتخفي نصف ملامحها الخجلى، لكنها لم تكن بحاجة إليها لتخفي نظراتها المتسللة إليه؛ فملامحه ليست جديدة عليها، بل إنها تحفظها عن ظهر قلب، بوجهه المستدير وحاجبيه الكثين يظلان عينيه الفحميتين وأنفه المستقيم الذي يعلو شاربه

الأنيق، وطابع الحسن المغوي الذي يتوسط ذقنه في كبرياء زاده شعره الأسود الناعم الذي يصففه بطريقة خمسينيات القرن الماضي ليبدو وكأنه خرج للتو من أحد أفلامها.

لم يقطع الصمت بينهما سوى وصفها لمكان مدرسة (مودي) حتى وصلا، فترجلا وسار خلفها محاولاً التحكم في دهشته حينما وجد نفسه محاطاً بالصغار. لكن مؤشرات دهشته قفزت لذروتها حينما رأى هذا الـ(مودي) يقترب منها كنسخة مصغرة وقد ألهبت الحرارة وجنتيه المكتنزتين كوجنتيها تماماً، وسمعها تقدمه قائلة إنه أخيها الصغير. لكن الدهشة كانت من نصيبها هي هذه المرة حينما تأمل (مودي) هيئة (مازن) قليلاً قبل أن يصافحه بقوة لا تتناسب ومرضه، ثم يعانق ساقيه بمودة غير مألوفة منه مع الغرباء.

يومها دق ناقوس خطر بداخلها وهي تستشعر نوعاً جديداً من الترابط بين أخيها الصغير وكازانوفا الصحيفة الذي تتهرب منه.

لكن سبق السيف العزل، ليرتبط الاثنان بأقوى مما تخيلت، وينتهي بها الأمر زوجة لـ(مازن عاشور) بعد أقل من شهر، و...

"رحتي فين يا بنتي؟ (علا) سامعاني؟"

خرجت من ذكرياتها قسراً على صوت (منار) القلق الذي يأتيها من الطرف الآخر فتنحنحت لتجد صوتها وهي تحاول أن تبدو طبيعية:

ـ"آسفة يا (منار).. سرحت شوية. كنتي بتقولي إيه؟"

ضحكت (منار) على صديقتها وقالت تجيبها:

ـ"لا خلاص أنا عرفت إنتي سرحانة في إيه".

التهبت وجنتا (علا) خجلاً وتنحنحت ثانية لتقول بحنق:

ـ"(منار)، بلاش عبط. أنا سرحت في اللي شـفته النهـاردة في المظـاهرة. بجـد شيء مرعب إني أتخيل حد يلمسني في وسط الزحمة بحجة فـض المظـاهرة. أصلاً شفت عساكر زي ما تكون بتدوّر على البنات عشان يروحولهم".

زفرت (منار) بضيق قائلة:

ـ"للأسف آه. يعني كنوع من ترهيب البنـات عشـان مفـيش واحـدة تفكـر تنزل مظاهرة إلا إذا كانت أخلاقها زبالة. تعرفي (رأفت) اتصل بيا من شوية وقال لي إننا هننزل في مظاهرات تاني يوم الجمعة إن شاء اللـه. بـس يـارب ما يعملوش زي النهاردة."

وقبل أن تعلق (علا) على ما سمعته فوجئـت بصـديقتها تهتـف بهـا وكأنهـا تذكرت شيئاً للتو:

ـ"صحيح نسيت أقولك. عارفة (عـماد سـليمان) المخـرج؟ الظـابط خـد منـه موبايله وكسره في الشارع، وبعدين سحبه من هدومه لشارع جانبي ورمـاه في مدخل عمارة وفضل يضربه هو والعساكر لما كان هيموت فيها. ستر ربنـا جه ظابط تاني ابن حلال وهرّبه بعيد عنهم. بس يا عيني كـان مـاشي مـش شايف قدامه. (رأفت) شـافه ولحقـه ووداه عنـد واحـد صـاحبهم في وسـط البلد عملوا له الإسعافات الأولية هنـاك وهـو هـاين عليـه يعـيط مـن كـتر القهر. ليه يعملوا كدا أنا مش فاهمة؟"

زفرت (علا) بدورها وهي تجيبها بضيق:

ـ"عشان محدش فينا يفتح بقه. وعشان اللي فـوق يفضـلوا فـوق، والشـعب ياكل من تحت رجليه".

رفعت (منار) حاجبيها بدهشة انتقلت إلى صوتها وهي تسألها:

ـ"إيه دا يا (لولو)؟ من إمتى بنتكلم في السياسة؟ هو الأستاذ (مازو) عـداكي ولا إيه؟"

هتفت بصديقتها بحرج بعدما عادت وجنتيها إلى الاحمرار قائلة:

ـ"بنت... (مازو) ف عينك. وبعدين مش معنى إني في القسم الأدبي يبقى مليش في السياسة. أنا بس اللي مبحبش أتكلم".

تعالت ضحكات (منار) وهي تقول من بينها:

ـ"يا جاااامد انت. طب يا ست يا بتاعة السياسة، طبعاً مش هتروحي مظاهرات الجمعة، ولا إيه؟"

مطت (علا) شفتيها والضيق يتزايد في صوتها قائلة:

ـ"أروح فين بقى... الديكتاتور بتاعي مانعني من النزول".

ثم مالبثت أن سألتها في سرعة:

ـ"صحيح تعالي هنا... النهاردة ربنا ستر. مش خايفة أخوكي يشوفك في المظاهرة يوم الجمعة ويطين عيشتك؟"

عادت (منار) للضحك قائلة بثقة:

ـ"لا متخافيش. هو صحيح ظابط في الأمن المركزي بس اتنقل قطاع العريش من حوالي شهرين لما أخد الترقية الجديدة. تقدري تقولي إني ما بدأتش أشم نفسي وانزل مظاهرات غير لما ساب القاهرة خالص. الدور والباقي على بابا، بس أنا بعرف أقنعه باللي أنا عاوزاه".

تنهدت (علا) في عمق وهي تشعر بغصة خفية تخنقها لافتقادها روح الأسرة التي تتمتع بها صديقتها، وجاهدت ليبدو صوتها طبيعياً وهي تقول:

ـ"خلاص ابقي صوري لي كل اللي تشوفيه في المظاهرة. وربنا يستر ويسلمكم جميعاً. هتعملي إيه دلوقتي؟"

هزت (منار) كتفيها وهي تقول بملل:

ـ"مش عارفة لسه. هدخل على فيس بوك أشوف الصفحة اللي أنا وانتي مشاركين فيها اتفقوا على إيه، وبعدها هكتب تقريري عن اللي عشته النهاردة عشان أبعته الجورنال. وانتي؟"

هزت (علا) كتفيها بدورها وهي تجيبها قائلة:

ـ"أنا لسه أجازة بس هدخل فيس بوك برضه ويمكن ارجع أتابع الجزيرة والعربية أشوف هيقولو إيه".

أتاها صوت (منار) الساخر وهي تقول:

ـ"يعني هيقولو إيه غير اللي شفناه أنا وانتي؟ يا بنتي المفروض إحنا اللي ننقل الأخبار مش هما".

ضحكت (علا) برقة وهي تنهي المكالمة قائلة:

" خلاص يا ست المهمة... روحي شوفي شغلك وأنا أشوف اللي ورايا وخلينا على اتصال".

وبكل قوتها، جاهدت لتبعد صورته عن ذهنها، لكنها غرقت رغماً عنها في بحر ذكرياتهما سوياً.

***

التاسعة مساء

وسط البلد

مسح أصابعه بمنديل معطر بعدما انتهى من تناول غذائه المتأخر مع صديقيه في مقر الجريدة، وتظاهر بفتح زجاجة المياه الغازية وهو يسأل (حمزة) في خبث يميزه:

ـ"هي الحكومة كانت عايزة منك إيه يا (موزي)؟"

قذفه (حمزة) بمظروف البطاطس الفارغ هاتفاً به:

ـ"احترم نفسك أنا رئيسك. قال (موزي) قال".

انفجر (مازن) و (رأفت) في الضحك على انفعاله ووجهه الأبيض الذي احتقن بدماء الغضب منهما ليقول (مازن) مبرراً:

ـ"اعمل لك إيه؟ مانت اللي حلو زيادة عن اللزوم تقولش (حسين فهمي)؟ أراهن إن البنات مسميينك كدا".

قذفه (حمزة) بمظروف البطاطس الآخر أمام (رأفت) لتتناثر أصابع البطاطس المحمرة على وجهه وملابسه وهو يهتف بغيظ:

ـ"أنا برضه بتاع بنات يا كازانوفا عصرك؟ الدور والباقي عليك اللي عامل فيها (رشدي أباظة) ومصدق نفسك من يوم ما ربيت شنبك زيه. وبعدين أصلاً اسم (موزي) دا ينفع لك انت مش أنا. أنا نائب رئيس التحرير".

هب (مازن) من مقعده لينفض البطاطس عن ملابسه ويلتقط المظروف الفارغ ليعيد إلقائه على (حمزة) قائلاً:

ـ"يادي نائب رئيس التحرير اللي فلقتنا بيها، تقولش نائب رئيس الجمهورية اللي هنموت ولسة ما شفناهوش. مكانوش دفعتين عُمي بيني وبينك أيام الجامعة".

هم (حمزة) بالرد عليه بنفس المرح لولا تدخل (رأفت) بينهما ماداً ذراعيه قائلاً بنفس المرح:

ـ"باااااس. خلاص احترموا إني اصغر واحد في القعدة دي وماوصلتش حتى نائب رئيس السعاة."

ثم مالبث أن استدار إلى (حمزة) يسأله وهو يحرك حاجبيه بخبث:

ـ"برضه مقولتش يا سيادة النايب الحكومة كانت عايزاك ليه؟"

تظاهر (حمزة) بأنه سيلكمه ليرفع (رأفت) ذراعيه بشكل دفاعي ليحمي رأسه تحت أنظار (مازن) المبتسم، ليقول (حمزة) من بين أسنانه:

ـ"هلاقيها منكم ولا منها؟ هي تسألني وانتم تسألوني... خلاص قرفت. حاسس إني بقيت متهم".

عقد (مازن) حاجبيه من لهجة صديقه الغاضبة وهو يسأله باندهاش:

ـ" (حمزة) انت بتتكلم بجد؟ هي (راندا) برضه زي باقي الستات"؟

ضحك (حمزة) بسخرية قائلاً:

ـ"يعني صاحبة (علا) و (منار) وعايزها تبقى إزاي"؟

أشاح (مازن) بكفه قائلاً:

ـ" لاا... لو عالصحوبية يبقى لك حق. التلاتة طاقين".

رفع (رأفت) سبابته وهو يقول معترضاً:

ـ"لا معلش.. (منار) مش طاقّة. هي ثورجية بس".

ضحك (مازن) بنفس السخرية وهو يقول بعصبية:

ـ"بلا خيبة... مش هي اللي سحبت مراتي وراها ونزلوا المظاهرات النهاردة؟ وتقولي مش طاقّة؟ تفهم (علا) إيه في المظاهرات عشان تسيب أخوها عند الجيران وتنزل مظاهرة؟ دا ربنا بعتني ليها عشان ألحقها قبل العساكر ما يلمسوها. قوللي بقى إن (منار) مأقنعتهاش تنزل".

أجابه (رأفت) بثبات:

ـ" أيوه (منار) مأقنعتهاش تنزل. الاتنين أعضاء على صفحة 'طريق الحرية' اللي على فيس بوك. ونزلوا المظاهرات بعد كلام الأدمن الحماسي و..".

اتسعت عينا (مازن) للحظات وهو يسأله بصوت أجش:

ـ"إيه؟؟ انت متأكد من الكلام دا"؟

أومأ (رأفت) برأسه في ثقة وهو يجيبه:

ـ"أيوة لإني أنا اللي عرفتهم عالصفحة. والكلام دا من قبل ما تتجوز (علا) على فكرة. بس هي فجأة قررت تبقى عضو فعال وتنزل المظاهرات".

هم (مازن) بالرد عليه حينما قاطعهما صوت (حمزة) المنفعل وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ" مش وقته يا اخواننا... يالا بينا الشباب معتصم في التحرير دلوقتي ولازم ننضم لهم. (معاذ) كلمني من هناك وبيقول لازم نبقى إيد واحدة".

التفت إليه زميلاه وهما يسألانه في وقت واحد:

ـ" مين (معاذ)؟"

حدق فيهما (حمزة) بغيظ وهو يهتف:

ـ" يـادي الفضـول الصـحفي الـلي هيوديكـو في داهية...قـدامي انـت وهـو، وبلاش أنتخة. يالا بينا".

***

قرب منتصف الليل

ميدان التحرير

ارتفع رنين هاتفها المحمول فأجفلت للحظة قبل أن تميـز النغمـة المخصصـة لزوجها. أخرجـت الهـاتف مـن جيـب معطفهـا الثقيـل وتأملـت في حســرة صورة زفافها التي تتراقص على الشاشة مصحوبة بعبارة "حياتي يتصل بك".

زفرت في عمق قبل أن تقرر الرد عليه، لتقول باقتضاب وصـوت حاولـت أن يبدو قوياً:

ـ"أهلا يا (شريف)".

سألها بلهفة:

ـ"إنتي فين؟"

حركت عينيها بتعب مـن آثـار الغـاز المسـيل للـدموع وهـي تجيبـه بـنفس الاقتضاب:

ـ"التحرير".

زفر بقوة قبل أن يهتف بها في عصبية:

ـ"برضه نفذتي اللي في دماغك؟ يا (نجلاء) افهمي أنا بحب...".

قاطعته في سرعة:

ـ"افهم انت لو سمحت ونفذ طلبي... أنا مش هقدر أتخلى عن حلمي وعن رسالتي. وبرضه مـش هقـدر أتسـبب في أذى ليـك أو لأهلـك الـلي بحـبهم. صدقني الحل الوحيد إنك تطلقني عشان محدش يمسك عليك حاجة. وعـلى فكرة دا آخر كلام وغالباً الموبيل هيفصل شحن قريب فياريت ترمي اليمـين حالاً وتريحنا إحنا الاتنين".

لان صوته وهو يهمس باسمها مستعطفاً:

ـ"(نجلاء)... أنا..".

اختنق صوتها بالعبرات وهي تتظاهر بالقوة قائلة:

ـ"أرجوك".

تناهى إلى مسامعها صوت تنفسه المرتفع وكأنه يجاهد لالتقاط أنفاسه أو ربما يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن ينهي المكالمة بغتة.

مع انقطاع الاتصال تزايدت دقات قلبها في عنف وعقلها يصور لها ما قد يعانيه زوجها الشاب، الذي غالباً ما تصيبه نوبات ربو وضيق تنفس كلما انفعل.

حاولت تهدئة نفسها وتخيَل أنه بخير وأنه لن يموت، لكنها لم تتمالك نفسها ووجدتها تحاول الاتصال به لتجد هاتفه مغلقاً ويزداد شعورها بالبرودة.

أحكمت إغلاق معطفها الثقيل وهي تسند ظهرها إلى احد أعمدة الإنارة بحديقة الميدان وشعرت بالدموع تخنقها فأطلقت سراحها علها ترتاح قليلاً من وطأة هذا الحمل.

يا الهي... ألهذا الحد تحبه وتشعر بأن فراقه كحكم الإعدام؟؟؟

ومن خلف غيام دموعها الغزيرة دارت بعينيها في وجوه الشباب الذين افترشوا الأرض حولها معتصمين بالميدان ومطالبين بالعدالة الاجتماعية.

أية عدالة اجتماعية؟؟؟

وهل من العدل أن تضطر إلى المفاضلة بين وطنها وزوجها؟؟؟

ألا يمكنها الاحتفاظ بكليهما؟؟

لماذا يضعونها أمام أحد خيارين: إما حياتك الخاصة أو السياسة؟؟؟

تنهدت في عمق ثانية وهي تعود بذاكرتها إلى صباح اليوم الأخير الذي رأت فيه زوجها، حينما استيقظت على همسه باسمها بكل نعومة.

فتحت عينيها بتكاسل وهي تتمنى أن يكون ما عاشته بالأمس كابوساً، لكنها ما إن رأت وجه زوجها وملابسه حتى عادت أحداث الليلة السابقة بقوة إلى ذاكرتها لتجعل ملامحها تتجمد وهي ترمقه بصمت.
أما هو، فانحنى عليها ليقبلها كعادته قبل أن يشعر بكفيها يدفعانه في صدره ليوقفانه على بُعد أنملة من وجهها الذي أدارته للاتجاه الآخر.
رفع حاجبيه في دهشة وهو يسألها:
ـ"(نوجي) في إيه؟"
ابتعدت عنه لتجلس في منتصف الفراش وهي تحاول ترتيب خصلات شعرها المبعثرة من أثر النوم قائلة بضيق:
ـ" يعني مش عارف فيه إيه؟ نسيت امبارح؟"
اعتدل في جلسته أمامها على طرف الفراش وهو يعاتبها قائلاً:
ـ"مفروض أنا اللي أزعل من اللي قلتيه أمبارح. مفروض أنا اللي انزعج من كلامك ومن طلبك. للدرجة دي هُنت عليكي يا (نوجي)؟ خلاص بقيت حاجة سهل تستغني عنها في أول ملف؟"
دعكت طرف أنفها بطفولية قبل أن تجيبه بضيق:
ـ"انت شايف حل تاني؟ لو الضرر صابني أنا أحسن مليون مرة من إنه يصيب حد في اخواتك البنات. فاهم يعني إيه بنات ممكن شرفهم يضيع في لحظة؟ ممكن هما نفسهم يموتو من غير دية بسببي، وأنا لا يمكن أقبل بكدا.. لا يمكن أتسبب في أذية حد بحبه".
عقد حاجبيه وهو يهتف غاضباً:
ـ"وطلاقنا مش هيئذيني؟ مش هيئذيكي؟ ولّا عادي عندك؟ عادي عندك تصحي على صوت حد غيري؟ عادي عندك إني اخرج من حياتك؟ لو دا عادي أو سهل بالنسبة لك فهو إعدام بالنسبة لي. إعدام إني أدخل الشقة وانتي مش فيها. إني أنام على السرير دا وانتي مش جمبي".

ثم عادت نبراته إلى الهدوء وهو يحتضن وجهها بين كفيه ويسند جبهته على جبهتها هامساً:

ـ"(نوجي) إنتي حياتي. من يوم ما عرفتك وحبيتك وأنا حاسس انك الوحيدة اللي بتكمليني. مينفعش بعد سنتين جواز اصحى فجأة وانتي مش جنبي. مش في حضني يا (نوجي) مستحيل".

قالها وهو يحاول أن يطفئ شوقه إليها، وكاد أن ينجح لولا أن تمالكت نفسها وأبعدته عنها في قوة وهي تقفز من فوق الفراش وتهمس بأنفاس متقطعة:

ـ"ما ينفعش".

نهض هو الآخر وضاقت حدقتاه وهو يقترب منها ويسألها:

ـ"هو إيه اللي ما ينفعش؟ (نوجي) أنا جوزك".

ابتعدت عنه في ذعر وهي تعيد إغلاق ملابسها بأصابع مرتجفة قائلة:

ـ"ما ينفعش تلمسني خلاص. أنا طلبت الطلاق".

واصل اقترابه منها هامساً:

ـ"وأنا مطلقتش، ومش هطلق".

رجته بعينيها أن يبتعد ويرحم ضعفها نحوه، لكن عينيه لم تحملا سوى شوقه إليها وذعره من أن يخسرها.

وبعدها، حينما استكانت بالقرب من قلبه، وجدته يضمها إليه أكثر وهو يقبل جبهتها هامساً بنعومة:

ـ"دا مكانك. جنب قلبي. اوعي تبعدي عنه".

غاصت أكثر بنعومة في صدره دون أن تنطق، فتابع هو متسائلاً:

ـ" تعرفي عايز اعمل إيه؟ عايز استغل الأجازة النهاردة وافضل قاعد معاكي هنا، في اودتنا وعلى سريرنا".

قالها وهو يدور بوجهه إليها ليجدها مقطبة الجبين قبل أن تهتف به في حنق:

ـ" بقى هي الحكاية كدا. حضرتك برضه بتلف وتدور عشان ما انزلش المظاهرات النهاردة وتبقى انت الكسبان...يا خسارة".

وبكل مرارة تشعر بها في حلقها نهضت من الفراش وهي تجذب الغطاء عنه في غل وتلف به جسدها المرتجف غضباً وتهرع إلى حمام المنزل قبل أن تستدير إليه صارخة بحقد:

ـ" أنا لسه عند طلبي... طلقني".

وغابت خلف باب الحمام و....

خرجت من ذكرياتها على أصوات هتاف الشباب في الميدان يحذرون من هجوم جديد لفض الاعتصام.

وحينما ساد الهرج والمرج بين الصفوف، تراجعت كل اهتماماتها وانحصرت في أحد أمرين: إما الحرية أو الموت.

** ** **

(٢)

الأربعاء ٢٦ يناير
العاشرة صباحاً
المعادي

تمطت في فراشها بكسل وحانت منها التفاتة إلى الساعة المجاورة للفراش لتكتشف كم تأخرت في النوم.
وكيف لا تتأخر وقد قضت ليلتها البارحة حتى الفجر تحاول إلهاء (مودي) عن رؤيته لـ(مازن) بعد أن كان قد تأقلم على الحياة دونه.
فقد ظل يبكي طيلة الليل في انتظار عودته حتى غفا على كتفها من الإرهاق بعد أن بُح صوته.
بكاؤه كان يمزقها، ويثير غيظها في نفس الوقت.
فكيف استطاع صغيرها أن يتعلق بـ (مازن) بهذه السرعة، وهو الذي لم يعرف سواها طيلة سنوات عمره الأربع؟
كيف له أن يبكي كل هذه المدة لمجرد اشتياقه له وكأنه أبوه الحقيقي.
كيف له أن يحتل مكانتها في حياة (مودي) بهذه السهولة وهو مجرد زوج أخته الكبرى؟

لا تنكر أن أخاها تعلق بـ (مازن) منذ رآه في دار الحضانة؛
ولا تنكر أنها قاومت هذا التعلق الذي كان يربطها بـ (مازن) هي الأخرى؛
(مازن) الذي كان كالملهوف الذي يرى طفلاً للمرة الأولى، وتعلق به بشكل ملحوظ، حتى أنها حارت في معرفة من أوقع الآخر في حبائله.
هل كان (مودي) صائد (مازن)؟
أم أن (مازن) صاد كليهما؟

خفضت عينيها لترى أخيها وصغيرها الذي تكور إلى جانبها متـدثراً بالغطـاء تماماً حتى لم يظهر من تحت الغطاء سوى طرف أنفه يتنفس عبره.
ابتسمت في حنان وهي تجذب الغطـاء بعيـداً عـن وجهـه ووجنتيـه اللتـان احمرتا بفعل سـخونة الغطـاء، ثـم داعبـت خصـلات شـعره الأشـقر النـاعم للحظات قبل أن تفرج شفتاها عن تنهيدة عميقة وعقلها يسبح بها بعيداً إلى ما بعد أول لقاء لها مع (مازن)

يومها كان الجمعة... يوم أجازتها وموعـد الانطـلاق الأسـبوعي لصـغيرها في الحديقة المقابلة لمنزلهم.
كانت تجلس كعادتها على أحـد المقاعـد الخشـبية تراقـب مـن بعيـد أخيهـا وانطلاقه، مكتفية بابتسامة رقيقة عـلى وجهها الـذي أخفـت نصـفه خلـف نظارة شمسية أنيقة، حينما فوجئت به يلتفت بعفوية نحـو سـور الحديقـة ويتوقف عن اللعب للحظات قبل أن يهرع في اتجـاه الخـروج. هـبط قلبهـا بين ضلوعها وهي تهرع بدورها لتلحق بـه في ذعـر لتتوقـف بعـد خطـوتين فاغرة فاها في دهشة...
فقد وجدته سعيداً بين ذراعي (مـازن)، الـذي أتى خصيصاً للاطمئنـان عـلى صديقه- أو هكذا قال لهـا- ويلـوح لهـا بسـعادة بقالـب الشـيكولاته الـذي أحضره له صديقه الكبير. وحينها سـألته بلهجـة عدائيـة عـن سر مجيئـه إلى الحديقة ليجيبها في دهشة مصطنعة:
ـ"هو دخول الجنينة دي قاصر على الستات ومفيش رجالة ولا إيه؟"
التهب وجهها خجلاً وذابت الكلمات على شفتيها وهي تحاول عبثاً إيجاد رد يخرجها من هذا المأزق، حتى ألهمها عقلهـا بـرد مرتجـل يـبرر خوفهـا عـلى أخيها الصغير.

حينها ابتسم(مازن) وهو يتحدث بود يخفي السم بداخله، موضحاً تفهمه لقلقها على الصغير. لا تدر كيف تركت رقبته في موضعها على كتفيه رغم تلميحه المقصود بأن الصغير ابنها، قبل أن يتدارك زلة لسانه مصححاً.

كم تمنت لو تصرخ به هاتفة أنه أخيها الصغير ولا شيء غير ذلك ولينفجر كمداً إن لم يصدقها، لكنها تمالكت نفسها وحاولت أن تبث في صوتها أقصى ما يمكنها من الهدوء وهي ترحب بوجوده مع الصغير على مضض.

راقبتهما يلعبان بحماس مع باقي الأطفال، قبل أن يعود إليها (مازن) وهو يلهث بشدة بعد هذا المجهود، ليستدرجها بخبث صحفي ليعلم مكنوناتها.

والغريب أنها رغم حرصها وتحفظها الدائمين، ثمة ما جعلها تتخلى عنهما في هذا اليوم وهي تسمح له بالجلوس إلى جانبها على الأريكة الخشبية كي يلتقط أنفاسه، قبل أن تبتدره بسؤال لم تعد تستطع كتمه بداخلها.

سألته عن السر خلف حضوره إلى الحديقة، فأجابها بأن لقائه بالصغير حرك بداخله مشاعر لم يعهدها مع أطفال آخرين من قبل.

لكنها لم تقتنع، لأنها لم تقابل من يهتم بأخيها إلى هذه الدرجة من قبل، حتى (سيف) شقيق صديقة عمرها (منار).. كان يداعب الصغير من بعيد لكن دون أن يتعلق أحدهما بالآخر.

و حينما وجدته مُصراً على الاقتراب من الصغير ودخول حياته اضطرت إلى مصارحته بحقيقة معاناتها مع المجتمع الذي يظن (مودي) ابناً لها من زواج سابق أو علاقة سرية مشبوهة.. وجدت نفسها تفتح له صندوقها الأسود بكل ما يحتويه من آلام وشكوك تحاصرها أينما حلت برفقة الصغير.

حاول أن يبدي تعاطفه معها وهو يمس كفها بأنامله، لتقفز واقفة وتهتف به وجسدها يرتجف غضباً بأنها لا تصافح الرجال.

أحرجته كلماتها فارتبك لأول مرة أمام عينيها معتذراً لا يدري ماذا يقول، حتى أنه عرض الانصراف إذا كان وجوده يضايقها.

لا تدرِ لماذا لم تسمح له بالانصراف في ذلك اليوم. ألأنها في زاوية ما من زوايا قلبها كانت سعيدة بوجوده واهتمامه؟

لماذا اعتذرت له عن انفعالها وأخبرته بالمزيد عن حياتها؟

لماذا أخبرته أن (مودي) أخيها من الأب وأن أمه تنازلت عن حضانته من أجل الطلاق لتتزوج ثرياً عربياً؟

ومرة أخرى أخطأت..

كان أكبر أخطائها في هذه اللحظة إشاحتها بوجهها بعيداً حينما أبدى دهشته من تنازل أم عن وليدها بهذا الشكل، فهي لم تلحظ تعبيرات عينيه ولم تشعر بمحاولته مداهنتها واستدراجها في الحديث،

لذا سرعان ما وقعت في فخه مخالفة حذرها الفطري وهي تسترسل في تفاصيل زواج والدها من والدة (مودي) حتى انفصالهما وتوليها مسؤولية الصغير.

وللمرة التي لا تعرف رقمها أخطأت حينما هُيئ لها أنها ترى التأثر على وجهه وصوته وهو يستنكر ما فعلته تلك الأم وتجردها من كل معاني الأمومة، ثم يُثني على شجاعتها وتحملها تلك المسؤولية وحدها.

والغريب أن ماكينة ضغط الدم بجسدها سارعت لتضخه إلى وجهها الذي تضرج بحمرة قانية وهي تشكره بحرج على استماعه لها وتعاطفه معها...

كانت ساذجة حينما استشعرت الصدق في صوته وتخيلته بر الأمان وسط عواصف عالمها.

براءتها وقلة خبرتها في التعامل مع العالم الخارجي جعلاها تقع في شركه سريعاً، فرفعت رأسها لتلتقي أعينهما للحظات أحرجتها وجعلتها تخفض وجهها ثانية قبل أن تتمالك نفسها وتتحجج بموعد دواء أخيها لتبتعد عنه.

وليتها نجحت في الابتعاد، فما كان ....

انتزعتها حركة الصغير من ذكرياتها وهو يفتح عينيه على اتساعهما ويقفز جالساً في الفراش هاتفاً بتساؤل:

ـ"(مازن) جِه؟"

اتسعت عيناها بدورها وهي تنظر إليه وقلبها ينبئها بالمزيد من البكاء انتظاراً لعودة (مازن)،

حبيبها الديكتاتور.

***

منتصف النهار

وسط البلد

تصاعدت دقات قلبه باضطراب وهو يقف كالتلميذ المذنب أمام مكتب رئيس التحرير، فالتقط شهيقاً عميقاً حبسه في صدره وكأنه سيمنحه الشجاعة للوقوف أمام رئيسه، رغم ثقته في أنه لا يريده بشأن العمل؛ ثم دق الباب بأناقة وفتحه ليدلف إلى الداخل.

لم يكن المكتب بارداً، ورغم ذلك شعر بقشعريرة قوية تغزو جسده، والتي ازدادت حينما لمح انعقاد حاجبي رئيسه الذي لا تفارق الابتسامة محياه.

أيقن لحظتها أن مخاوفه صحيحة، وأن الأمر لا يتعلق بالعمل،

لكنه رغم ذلك تنحنح وحاول استعادة شخصيته المرحة قائلاً بابتسامة واسعة:

ـ"حمدا لله بالسلامة يا دكتور (مصطفى).. الجورنال نوّر والله و...".

رفع الدكتور (مصطفى) إليه عينين تحملان قدراً هائلًا من اللوم والعتاب اللذان اتضحا في صوته وهو يقاطعه قائلاً بضيق مكتوم:

ـ"الله يسلمك يا (مازن).. اقعد عاوزك".

جلس متوتراً على طرف المقعد وبصره معلق بوجه رئيسه الذي خلع نظارته الطبية وحدجه بنظرة طويلة متفحصة قبل أن يسأله بعتاب خفي:

ـ"إيه اللي سمعته دا يا (مازن)؟"
ازدرد لعابه الجاف وتظاهر بعدم فهم رئيسه ليسأله بغباء مصطنع:
ـ"خير يا دكتور... حضرتك سمعت إيه؟"
عقد حاجبيه وهو يسأله بحدة خفية لم يستطع كبتها:
ـ"يعني مش عارف أنا طلبتك ليه؟ هي دي الأمانة اللي حلفت تحافظ عليها؟ هو دا وعدك ليا؟"
ضغط (مازن) فكيه في قوة وأغمض عينيه في ألم بعد أن تأكدت ظنونه في سبب استدعائه، ثم ما لبث أن فتح عينيه ليواجه رئيسه قائلاً بصوت أجش:
ـ"يبدو إن مفيش تفاهم بيننا. عادي يا دكتور إحنا مش هنبقى أول ناس تنفصل".
هتف به من بين أسنانه في غيظ:
ـ"تنفصلوا قبل ما تكملوا أربعين يوم؟ انتو اتهبلتوا في عقلكوا؟ دا انتو ملحقتوش تتعرفوا على بعض أصلاً. وحسب مافهمت مكانش فيه مشكلة زوجية بينكم تبرر الانفصال دا.. لا عيب عندك ولا عندها".
ازدرد (مازن) لعابه ثانية محاولاً إخفاء احمرار وجهه الخفيف وهو يجيب بألم:
ـ"يا دكتور الموضوع غير كدا... الموضوع وصل للثقة... مفيش ثقة بيننا".
خبط الدكتور (مصطفى) بكفه على سطح مكتبه بقوة هاتفاً:
ـ"يعني إيه مفيش ثقة؟ حتى لو كانت مراتك بتغير دا مش مبرر إنكم تنفصلوا ولا...".
قاطعه (مازن) بألم قائلاً:

ـ"يادكتور مكانتش غيرة... (علا) اتهمتني إني كنت بمّثل عليها وإني دخلت حياتها عشان غرض دنيء... اتهمتني إني كنت السبب في اللي حصل ل (مودي)".

عقد حاجبيه للحظات يفكر فيما سمعه قبل أن يقول معاتباً:

ـ"بس ميبقاش ردك انك تتهمها بقتل ابنك".

دافع عن نفسه في سرعة قائلاً بانفعال:

ـ"أي حد في مكاني هيفهم كدا. وأي حد عاقل في مكانها هيفهم إن حبي ل (مودي) لا يمكن يكون وراه أي هدف. أي واحد أعمى هيحس بحبي للولد وحبه ليا من أول يوم اتقابلنا".

هتف به رئيسه في انفعال مماثل:

ـ"وعشان بتحب أخوها تقوم تطلقها؟"

ضغط (مازن) فكيه ثانية وخلل شعره بأصابعه محاولاً تهدئة أعصابه الثائرة وهو يجيب رئيسه:

ـ"يا دكتور أنا مطلقتهاش.. دا أولاً. وثانياً هي اللي طلبت الطلاق من قبل موضوع ابني دا. بمجرد ما اتطمنت على (مودي) صرخت في وشي وقالت لي طلقني واخرج من حياتنا. ودا اللي خلاني أربط بين رغبتها في الطلاق وموت ابني.. أي حد في مكاني هيفهم كدا".

أشاح الدكتور (مصطفى) بذراعيه هاتفاً باستنكار:

ـ"وهي تقول لك طلقني تقوم تطلقها؟ أو حتى تنوي تطلقها؟ هي دي اللي قلت لي مش هتزعلها في يوم؟ هي دي وصيتي ليك يا (مازن)؟ أغيب أسبوعين عن مصر أرجع ألاقيك مبهدل البنت بالشكل دا؟ وبعدين إيه اللي يخليها تشك فيك من الأساس إلا إذا كنت عملت حاجة تخليك موضع شكوك؟ هو دا تعويضك ليها عن الألم اللي عاشته الفترة اللي فاتت؟ تكمل

عليها بألم جديد وانت عارف هي قد إيه رقيقة ومش حمل صدمات جديدة في حياتها؟"

أسقط في يد (مازن) الذي شعر فجأة بحرارة مبعثها شعوره بالإحراج أمام رئيسه لنكوصه في وعده الذي قطعه بكل صدق قبل زواجه من (علا)، فأسرع يدافع عن نفسه قائلاً:

ـ"يا دكتور والله هي اللي استفزتني. وبعدين كل اللي عملته إني سيبت لها البيت من يوم حادثة (مودي). ولما عرفت من عمو (عزيز) إنها تعبانة نفسياً رحت واتكلمت مع دكتورتها وعرفت المفروض اعمل إيه، وبعدين قابلت (علا)الجمعة اللي فاتت وإديتها مهلة تعيد التفكير في حياتنا سوا ليوم فرح (منار) و (رأفت)".

ثم تابع في صدق بان جلياً في عينيه وصوته:

ـ"صدقني يا دكتور أنا لسه بحبها، بس مش واثق هي بتحبني ولا لأ. شكها فيا قتلني، خصوصاً لما الموضوع يتعلق ب (مودي). وهي زي ما تكون ما صدقت... وكأنها كانت بتتلكك عشان الطلاق. وكأن الكلمة كانت على طرف لسانها".

هز الدكتور (مصطفى) رأسه بعدم اقتناع قائلاً:

ـ"مهو مش معقول تكون قالت كدا فجأة يا (مازن)... أكيد فيه حاجات تراكمت جواها وخلتها تقول كدا. بس برضه مفيش واحدة تطلب الطلاق قبل ما تكمل أربعين يوم جواز... وبعدين إزاي بتقول مش واثق في حبها ليك؟ وهي لو مش بتحبك كانت قبلت تتجوزك في يومين؟ فيه حلقة مفقودة في النص وانت مخبيها عني يا (مازن)".

عض (مازن) شفتيه في قهر وهو يفكر في تلك الحلقة المفقودة التي لا يزال يبحث عنها...

عن سر تغيرها الغريب

كيف نسيت حبهما وطاوعها لسانها على النطق بكلمة الطلاق؟
كيف خلت نظراتها له من الحب حينما قابلها الجمعة الماضية؟؟
وكيف استطاعت الوقوف أمامه أمس بتلك القوة؟ من أين أتت بها؟
أين زهرته البريئة التي كانت تخجل من رفع عينيها في وجهه؟
كيف تحولت فجأة إلى قطة شرسة ذات براثن قوية؟
تنهد في عمق وعاد ببصره إلى رئيسه قائلاً في حيرة واضحة:
ـ"أنا بضرب أخماس في أسداس عشان أوصل لسر تغييرها... حضرتك مش هتصدق لقيتها فين امبارح... لقيتها وسط المظاهرة اللي كانت قدام دار الحكمة. ولو مكنتش لحقتها كان زمانها اتعجنت وسط اللي انضربوا، وياعالم كانوا عملوا فيها إيه تاني."
ثم تابع بمرارة غريبة تغلف صوته:
ـ"إمبارح يا دكتور شفت واحدة تانية. واحدة وقفت قدامي تقول لي بتحدي 'انت من إمتى تعرف عني حاجة'... (علا) عمرها ما اتكلمت معايا كدا، وعمرها ما فكرت تنزل مظاهرات... (علا) بتخاف من خيالها يا دكتور".
اتسعت عيناه في دهشة حقيقية وهو يستشعر مدى التغيير الذي ألمّ بابنته الروحية التي يعرف رقتها جيداً،
وبداخله تأكد شعور قوي بأن هناك أمر جلل تسبب في تحولها بهذه الطريقة.
أمر يتعلق بالرجل الجالس أمامه، دون أدنى شك.

***

منتصف النهار

المعادي

تأففت وهي تحاول إقناع (مودي) بتناول طعام الإفطار دون جـدوى حتـى فاض بها فهتفت به في عصبية:

ـ" وبعدين يعني؟ هفضل كتير أترجى جنابك عشان تفطر؟"

قلب (مودي) شفته السفلى وأشاح بطبق يحـوي شـطيرة جـبن سـائل بعيـدًا عنه وهو يقول بعناد طفولي:

ـ"مش بحب دا... عاوز كوكوبوس".

زفرت في غيظ وهي تهتف به:

ـ"أستغفر الله العظيم... قلت لك قبل كدا الكورن فليكس خلص وهاجيـب لك لما ننزل السوبر ماركت. يالا كُل انت الساندوتش دا عشان تبقـى شـاطر وأحبك".

كانت معتادة على عناده الطفولي وعلى الجدال اليومي بشأن الإفطار، لكنها أبداً لم تتوقع أن تسمع الجملة التالية من بين شفتيه،

فقد نظر لها بحقد هاتفاً:

ـ"انتي مش تحبيني، ومـش تجيبـي الـلي أحبـه. أنـا أحـب (مـازن) وأحـب كوكوبوس. عاوز (مازن)".

قالها وتركها في ذهول ألجمها وجمدها في مكانها، بينما هرع هـو إلى غرفتـه يبكي مخفياً وجهه بين الوسائد وصوت بكائه يمزقها أكثر من اتهامه لها.

كيف يقول لها ذلك؟ كيف يتهمها بأنها تحرمه مما يحبه؟ من (مازن) ومـن طعامه المفضل؟

اغرورقت عيناها بالـدموع وهـي تـدير وجههـا ناحيـة غرفتـه، ثـم نهضـت متجهة إليه بخطوات متثاقلة.

نادته بصوت مختنق لكنه لم يرد عليها وسط بكـاءه. اقتربـت منـه ورفعتـه إليها تحتضنه بحنان وتعاتبه هامسة:

ـ" كدا يا (مودي)؟ أنا مش بحبك؟ إزاي وأنا مليش غيرك؟"

غاص في أحضانها كعادته لكنه قال بصوت مكتوم:

ـ"عاوز (مازن)... هو بيلعب معايـا. بـس انتـي مـش خليتيـه يلعـب معايـا امبارح".

شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها وهـي تسـمع كلماتـه المتقطعـة مـن بـين نشيجه، واكتشفت أن هذا الصغير لم يعد صغيراً...

لقد فهم_ رغم سنوات عمره الأربع_ أن هناك نوع مـن التـوتر بينهـا وبـين زوجها؛

نفس التوتر الذي حرمه من اللعب مع (مازن) طيلة عشرة أيام،

والذي جعل (ما زن) يتركهما بالأمس سريعاً دون أن يجلس معه كعادته.

شـعرت بـالخطر وعقلهـا يحـذرها مـن أن تخســر أخيهـا الوحيـد لصـالح (مازن)... غريمها الحالي ومنافسها على قلب الصغير.

لذا أبعدت الصغير عـن أحضـانها لتمسـح دموعـه وتـدقق النظـر في عينيـه الزرقاوين قائلة بلطف:

ـ"حبيبي انت عارف إن (مازن) مش بيسـيبك إلا عشـان عنـده شـغل، ولمـا يخلصه هيرجع تاني. وبعدين نسيت إننا كنا بنلعب سوا أنـا وانـت قبـل مـا نعرف (مازن)؟ نسيت إني كنت باغلبك في البلاي ستيشن؟"

غاص ثانية في أحضانها وهو يعاتبها بدوره قائلاً:

ـ"مش بقيتي تلعبي معايا لما (مازن) سافر... ومش بقيتي تحكيلي حدوتة".

احتوته بحنانها الفطري وداعبت شعره الناعم قائلة من بين دموعها:

ـ" ولا تزعل يا حبيبي... يالا قـوم نفطـر وأنـا ألعـب معـاك طـووول النهـار واحكيلك حواديت كمان.. يالا بقى قوم".

قالتها وهي تقرن قولها بالفعل وتنهض حاملة إياه معلقاً في عنقها حتى وصلت إلى مائدة الطعام فأجلسته برفق على مقعده وفضت ذراعيه عن عنقها قائلة بنبرة مشجعة:

ـ" يالا عاوزة أشوف البطل اللي هياكل الساندوتش كله ويشرب اللبن ويغلبني بعدها في البلاي ستيشن".

توقفت يده بالشطيرة قبل أن تصل إلى فمه وهو يقول بحزن حقيقي:

ـ"كنتي بتقولي اشرب اللبن عشان تنام في حضن (مازن)".

عادت تشعر بالاختناق والضيق يحاصر أنفاسها بسبب إصراره على وضع اسم (مازن) في كل جملة ينطقها، لذا جاهدت لتمنع نفسها من الدخول معه في جدال جديد وهي تنهض بعيداً عنه.

لكنه كان أسرع منها وهو يرفع سبابته قائلاً بابتسامة طفولية مشاغبة:

ـ"عندي شرط... أشوف الفيديو بتاعنا".

كم كانت تتمنى التظاهر بالغباء في تلك اللحظة كيلا يعتاد على مثل هذا الدلال، لكنها كانت تدرك أنه لن يطيعها ثانية إذا ما هي حرمته من رؤية صديقه الوحيد.

لذا منحته ابتسامة أقرب إلى تقلص عضلات الوجه وهي تقول باقتضاب:

ـ" خلّص الساندويتش واللبن الأول وأنا أخليك تشوفه".

ولدهشتها، فقد التهم شطيرته كلها في سرعة وإرتشف كوب الحليب كاملاً في وقت قياسي بالنسبة لطفل مدلل كأخيها، قبل أن يقف أمامها مبتسماً وشارب من الحليب يظلل شفته العليا بشكل مضحك وهو يقول بحماس نافضاً كفيه الصغيرين:

ـ"خلصت كله... يالا وريني الفيديو".

مطت شفتيها باستسلام وهي تفتح حاسوبها الشخصي وتضعه على منضدة الأنتريه التي تربع (مودي) أمامها كطفل يوشك على مشاهدة كارتونه المفضل.
تركته يشاهد التسجيل بعينين متسعتين وكأنه يشاهده للمرة الأولى،
أما هي، فشردت بذكرياتها إلى ذلك اليوم الذي لم يغادر ذاكرتها بعد..

تذكرت (مازن) الذي أتى إلى الحديقة في الجمعة التالية ومعه كاميرا فيديو رقمية حديثة، وبعض الألوان التي جلس يرسم بها وجه (مودي) وأصدقائه في جو مرح جعل الأطفال يلتفون حوله بسعادة وأصوات ضحكاتهم تشق هدوء الصباح.
وهي اكتفت يومها بتصوير هذا اليوم الرائع وهي تراقب سعادة أخيها البالغة، والتي لم ترها من قبل، حتى حينما كانت تبتاع له اللعب التي يريدها.
وفي أعماقها كان يتردد السؤال الذي طالما أرقها،
أتراها ستجد يوماً ما رجلاً يحبها ويحب أخاها ويرضى بتربية هذا اليتيم؟
أم ينتصر شيطانها الذي كان دومًا يحبطها قائلاً إنها لن تتزوج أبداً ومعها هذا الصغير، وإنه من الأفضل أن تعيده إلى أمه كي تعيش هي حياتها كأي فتاة في سنها.
والآن يقتحم(مازن) عالمها هي وأخيها، بل ويصبح وجوده أمراً حتمياً في ظل تعلق الصغير به وباتصالاته اليومية المخصصة له وحده، ليطاردها سؤال جديد. ما سر تعلق(مازن) بأخيها؟ ألأن أخاها طفل جميل أم لأن لدى(مازن) أسبابه الخاصة والتي لابد وأن تكون غير بريئة طبقاً للشائعات التي تحيط به وتمنحه سمعة الدون جوان؟
وفي أعماقها دق ناقوس الخطر من جديد!!

فلو تناثرت الأقاويل عن علاقة(مازن) بها وبأخيها ستُدمر سمعتها تماماً وربما تفقد احترام الجميع.

كلا والله لن تُضيع سمعتها بهذه السهولة أبداً.

من هنا اتخذت قرارها الصارم.. ستقطع علاقة شقيقها بهذا الرجل ولو اضطرت لترك عملها في الجريدة، ولتغيير رقم هاتفها الذي يتواصل عبره مع أخيها، بل ولو اضطرت للانتقال بعيداً.

المهم أن تبقى صورتها المحترمة أمام الناس، والأهم أمام نفسها.

والغريب أنها نجحت في تنفيذ قرارها بكل جبروت لم تظن نفسها قادرة عليه.. طلبت منه في ذلك اليوم أن يبتعد عن أخيها ويخرج من حياتهما بهدوء.

واجهها بأنانيتها بوجه محتقن وعينين حمراوين من الغيظ، لكنها ظلت على موقفها، ليستجيب لها في النهاية وسط دموع أخيها الذي لم يبق له من صديقه الراحل بعيداً سوى تسجيل فيديو للعبهم البريء.

لا زالت تذكر ذلك اليوم جيداً...

تذكر انهيار أخيها بين ذراعيها بعد ابتعاد (مازن)، ورفضه تناول الطعام حزناً على ابتعاد صديقه عنه بحجة سفره المزعوم،

وكم كان بكاؤه مؤلماً لها.

لكنها للحظة تمنت لو لم تضعف وتستجب ل (مازن).

ليتها أصرت على بقائه بعيداً.

ليتها حافظت على حياتها كما كانت.

بل ليتها لم تركب سيارته في ذلك اليوم الذي لن تنسى تاريخه...

٤ نوفمبر ٢٠١٠

وليتها....

"كاذبة"

هكذا هتف بها قلبها في قوة معترضاً على أمنياتها الغريبة التي بـدت غبيـة وغير منطقية.

كيف لها أن تتمنى لو أنها لم تـره، وهـي التـي لم تتفـتح براعمهـا إلا معـه، وعلى يديه؟

كيف تتمنى لو حافظت على حياتها كما كانت، وهي التي لم تعـرف معنـى الحياة إلا معه؟

حاول عقلها الاعتراض معللاً بأن كل المشاكل التي واجهتها منـذ قابلتـه كـان هو السبب خلفها،

لكن قلبها أخرسه متهماً إيـاه بأنـه هـو السـبب بكـل شـطحاته وتفسـيراته المجنونة التي كادت أن تهدم حياتها...

ولماذا كادت؟ إنها لم تعد بالفعل تلك العروس التي تنعم بحياتها مـع حبهـا الوحيد، رغم أنه لم يمر على زواجهما شهرين بعد.

وحتى لقاءها بزوجها أمس كان كارثياً وزاد من سوء الموقف بينهما.

ومن أعماقها أطلقت زفرة حارة حاملة ابتهالها إلى الله بأن يهـديهما طريـق الصواب.

***

الخامسة مساء

شمال سيناء

جلس على طرف فراشه يربط حذائه ذي الرقبـة الطويلـة في تـأفف، حيـنما ارتفع رنين هاتفه بنغمة مميـزة جعلـت وجهـه يتهلـل بشـراً وهـو يلتفـت ليلتقط الهاتف ويجيبه بابتسامة واسعة:

ـ" يا مساء الأنوار على نور حياتي".

ابتسمت المتحدثة على الطرف الآخر وهي تقول بحياء:
ـ"لازم تكسفني من أولها يعني؟"
تراجع في جلسته ليسند رأسه على الحائط خلف فراشه وهو يجيبها بحب:
ـ"يعني حرام أعبر عن حبي وشوقي لزوجة المستقبل؟ دا أنا حتى لسه مقلتش وحشتيني يا حبيبتي".
ازداد احمرار وجهها فوضعت كفها البارد على إحدى وجنتيها وهي تقول بحرج:
ـ"خلاص كأنك قُلت".
قهقه ضاحكاً للحظات وهو يتخيلها محتقنة الوجه من الخجل، وقال مشاكساً:
ـ"متخيل وشك دلوقتي مولع وايديكي باردة.. مش بعيد تكوني حاطة ايدك على وشك كمان عشان تبرديه شوية".
شهقت في خفوت وهي تقول لا إرادياً:
ـ"عرفت إزاي"؟
عاد يضحك بقوة وهو يقول من بين ضحكاته:
ـ"وحشتني براءتك يا لومة والله. انتي اللي بتخليني اضحك من قلبي وسط الغم اللي أنا فيه".
سألته في لهفة:
ـ" غم إيه بعد الشر عنك؟ ربنا يبعد عنك الهم والغم".
ابتسم بحنان وهو يسمع دعوتها الصادقة وأمّن عليها قائلاً:
ـ" آمين يارب وإياكِ. بس قوليلي... إيه المكالمة الحلوة دي؟ مش عوايدك يعني تتصلي".
شهقت في استنكار هذه المرة وهي تهتف به وقد زال خجلها:
ـ" يعني اتصلنا مش عاجب ما اتصلناش مش عاجب. خلاص أنا غلطانة".

أسرع يقول مشاكساً:

ـ" أيوه كدا... دلوقتي بقيتي (لميس) بنت خالتي اللي اعرفها. وش الخجل الأولاني بتاع العرايس دا خلاني اصدق انك اتغيرتي بعد كتب الكتاب وتخلصتي من تأثير أختي المتشردة".

رفعت حاجبها الأيسر قائلة بتحدي:

ـ" قصدك إني أنا وهي متشردين... ماشي يا (سيف) حسابك لما تنزل".

ضحك من قلبه على تحديها الذي يعشقه منذ كانا صغاراً وكان سبباً في إصراره على الارتباط بها رغم أن أسرتهما لا تحبذ زواج الأقارب.

وبعد أن تمالك نفسه وتوقف عن الضحك تنحنح بجدية قائلاً:

ـ" خلاص مش هغلط في أميرات الأسرة المالكة. انتي عارفاني مقدرش على زعلك. وبجد اتصالك دا جه في وقته. كأنك حاسة بيا".

عاد صوتها إلى نبراته الحنونة وهي تسأله بلهفة:

ـ" خير يا (سيف).. فيك إيه؟"

تنهد في ضيق قائلاً:

ـ"عادي القرف الطبيعي في الشغل. متشغليش بالك".

سألته في تردد:

ـ"هي الأوضاع عندكم عاملة إزاي دلوقتي؟ أصلاً أنا بتكلم اتطمن عليك واسألك هتنزل أجازة إمتى".

هز كتفيه وهو يعتدل جالساً على الفراش ويجيبها قائلاً:

ـ"والله ما اعرف. كان مفروض أنزل الخميس أجازة عشر أيام، بس الأوضاع دي لخبطت كل حاجة. أنا كنت نايم دلوقتي وجات إشارة صحوني عشان ألبس وانزل القطاع تحت. حتى انتي طلبتيني وأنا بربط البيادة. مش عارف هنطلع برا القطاع ولا إيه. ربنا يستر".

سألته في حيرة:

ـ" هو انت مش في غرفة الإشارة تحت؟ يعني ملكش دعوة بالتشكيلات".
ابتسم على استخدامها بعضاً من مصطلحاتهم وهو يجيبها بهدوء:
ـ"عادي يا حبيبتي... في حالات الطوارئ كلنا بنجتمع مع القادة. وشكلي هضطر اخلص المكالمة عشان ما اتأخرش على سيادة اللوا".
أسرعت تناديه بلهفة:
ـ" (سيف)".
أجابها بدفء:
ـ" عيون (سيف) وقلبه".
فاجأها رده لجزء من الثانية قبل أن تتمالك نفسها قائلة:
ـ"بالله عليك ما تنساش إنهم أخواتك".
عقد حاجبيه مستفهماً:
ـ"هما مين دول"؟
ازدردت لعابها وهي تجيبه بخفوت:
ـ" اللي في المظاهرات يا (سيف). دول مصريين زيك بالزبط وعايزين حقهم. مخرجوش غير لما فاض بيهم. خليك فاكر إنهم أخواتك".
هتف بها في عصبية مفاجئة:
ـ"يعني إحنا اللي ولاد كلب دلوقتي؟"
أدهشتها ثورته فقالت في سرعة لتهدئته:
ـ" أنا مقلتش كدا يا (سيف). أنا بس حبيت أفكرك إنهم مش أعداءك، وإن مفيش بينك وبينهم عداء شخصي".
ثم أردفت في سرعة قبل أن تفقد ما تبقى من شجاعتها:
ـ"خليك فاكر إن اسمك (سيف الإسلام)... مش (سيف) أي حد تاني".
ضغط فكيه في غيظ وهو يسألها من بين أسنانه:
ـ" حاجة تانية ولا لسه هتكملي المحاضرة؟"

أيقنت من جملته مدى ضيقه، فقالت في خفوت:

ـ"سلامتك. استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه".

عاد يضغط فكيه وقد آلمه أن تنتهي مكالمتهما على هذا النحو، فقال بصوت حاول أن يعيده إلى طبيعته:

ـ"خلي بالك من نفسك. وياريت ما تخرجيش أو تتأخري برا بدون داعي".

أومأت برأسها وكأنه يراها قبل أن تقول بصوت مختنق:

ـ"لا إله إلا الله".

تنهد وهو يجيبها:

ـ" سيدنا (محمد) رسول الله".

وعاد يتم ارتداء ملابسه.

** ** **

(٣)

الخميس ٢٧ يناير

الثانية عشرة ظهرا

وسط البلد

طرق باب مكتب صديقه في رصانة تميزه، قبل أن يفتحه ويطل من خلفه قائلاً بهدوء:

ـ"فاضي ولا مليان؟"

رفع (مازن) رأسه عن حاسبه الشخصي في سرعة ورسم ابتسامة مرتبكة على وجهه وسبابته تجري على ماوس الحاسب بحرفية وهو يجيبه بمرح مصطنع:

ـ" اللي تشوفه سيادتك يا فندم. عايزني فاضي أفضالك عايزني مليان أتملي".

ارتفع حاجبا (حمزة) في دهشة وهو يدلف إلى داخل المكتب ضاحكاً وهو يقول:

ـ" يا سلام.. هو دا الموظف المثالي... يعمل اللي رئيسه عايزه".

ثم مالبث أن سأله باهتمام وهو يشير ناحية الحاسب:

ـ"انت بتعمل إيه عاللابتوب بتاعك؟ كل ما أعدي من قدام مكتبك وأبص من الشباك ألاقيك دافس وشك فيه ومنهمك بتكتب حاجة. تكونش بتشيت عالمسنجر؟"

قالها وهو يقترب بوجهه من شاشة الحاسب التي خفضها (مازن) أرضاً وهو يقول بابتسامة صفراء:

ـ" لا يا فندم.. إحنا مش بتوع تشات.. أنا كنت بشوف الدنيا ماشية إزاي على فيس بوك".

رفع (حمزة) أحد حاجبيه قائلاً بمكر مصطنع:

ـ"فيس بوك؟ ولما هو فيس بوك بتقفل اللاب ليه؟ شكلك قاعد تلعب سيتي فيل وخايف رئيس التحرير أو نائب رئيس التحرير يقفشك... مش كدا؟"
ضحك (مازن) من قلبه هذه المرة وهو يشيح بكفه قائلاً:
ـ" والله لو على رئيس التحرير الراجـل ذوق ومـش هيعـترض. بـس كـلام في سرك أنا خايف من النائب بتاعه بعدين يطب عليا ويطين عيشتي".
ارتفعت ضحكة (حمزة) الصافية بدورها وهو يقول محذراً بسبابته:
ـ"آه صحيح.. نائب رئيس التحرير لو شافك ممكن يحولك مجلس تأديب".
ثم عادت لهجته إلى الجدية وهو يسأل (مازن) باهتمام:
ـ"صحيح انت مشغول في إيه قوي كدا؟ انت بتلعب عالفيس بجد؟"
رمقه (مازن) بنظرة طويلة قبل أن يفتح شاشة الحاسب ويديرها أمام وجه (حمزة) ليراقب رد فعله.
أما (حمزة) فعقد حاجبيه وهو يقرأ في سرعة محتويات الصفحة التي تـدعو الشباب وتشجعهم على المشاركة في مظـاهرات الجمعـة ٢٨ ينـاير، ثـم رفـع عينيه إلى (مازن) متسائلاً:
ـ"الصفحة حلوة..بس انـت فـين فيهـا؟ مفـيش ليـك ولا تعليـق ولا إعجـاب ولا...".
ثم قطع عبارته بغتة ولمعت عيناه ببريق غريب وهو يقول بابتسامة جذلى:
ـ" إوعى تقول إن...".
بادله (مازن) الابتسام وأدار الحاسب إليه ثانية وهو يضع سبابته على فمـه محذراً ويهز رأسه مؤكداً استنتاج صديقه.
حينها اتسعت ابتسامة (حمزة) وهو يربت على عضد (مازن) بقوة قائلاً:
ـ"برافو يا (مازن)... أنا بجد فخور بيك، و...".
بتر عبارته ثانية ليغير الموضوع وهو يشيح بذراعه قائلاً بمرح مفاجئ:

ـ" صحيح هو (رأفت) كلمك؟ الكلام اللي بيقوله دا حقيقي يعني ولا بيشتغلنا؟"

سأله (مازن) بهدوء:

ـ"تقصد كتب كتابه؟"

هز (حمزة) رأسه إيجاباً وهو يقول في حيرة:

ـ" أيوة..اتصل بيا يقول لي اعمل حسابك انت و (مازن) نصلي العصر سوا ونطلع على بيت (منار) عشان أكتب كتابي عليها. قال إيه عاوزها تنزل معاه المظاهرة بكرا وهي مراته".

مط (مازن) شفتيه قائلاً بعدم اقتناع:

ـ" والله أنا برضه مستغرب. يعني لسه بدري على فرحهم.. أكتر من أسبوعين. يبقى ليه الاستعجال؟"

ثم أضاف بسخرية مقلداً (محمد هنيدي) في أحد أفلامه:

ـ" هيموت ويدخل السجن برجليه؟ مستعجل كدا ليه على قضا ربنا؟ مهو رايح رايح".

لم يتمالك (حمزة) نفسه وهو يلمح الامتعاض المرتسم على وجه (مازن) وهو يقول عبارته الأخيرة كشخص نادم على الزواج، فشاكسه قائلاً:

ـ"إيه الدرر دي يا (مازن)؟ اللي يشوفك دلوقتي ما يشوفكش من شهرين. دا انت أكتر واحد مستعجل شفته في حياتي. نسيت اتجوزت (علا) إزاي؟"

غامت عينا (مازن) للحظات وهو يتأمل وجه صديقه الضاحك، والذي احتقن بالدماء من قوة ضحكاته.

في الوقت العادي ربما كان شاركه الضحك،

لكن بعد ما حدث.... يشعر بأنه ربما تعجل فعلاً الزواج،

أو بالأحرى تعجل في اتخاذ قرارات مصيرية داخل هذا الزواج.

ورغماً عنه...تدافعت الذكريات أمام عينيه لتنقله إلى قبل هذا اليوم بشهر أو يزيد....
بالتحديد بداية ديسمبر ٢٠١٠

يومها كان يمر متلكئاً أمام مكتب المحررات كعادته منذ منعته (علا) عن رؤية أخيها أو الاتصال به، وبالتالي بها، حينما التقطت أذناه حديثاً مستنكراً بين الفتيات حول استقالتها المفاجئة.
كان يحاول استيعاب تلصصه المراهق وتتبعه لأخبارها حينما صدمه رد فعله على هذا النبأ.
لم يدر من أين أتاه كل هذا الحنق حينما أدرك أنه لن يلمح طيفها من خلف الزجاج ثانية كلما تظاهر بالمرور من أمام المكتب، ولن يسمع ذبذبات صوتها الناعم الذي كان اعتاد تسلله إلى مسامعه خلال مكالماته مع أخيها قبل أن تمنعه عنه.
كل ما كان يدركه في هذه اللحظة هو أنه لا يتخيل يومه بدونها، بعدما عاودته مشاعر المراهقة من جديد.
لم يكن حباً وقتها، وهو يدرك ذلك جيداً... لكنها وأخيها كانا اقرب إلى تركيبة عقار غريب يتسرب إلى خلاياه رغماً عنه ليوقظ به مشاعر لم يعهدها في نفسه، أو ربما لم يتخيل وجودها لديه من الأساس.
لذا، حينما سارع يومها إلى مكتب (حمزة) يستطلع منه حقيقة الأمر،كان من الطبيعي أن ينتهي اللقاء بينهما بأكثر القرارات جنوناً في حياته.
أن يمنعها من الاختباء عنه وأن تكون له سلطة اتخاذ القرار و....
أن يتزوجها!!!
لم يتوقع أن يستدرجه (حمزة) إلى الاعتراف بأنه معجب بها وأنها ستكون نِعم الزوجة على جميع الأصعدة.

فهي فاتنة شكلًا وملتزمة وخير من تحمل اسمه، ناهيك عن أنها تكفـل أول طفل يمس شغاف قلبه، حتى ابن أخيه لم يحرك مشاعره بهذا القدر.
وبكل حماس اتجه إلى وكيـل عروسـه.. دكتـور (مصـطفى) رئـيس التحريـر، ليطلب منه خطبتها.
لم يكن الأمر سهلاً، فالرجل يُعدها ابنته التي لم ينجبهـا، بـل وكـان يتمناهـا زوجة لابنه الوحيد، لولا أن ذلك الأخير تزوج قبل عشر سنوات.
خضع لأسئلة واستفسارات من رئيسه، كان أولها مـاذا فعـل بالفتـاة لتلقـي بمستقبلها الواعد خلف ظهرها فقط لتهرب منه.
وأجاب بكل صدق أنه لم يفكر يوماً في تجاوز حده معها، رغم ما يُشاع عنه وعن كونه ساحراً للنساء.. فالأمر لا يعدو كونه "الصيت ولا الغنى".
حاوره دكتور (مصطفى) وناوره كثيراً، عسـى أن يتزحزح عن رغبتـه القويـة في الارتباط بها،
لكنه كان صلداً في موقفه، وكأن حياته تتوقف على الارتباط بها.
ولإثبات حسن نيته ومدى رغبته الصادقة في الاقتران بها، قطـع عـلى نفسـه عهداً أمام الله ثم أسـتاذه بـأن يحفظهـا وأخيهـا وألا يكـون سـبباً في حزنهـا يوماً.
تُرى... إلى أي مدى أخلف عهده مع أستاذه؟ وإلى...

"إيه يا مايسترو رحت فين؟"
رفع رأسه وهو ينظر إلى (حمزة) واجماً قبل أن ترتسم ابتسامة شاحبة عـلى وجهه وهو يجيبه بصوت لا يقل شحوباً:
ـ"لا عادي.. متحطش في بالك. أنا بسـرح كتير اليومين دول. شـوف هتيجـي معايا في عربيتي ولا نروح بعربيتك مع عريس الغفلة دا. اللي تتفقـوا عليـه أنا معاكوا".

لم يخف على (حمزة) الفتور الذي اعترى ملامح (مازن) وصوته بعد أن كان النشاط يقفز من عينيه، وأدرك بحكم خبرته كزوج كثيراً ما يلعن اتخاذه قرار الزواج أن ما يدور بخلد (مازن) في هذه اللحظات مشاعر وأفكار لا تختلف كثيراً عما يساوره حينما يكون على خلاف مع زوجته.

لذا اكتفى بهز رأسه قائلاً بهدوء:

ـ"خلاص هكلمك قبل ما ننزل... مهو المجنون دا طبعاً مقالش لحد من أهله في إسكندرية ولما يعرفوا هيطينو عيشته... ربنا يستر".

ثم لوح بذراعه وهو يغادر المكتب قائلاً:

ـ"سلام يا مايسترو".

لكن المايسترو لم يسمعه

فقد كان غارقاً في ذكرياته.

***

الواحدة ظهراً

المعادي

ارتفع رنين هاتفها الجوال برنة تميز صديقتها فابتسمت وهي تلتقطه بيسراها بينما رفعت يمناها بجهاز التحكم عن بعد لتخفض صوت نشرة الأخبار على التلفاز قبل أن تجيب صديقتها بوّد:

ـ"السلام عليكم.. أهلا يا نونا.. فينك يا بنتي لا بتتصلي ولا بتسألي".

أتاها صوت (منار) على الطرف الآخر تجيبها بفرحة واضحة في صوتها:

ـ"سوري يا لولو.. بس لما تعرفي اللي عندي هتفرحي أوي".

سألتها في لهفة:

ـ"صوتك باين.. فرحيني بسرعة".

التقطت (منار) نفساً عميقاً قبل أن تقول ببطء كمن يفجر مفاجأة:

ـ"النهاردة بعد العصر إن شاء الله كتب كتابي على (رأفت)... يالا اعملي حسابك عشان تبقي جنبي في اللحظة التاريخية دي".

هتفت (علا) بسعادة حقيقية:

ـ" بجد؟ النهاردة؟ مش مفروض الفرح لسه عليه تلات أسابيع؟"

هزت (منار) كتفيها قائلة:

ـ"مش عارفة بقى... (رأفت) فاتحني في الموضوع دا امبارح بالليل وقلتله هستخير وهو كمان يستخير. ولقيته الصبح بيكلمني ويقول لي اجهزي عالعصر. واتصل اتفق مع بابا وخلاص الحكاية بقت رسمي. عشان كدا بتصل بيكي عشان تجهزي نفسك و(مودي)، وياريت تيجوا دلوقتي حالاً عشان نتغدى سوا. (لميس) هتبقى موجودة كمان ونرَجَع الصحبة القديمة و.."

قاطعتها بحرج:

ـ"نونا من غير زعل.. طبعاً ألف مليون مبروك وربنا يسعد أيامكم ويرزقكم بالخلف الصالح. وانتي عارفة إني نفسي نرَجَع الصحبة القديمة ونقعد براحتنا زي زمان.. بس للأسف مش هقدر أخرج من البيت. (مازن) مانعني أخرج برا باب الشقة لأي سبب".

عقدت (منار) حاجبيها وهي تهتف بحنق:

ـ"نعم؟ هو إيه حكم قراقوش دا؟ يعني يزعق على المظاهرة ماشي لكن يمنعك من النزول ليه؟ أنا ساكنة معاكي في نفس الحي وبيتي بعدك بشارع.. يعني مش هتروحي بعيد".

ثم مالبثت أن قالت في سرعة:

ـ"خلاص عندي فكرة. هقول لـ (رأفت) يكلمه عشان يخليكي تيجي.. مظنش إنه هيكسف العريس. قلتي إيه؟"

صمتت للحظات تفكر في اقتراح صديقتها ثم هزت رأسها في ضيق قائلة:

ـ"بلاش يا (منار).. مش عاوزة أحرج (رأفت) أو غيره. ومـش عـاوزاه يحـس إني هتذلل ليه عشان أنول الرضا السامي. البركة في الـدكتورة (لمـيس) تبقـى جنبك النهاردة، وأنا معاكي في الفرح إن شاء الله".

شعرت بالضيق ينتقل إليها من صوت صديقتها، فسألتها على استحياء:

ـ"هو مكلمكيش من يوم التلات؟"

هزت (علا) رأسها نفياً بمرارة وهي تجيب بصوت مختنق:

ـ" ولا جه ولا اتصل حتى على سـبيل الغلاسـة زي مـا كـان بيعمـل زمـان... المشكلة مش فيا".

قالتها وتنهدت بعمق وهي تراقب أخيها الصـغير يلعـب بسـيارته الصـغيرة، ثم تابعت بضيق:

ـ"المشكلة في (مودي) اللي صدعني امبارح والنهاردة الصـبح عـاوز (مـازن). كان خلاص رجع يتعود على الحياة أنا وهـو لوحـدنا ومعـادش بيسـأل عـن (مازن) لإنه فاكره مسافر. لما شافه يوم التلات كان شوية ويمسك السما مـن فرحته. والله قلبي وجعني لما شفته بيصرخ بإسمه ويجري يترمي في حضـنه زي ما أي طفل بيعمل مع أبوه اللي غايـب عنـه مـن فـترة. والـلي وجعنـي أكتر وهو حاضن وش (مازن) بإيديه وقاعد في حضنه زي مـا يكـون خـايف يهرب منه أو يكون بيحلم.. لما (مازن) اتحرك ناحية البـاب صرخ وقـال لـه ماتسيبنيش تاني وجري حضن رجليـه عشـان يمنعـه ينـزل. يمكـن لأول مـرة أشوف (مازن) ضعيف كدا وهو بيوطي يحضنه ويقول له هاجيلك تاني وما تعيطش. بس حتى (مازن) كانت الدموع في عينيه وهو بيقفل بـاب الشـقة وراه. وأنا حاولت أتماسك بـس دمـوع (مـودي) خلتنـي ابـكي غصـب عنـي. حسـيت إني يمكـن أنانيـة عشـان خليـت (مـودي) يتعلـق بــ(مازن).. بـس محدش فينا رتب للي حصل دا ولا كان يتخيله أصلاً".

شعرت بالتعاطف الشديد مع مشاعر صديقتها المقربة، حتى أن صوتها هي الأخرى خرج محشرجاً وهي تسألها بحرج:

ـ"مفيش مجال تتصالحوا يعني؟ اللي يشوف (مازن) في الجورنال يعرف إنـه اتغير من نظرة عينيه. يمكن بيضحك ساعات ويهزر زي عوايده بس (رأفت) بيقول لي عينيه فيها حزن وهم كبير من ساعة خلافكم الأخير. وانتـي كـمان حالك مش عاجبني.. بتحاولي تغيري جلدك بس مش عارفة. عـايزة تتمـردي على العالم بس جواكي لسه (علا) البنوتة الكيوت اللي وشها بيتقلب أحمر في أي موقف. انتـو الاتنـين بتحبـوا بعـض ودا واضـح للأعمـى، بـس فيـه سـوء تفاهم حصل وأعتقد ممكن في جلسة واحدة يتحل و.."

قاطعتها (علا) قائلة من بين دموعها التي تسللت رغماً عنها لتُغرق وجهها:

ـ"الفكرة مش سوء تفاهم.. المشكلة بيننـا أزمـة ثقـة. كـذا موقـف اتحطينـا فيهم وموثقناش في بعض، فالموضوع اتـأزم أكـتر ومعـادش ممكـن نتجـاوزه بسهولة".

أصرت (منار) على رأيها بقولها:

ـ"برضه الحب اللي بينكم ممكن يلغي خلافات كتير. انتو اتجوزتـوا بســرعة وملحقتوش تتعرفوا كويس على بعض. بس صدقيني لما تقعدوا سـوا في جـو هادي وتتناقشوا على رواقة الأمور هتتصلح بإذن الله".

تنهدت (علا) في قوة ومسحت دموعها بأصابعها قبل أن تقول بخفوت:

ـ"آخر مرة شـفته قبـل يـوم الـتلات اداني مهلـة أفكـر في حياتنـا سـوا ليـوم فرحك. قال لي هيستنى مني اتصال عشان ييجي يوصـلني الفـرح إذا كنـت عايزة حياتنا تستمر.. وإذا متصلتش ورحت الفرح لوحدي يبقى معناها إني مش عاوزة أكمل معاه".

أشرق وجه (منار) لسماع تلك الجملة وهي تقول بحماس:

ـ"حلو قوي... اتلككي النهاردة وكلميه ييجي يوصلك عندي. وأهي تبقى بروفة ليوم فرحي ويمكن المية ترجع لمجاريها و.."

قاطعتها (علا) وهو تقول بحزم:

ـ" مش هينفع. أنا لسه هابدأ استخير النهاردة بالليل. وبعدين أنا ما صدقت (مودي) نسي يسأل عنه. مش عاوزاه يرجع يتعلق بـ (مازن) وممكن أصلاً كل واحد فينا يروح لحاله... شوفي انتي بتتصلي تعزميني على كتب كتابك قلبناها فيلم عربي قديم. يالا روحي جهزي نفسك وألف ألف مبروك مرة تانية. وأنا هبقى أكلمك بالليل أبارك لك وانتي مدام (رأفت)".

ورغم انتهاء الاتصال، ظلت كلمات صديقتها تتردد في ذهنها بقوة..

"انتو اتجوزتوا بسرعة وملحقتوش تتعرفوا كويس على بعض"

ومن أعما قها انطلقت زفرة حارة حملت بعضاً مما تحمله بداخلها من آلام، وعادت بذاكرتها إلى ذلك اليوم القريب البعيد،

حينما ارتفع فجأة رنين هاتفها الجوال وهي ترتب حقيبة سفرها المؤقت هرباً من طيف الكازانوفا، فأجفلت للحظات قبل أن تترك ترتيب الحقيبة لترى المتصل، فقد كانت هذه النغمة خاصة برقم أبيها الروحي رئيس التحرير، وبالفعل رأت اسمه على شاشة الجوال. انتابها القلق فأجابته سريعاً ليأتيها صوت معذبها من الطرف الثاني وهو يصدمها بنبأ خطبته لها وموافقة دكتور (مصطفى) على الخطبة.

شعرت وكأنها تسبح فوق غيمة وردية سقطت عنها مع صوته اللحوح وهو يخبرها بضرورة لقائهما في منزل دكتور (مصطفى) في نفس اليوم ليطلبها رسمياً.

لا تدرِ كيف تغلبت على توترها وخفقات قلبها المضطربة بعد هذه المكالمة التي بدت وكأنها ضمن حلم جميل سرعان ما ستفيق منه.

(مازن) طلب الزواج منها؟ كيف ولماذا؟
لا يمكن أن يكون بدافع من الحب، فهـي دائمـاً تتفـوه بطلقـات متفجـرة في وجهه بدلاً من أسلوبها الهادئ الرقيق، فلماذا يختارها إذاً؟
أيكون هدفه البقاء إلى جانب أخيها؟ ولم لا، فهـو لم ينكـر ارتباطـه بالصـغير وتعلقه به. ولكن هل يكفيها ذلك السبب للاقتران به؟
أيُعقل أنه وجد بها ما يثير اهتمامه بعيداً عما يثير اهتمامه ببـاقي الفتيـات اللائي يعرفهن؟
بلغ معها التوتر مبلغه وهي تتخيل لقائهما المرتقب، وكيف سيمكنها الدفاع عـن بقيـة حصـونها أمـام أسـلحته التـي يجيـد اسـتخدامها، بدايـة بنظراتـه المغناطيسية وابتسامته اللعوب، ونهاية بنبرة صوته العميقـة التـي يطوعهـا لصالحه طوال الوقت.
هل ستجد صوتها لتقول بكل حزم إنه ليس الرجـل الـذي تتمنـاه زوجـاً؟ أم سيخذلها أمام حديث (مازن) المعسول لتخر معترفة بالهزيمة... الهزيمة التي تتمناها في زوايا قلبها الخفية؟

واليوم تتساءل... هـل كـان قرارهـا بقبـول الهزيمـة ذلـك اليـوم هـو القـرار الصحيح؟

***

منتصف اليوم
وسط البلد
تراجع في مقعده الجلدي ورفع رأسه يحـدق في سـقف غرفـة مكتبـه شـارداً وهو يعود بذكرياته التي أوقفها (حمزة) قبل قليل.
ففي ذلك اليوم كاد أن يطير فرحاً بموافقتهـا المبدئيـة عـلى لقائـه في منـزل الدكتور (مصطفى)، وإن كان بعض من حذره القديم يلومه على تسرعه.

لكنه لم يأبه لهـذا الشـعور وهـو يـرى عينيهـا تـتجلى أمامـه عـلى الطريـق، ويشعر بطيفها على المقعـد المجـاور لـه، لم يفارقـه منـذ احتلـه قبـل شـهر، ليتأكد أن هذا الثنائي الأشقر غيّر حياته إلى الأبد منذ التقاه، بهالة الغمـوض التي تحيط بها وسيل البراءة الذي يتدفق من عيني أخيها.

نعم كان يدفعه الفضول ليقترب منها أكثر، ولكنه كـان الفضـول الـذي قتـل القطة... هذا ما أدركه جيداً فيما بعد.

أما في ذلك اليوم، فقد حاول إلهاء نفسه عـن دقـات قلبـه المتواثبـة وتـوتره الغريب في اختيار ملابسه، وكأنه طالب مراهـق في طريقـه لأول موعـد مـع فتاته.

والحقيقة أنه بداخله كان يصارع تحذيرات قوية تحثـه عـلى الـتروي وعـدم التسـرع كما سبق وفعل في زيجته الأولى من تلك الصاروخ الأمريكية.

لكنه كان يدافع عن اختياره هذه المرة بأن (علا) تختلف تماماً عـن زوجتـه السابقة، وكل المعطيات حولها تؤكد أنها الخيار الصحيح ونعـم الزوجـة لأي رجل. ولابد أن يكون هو هذا الرجل.

يومها سابقت قدماه عقارب الساعة حتى يلقاها، وانفرجـت أسـاريره وهـو يحتوي صغيره الحبيب بين ذراعيه من جديد وكأنـه يعيـد ابنـه إلى أحضـانه بعد طول فراق.

ثم تعلقت عيناه بهـا وهـي تحـاول عبثاً الفـرار مـن خجلهـا الـذي خضّـب وجنتيها وزاد من لمعة عينيها فأصبحتا شَرَكاً لم يستطع الفكاك منه.

شاكسها ليخترق تلك الهالة المحيطة بها، وطمأنها لإصراره على الارتبـاط بهـا رغم كل ظروفها، واستجاب لرغبتها في معرفة ماضيه، ليخبرهـا بأصـعب مـا مر بحياته إلى أن قابلها.

لكن ذلك لم يكفها... فالحكايات لا تكفي لمعرفة البشر.

هكذا قالت، وأوشكت بكلمة مجنونة أن تحرق الجسور بينهما بلا رجعة،

لولا تدخل أبيها الروحي في الوقت المناسب...ليعبر بكلمته النهائية تلك الجسور وتنتهي الليلة بها زوجته.

***

نهضت من جلستها وهي ترمق أخيها بنظرة سريعة تطمئن عليه، قبل أن تتهادى بخطوات كسولة إلى المكتبة الخشبية الأنيقة التي تحتوي جهاز التلفاز لتلتقط من فوقه بروازاً أنيقاً يحتوي صورة زفافها مع (مازن).

تلمست بأناملها ملامح وجهه الباسم في الصورة وازدردت لعابها بصعوبة وهي تستعيد ذكريات ذلك اليوم الذي ارتبطت فيه بميثاق غليظ مع هذا الرجل.

تذكرته وهو يروي لها سريعاً أهم محطات حياته قبلها...

أسرته وشقيقه ودراسته الجامعية،

وأصعب يوم في حياته، حينما تعرض لحادث بشع أفقده أعز أصدقائه، وجعله لا يستطيع التحكم في كفه الأيمن.

حدثها عن زوجته السابقة، التي تزوجها بعدما ساعدته في استعادة لياقته الجسدية في أعقاب الحادث، لتشتعل بداخلها نيران غيرة خفية جعلتها تلقي بكلمات هي أقرب لحمم غبية كادت تنهي الزيجة قبل أن تبدأ.

تُرى لو أن أبيها الروحي تأخر للحظات قالت فيها آخر ما بجعبتها من عبارات غبية، هل كانت لتسعد في حياتها الآن؟

هل كانت ستبرأ سريعاً من حبه آنذاك، بدلاً من أن تزداد تعلقاً به ويصبح التخلص من ذكراه أشبه بإزالة وشم حبه عن قلبها؟

لكنه لم يتأخر.. وتعهد (مازن) أمامه بأن يضعها وأخيها وديعة بين ضلوعه، وألا يكون سبباً في حزنها يوماً ما.

أفلتت دمعة متمردة رغماً عنها وهي تتذكر ذلك الوعد الذي لم يلتزم به.

ربما أشعرها بحبه قليلاً، لكنه لم يحافظ على قلبها الرقيق.

لم يحطه بالرعاية الكافية التي كانت تتمناها من زوجها وفارس أحلامها وحب حياتها الوحيد.

حب حياتها الذي وقّعت إسمها إلى جانب اسمه في قسيمة الزواج وهي تشعر بأنها في حلم جميل لا تريد الاستيقاظ منه.

في ذلك اليوم وافق أن يقيما معاً في شقة والدها لبعض الوقت حتى يُتما تجهيز مسكنه الخاص،

فهو سأم الحياة في شقة والده في حي الزمالك ويريد أن يتمتع ببيته الخاص في إحدى المدن الجديدة الهادئة على مشارف القاهرة، والذي بدأ بالفعل في إعداده منذ فترة وتوقف انتظاراً لذوق عروسه التي لم يكن قابلها بعد.

بالنسبة لها لم يشكل مكان إقامتهما فارقاً كبيراً،

فالمهم أن من اختارته في أحلامها ويقظتها زوجاً، أصبح زوجها بالفعل.. لها وحدها.

لذا كانت مستعدة أن تتبعه إلى آخر العالم، حتى وإن لم تكن واثقة في صدق نواياه أو حقيقتها.

كان يكفيها شعورها الخاص بالسعادة إلى جانبه،

وابتسامة السعادة البريئة التي تضيء وجه أخيها للمرة الأولى منذ زمن طويل،

وثقة الدكتور (مصطفى) فيه وفي أخلاقه وأنه ليس "كازانوفا" كما يُشاع عنه.

في ذلك اليوم تلقت تهاني الدكتور (مصطفى) وزوجته الحنون وهي تشعر بأنها لا تقف على الأرض.

تشعر بأن ارتباطها به جعلها كمن يخطو فوق السحاب.

كانت ترد التهاني بابتسامة خجلى دون أن تفقه ما تقول،

وصحبته إلى السيارة كالمنومة دون أي اعتراض.

ولم الاعتراض؟

إنه زوجها

ح ب ي ب هـ ا

غابت عن العالم في غيمة وردية جديدة وهي إلى جواره في السيارة، لا تفقه ثرثرة أخيها ولا ردود (مازن) المبتسمة،

لكنها لم تغفل عن ذلك البريق الذي لمع بعينيه وزاد جاذبيتهما حينما أوقف السيارة إلى جانب الطريق ليتأملها صامتاً.

لم تكن نظرات إعجاب كالتي كانت تراها بين الحين والآخر في أعين الرجال، وإنما كانت نظرة تحمل مزيجاً بين الإعجاب والحنان والسعادة لترسم ابتسامة غريبة في عينيه.

يومها أنبأها قلبها الغر أنها نظرة حب،

لكنها لا تدري حتى الآن كنهها، وتلعن غبائها لأنها استسلمت طواعية لشَرَكه منذ ذلك اليوم.

ومن أعماقها الملتهبة بنيران الذكرى انطلقت زفرة قوية وهي تتأمل صورتهما معاً لتهمس بحرقة:

ـ" آاااااه يا (مازن).. لو أعرف جواك إيه بس؟"

وبتوافق غير مدبر كان هو الآخر يتأمل صورتها على هاتفه الجوال في نفس اللحظة قبل أن يضم الهاتف إلى صدره ويعود ليتأمل سقف الغرفة هامساً بلوعة:

ـ" آاااااه يا (علا).. لو تعرفي بحبك قد إيه مكانش دا بقى حالنا".

***

الخامسة مساء

المعادي

أخلت سبيل القلم الذي كان مُعتقلاً بين أصابعها المتوترة بعد أن استخدمته في توقيع اسمها إلى جانب اسمه، وأطلقت أنفاسها الحبيسة في ارتياح لتعتدل في جلستها على مقعد الصالون وتتجنب رفع بصرها في أي من الجالسين معها في الغرفة كيلا يلحظوا خجلها الواضح.

أما هو، فاتسعت ابتسامته السعيدة لتشمل كيانه كله وهو يعلق بصره بها... بزوجته،

وما أجملها من كلمة.

لم يتمن في حياته كلها شيئاً وأصر عليه قدر حلمه وإصراره على الارتباط بها، منذ رآها قدراً في مقر الجريدة قبل أكثر من عامين ولفتت انتباهه.

لم يلتفت لحجابها الأنيق ولا ملابسها المحتشمة ولا ذكائها وشجاعتها في الدفاع عن وجهة نظرها الثورية،

وإنما التفت لشيء لم يره من قبل في فتاة أخرى.

فعندما اقترب منها أحد زملائها مازحاً فوجئ بها تخفض وجهها أرضاً في سرعة وتغلق عينيها في قوة هاتفة به أن يبتعد إلى موقعه القديم.

لم يكن أقل دهشة من زميلها في تلك اللحظة لأنه كان شاهداً على وقوف الشاب على بُعد قرابة المتر منها.

يومها عقد حاجبيه وهو يتابعها بنظره تعود لابتسامتها المرحة وحديثها الحماسي معهم وكأن شيئاً لم يكن.

ولم يعرف سرها في ذلك اليوم.

اكتفى بسؤال ساعي الجريدة يومها عنها ومعرفة اسمها ومراقبتها من بعيد،

ثم وجد ساقيه تسوقانه إلى مقر الجريدة كثيراً بحجة لقاء رئيس التحرير ونائبه لمناقشة ما يقدمه من صور حصرية تغطي الشارع السياسي..

وتعرف إليها،

وتقاربا، ثم تحابا في صمت،

ثم تجرأ وطلب الارتباط بها،

ووافقت بعد أن أقنعت أسرتها بجديته ومستقبله كأكاديمي في كلية الفنون الجميلة،

وأخيراً ارتدت دبلته في بنصرها الأيمن.

ويومها أغمضت عينيها أيضاً،

وحينما سألها عن سر هذه الحركة، أدهشته بإجابتها البريئة وهي تحرك كفيها في محاولة لتقريب الصورة إلى ذهنه:

ـ"مبعرفش أبص في عينين حد غريب عن قُرب، ومبحبش حد يخترق الهالة اللي حواليا. عارف انت المجال الحراري اللي حواليك؟ هو دا المقصود بالهالة. ممكن أسمح لماما وبابا و (سيف) و (لميس) و (علا) يخترقوها عادي، وممكن نغلس على بعض كمان. بس مقدرش أسمح لغيرهم. أحس إن الأكسجين حواليا خلص، فبضطر أغمض عينيا وأطلب من اللي قُدامي يبعد".

يومها حدق في وجهها بشعور أقرب للبلاهة، قبل أن يهز رأسه متعجباً ويسألها باهتمام:

ـ"بغض النظر عن اللي قلتيه دلوقتي.. امتى هتسمحيلي أخترق الهالة بتاعتك دي؟ ولا أنا من المغضوب عليهم؟"

لن ينس في حياته ضحكتها الصافية في هذا اليوم ولمعة عينيها البنية وهي تجيبه في شقاوة محببة:

ـ"متستعجلش على رزقك. ومتتوقعش انك هتدخلها قبل ما أبقى مراتك رسمي".

وهاهي أصبحت زوجته... رسمياً

و....

"ألف مبروك يا عريس... دخلت القفص برجليك".

هتف (حمزة) بهذه العبارة في مرح ليخرجه من سيل ذكرياته الصامت، فالتفت إليه مبتسماً:

ـ"أنتم السابقون ونحن اللاحقون يا فندم. عقبال (ياسر) في حياتك".

ثم انتبه لوالد (منار) الذي نهض يعانقه مهنئاً وهو يهمس في أذنه:

ـ"ربنا يسعدكم يا بني ويررزقكم الذرية الصالحة".

ومن الخارج، انطلقت زغرودة فرح قصيرة أعقبتها أخرى أعلى وأقوى رنيناً تحمل توقيع (لميس) ابنة الخالة وخطيبة الشقيق الوحيد، والتي هرعت إلى داخل الغرفة لتقتلع (منار) من المقعد وتحتضنها بقوة وسعادة حقيقة هاتفة:

ـ" ألف مبروك يا نونا... ربنا يسعدك يارب".

وسرعان ما تلقفتها ذراعا أمها التي احتضنها قائلة بصوت مختنق:

ـ"عشت وشفتك عروسة يا (منار).. كان نفسي (سيف) يبقى معانا النهاردة عشان تكمل فرحتنا".

ربتت (منار) على ظهر أمها وهي تطمئنها قائلة:

ـ"إن شاء الله يبقى معانا في الفرح يا ماما. حظه بقى إنهم عاوزينه في الشغل وأجّلوا الأجازة بتاعته."

وقبل أن تعترض والدتها، كان والدها يجذبها إلى أحضانه قائلاً باعتراض باسم:

ـ"إيه دا؟ أنا أحتج. يعني على ما أبارك لجوز بنتي ألاقيكوا خطفتوها مني؟ مش كفاية (رأفت) هياخدها؟ أنا شكلي هعتقلها في أوضتي الأسبوعين الجايين عشان أشبع منها براحتي قبل فرحها".

ارتمت في أحضانه وزرعت وجهها في صدره كما يحلو لها أن تفعل وهي تقول باسمة:

ـ"محدش يقدر يبعدني عنك يا بابا.. انت الحبيب الأول".

علت ضحكات والدها وهو يحتويها ويحرك حاجبيه ل (رأفت) مغيظاً ويقول:

ـ" أيوه كدا بنت أبوكي. ربنا يسعدك يا بنتي. يا سبحان الله. مين كان يصدق (منار) اللي راحت المدرسة من كام سنة النهاردة كتب كتابها".

ثم ما لبث صوته أن تهدج وهو يحيط وجهها بكفيه ليقبل جبهتها بحنان قائلاً:

ـ" ألف مبروك يا نور عين أبوكي".

اختنق صوتها هي الأخرى وهي تلمح ترقرق الدموع في عينيه لتتناول كفه اليمنى بين كفيها وتغرقها بقبلاتها قائلة:

ـ"الله يبارك في حضرتك يا بابا. ربنا ما يحرمنيش من حضرتك ولا من ماما أبداً".

سالت دموع والدتها وغصت (لميس) بدمعتها هي الأخرى، بينما اختنق صوت (رأفت) وصديقيه أمام هذا المشهد الذي قطعه المأذون وهو يطوي دفتره الكبير وينهض قائلاً بابتسامة مرحة:

ـ"بارك الله لكما يا عرسان. وبعدين هو يعني لو مكانش فيه دموع الفرحة متكملش؟ خِف علينا الدراما يا سيادة المستشار".

ضحك والد (منار) وهو يلكز المأذون في كتفه قائلاً:

ـ"يعني لازم تقطع علينا المشهد الهندي؟ أنا غلطان إني جبت صاحبي يكتب كتاب بنتي. كله من (رأفت) المستعجل، ولّا (منار) مفروض يبقى كتابها في دار الإفتا، مش مأذون العشوائيات دا".

نجحت عبارة الأب في تخفيف الجو قليلاً حينما علت ضحكات الحضور، ليقول والد (منار) لأصدقاء (رأفت):

ـ"عقبال ما تفرحوا بأولادكم يا شباب. لو مكانتش ستاتكم صاحبات (منار) كنت قلت عقبالكم مرة تانية".

رفع (حمزة) كفيه قائلاً بفزع مصطنع:

ـ"لا مرة تانية إيه؟ ولا كأنك سمعتي حاجة يا (منار). هو أنا عارف أخد نَفَسي من غيرة مراتي اللي بحبها عشان أفكر تاني؟ نيييفر".

قالها وهو يقبض كفه اليمنى على عنقه علامة الاختناق من غيرة زوجته، لتتعالى الضحكات ثانية، بينما ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي (مازن) وهو يقترب ليصافح (رأفت) ويعانقه مهنئاً ليستأذن في الانصراف.

لكن والد (منار) رفض أن يأذن له قائلاً بإصرار ينم عن أخلاق ريفية أصيلة:

ـ"والله لا يمكن. انت بتشتمنا في بيتنا ولا إيه يا أستاذ (مازن)؟ محدش نازل قبل ما نتغدى سوا. معلش بقى مأذون العشوائيات أخرنا في كتب الكتاب وشكله هيبقى عشا بدري. يلا اتفضلوا".

ابتسم (مازن) في حرج وهو يعتذر قائلاً:

ـ" دايماً عامر يا عمي، بس اسمح لي..".

قاطعه الرجل قائلاً بعناد:

ـ"مفيش اسمح لي هنا.. إحنا جدودنا صعايدة ومينفعش يبقى عندنا فرح من غير عشا. ما تتكلم يا (رأفت)".

ابتسم (رأفت) وهو يقنع (مازن) هامساً:

ـ"خلاص يا (مازن) متزعلش عمي. كلنا هناكل سوا. وبعدين بصـراحة أكـل حماتي ما شاء الله. هتاكل وتدعيلي".

ابتسم (مازن) وهز رأسه باستسلام، بينما ارتفع صوت الأب قائلاً ل (رأفت) بجدية مصطنعة:

ـ" لا إحنا بس اللي هناكل. انت تقعد هنـا مـع مراتـك كفايـة عليـك. واللـه عال... ياخد البنت اللي حيلتي ويتعشى كمان".

حـدق (رأفـت) في وجهـه للحظـات قبـل أن ينتبـه إلى مزحـة عمـه الـذي اصطحب الرجال إلى غرفة الطعام بالفعل، ليتركه وحده معها... لأول مرة.

حينها تنفس الصعداء وهو يلتف إليها بكيانه هامساً:

ـ" ألف مبروك يا عروسة".

خفضت وجهها في حياء وهي تفرك كفيها بتوتر هامسة:

ـ"الله يبارك فيك".

قطع المسافة التي تفصلهما بخطوة واحدة ليلتقط كفيها هامساً بود:

ـ"ارفعي وشك يا (منار)... عاوز أشوف عنيكي عن قُرب".

أغمضت عينيها لا إرادياً حينما شـعرت بقربـه منهـا إلى هـذا الحـد ودقـات قلبها تدوي كالطبول في أذنيها، لكنه لم يمنحها الفرصة للتقوقع داخل هالتها وهو يرفع وجهها إليه هامساً بإصرار:

ـ"افتحي عنيكي يا (منار).. أنا مش غريب عنك. انتـي بقيتـي مـراتي رسـمي خلاص. مش قلتي هتخليني اخترق الهالة لما تبقي مراتي؟"

هزت رأسها بالإيجاب وهي لا تـزال تغلـق عينيهـا في قـوة، وأجفلـت رغـماً عنها حينما شعرت بذبذبات صوته تخترق طبقات الحجاب فوق أذنيها وهو يهمس عن قرب:

ـ"خلاص افتحي عنـيكي يـا حبيبتـي. متخـافيش بـس وجـربي بشـويش. يـالا وريني".

شيء ما في صوته جعلها تطمئن وتـريح كتفيهـا المتصـلبين ثـم تلـتقط نفسـاً عميقاً وتبدأ في إزاحة جفنيها ورموشها الطويلة بـبطء عـن حـدقتين بمـزيج مـن لـون البنـدق وشـذرات ذهبيـة. ولدهشـتها لم يكـن الأمـر صـعباً كـما تخيلت، بل استجابت عيناها للأوامر بطواعية وكأنهما تتوقان أيضـاً لتعانقـا عيني (رأفت) السوداوين عن قرب.

ولفـترة لم يحسـباها ظلـت أبصـارهما متعانقـة بصـمت ينقـل لغـة العيـون المتلهفة على هذا اللقاء.

وأخيراً همس (رأفت) بوله وعيناه تجوبان ملامحها بلهفة:

ـ"عندك حق تعمـلي حـواليكي ألـف هالـة. أنـا دايـخ مـن سـاعة مـا شـفت عنيكي."

تضرج وجهها خجلاً فخفضته أرضاً ليقول في سرعة:

ـ" لأ إرجعي تاني. لسه ما شبعتش من البندق".

تمتمت في حرج:

ـ" (رأفت) مش للدرجة دي".

وضع سبابته تحت ذقنها ليرفع وجهها ويعاود الغوص في عينيهـا الكحيلتـين قائلاً بانبهار:

ـ" للدرجة دي ونص. كنت دايماً فاكرك مكحلة عنيكي، بس دلوقتي اكتشفت إنهم ما شاء الله مكحلين طبيعي. انتي مش متخيلة سعادتي لما اكتشـف إن مراتي جمالها طبيعي. لا مكياج ولا سليكون".

ضحكت بخفـوت وهــي تفـر بخجلهـا منـه لتعـاود الجلـوس عـلى مقعـدها القديم، فلحق بها ليجلس على المقعد المجاور هامساً بصدق:

ـ" بحبك. بحبك ونفسي ربنا يقدرني وأخليكي أسعد مخلوقة في العالم".

رفعت وجهها لترى الصدق في عينيه السوداوين وتهمس بدورها:

ـ"ربنا يقدرني وأسعدك أنا كمان".

اقترب بوجهه هامساً بعبث:
ـ"بس كدا؟ مفيش بحبك يا (رأفت)؟"
احتقن وجهها بشدة فأدارته بعيداً وشعرت بدقات قلبها تتسارع حتى هُيئ إليها أن من يراها يستطيع ملاحظة اختلاج ملابسها فوق قلبها، وزاد توترها وهو يلتقط كفها البارد بأنامله الدافئة ويقول بغموض:
ـ"خلاص بلاش بحبك. مش عاوزة تقولي رأيك فيا لما شفتيني عن قرب؟ شعري؟ دقني؟ نضارتي؟ لدغتي اللي مطيرة نص الكلام؟"
ابتسمت بحياء على دعابته وكادت تهتف به أن لثغته المميزة في حرف الراء هي أكثر ما تحبه فيه، وأنها أصبحت تحب اسمها منذ سمعته ينطقه، لكنها تمالكت نفسها وعادت تدير وجهها إليه لتتأمل ملامحه الوسيمة التي حفرتها بين طيات ذاكرتها.
شعره الأسود الناعم الذي تتناثر بعض خصلاته الطويلة على جبهته العريضة، وحاجبيه اللذان نادراً ما يلتقيان وقت الغضب لكنهما يخفيان عينيه العميقتين، وبينهما أنفه المستقيم الذي يستضيف نظارته الأنيقة دون تذمر، ولحيته التي تخفي أغلب وجهه، لكنها لا تعيق ابتسامته الصافية التي تنير حياتها كشمس الشتاء الدافئة.
أما هو فعاد يرسم ملامحها الرقيقة في ذاكرته وهو يجاهد ألا يفلت أصابعه لتتحسس بشرتها الخمرية الناعمة وغمازتها الشقية التي تتوسط وجنتها اليسرى وشفتيها الورديتين وذقنها المشقوق بطابع حسن خلب لبه منذ عرفها و...
قطع تأملاته رنين هاتف جوال فالتفت يبحث عنه عاقداً حاجبيه في ضيق بينما انتفضت هي في جلستها وهبت واقفة كأنها متهم ضبطوه متلبساً.
لمح الهاتف على الطاولة الجانبية الموضوعة بين مقعدي (مازن) و (حمزة)، لكنه ميز هاتف ذلك الأخير ليقول من بين أسنانه في غيظ:

ـ"موبيل مزعج زي صاحبه."

قالها وهو يلتفت إليها متابعاً بابتسامة:

ـ"قطع عليا تأملاتي في ...".

لكنه قطع عبارته حينما لم يجدها في الغرفة الخاوية إلا منه، فضغط أسنانه ثانية وهو يتوعد الهاتف وصاحبه قائلاً:

ـ" طيب يا (حمزة)... ليك يوم انت وموبيلك".

***

العاشرة مساء

وسط البلد

جلس بعصبية على احد المقاعد الجلدية بمكتبه في مقر الجريدة وهو يهتف بغضب شديد ويخبط كفيه معاً:

ـ" استغفر الله العظيم.... خلاص (حمزة) بقى مصدر خطر عالنظام يستوجب اعتقاله بالشكل دا؟ الناس دي غبية بالوراثة؟ يعني بعقلهم لو اتنشر بكرا خبر اعتقال صحفي شريف زيه كدا الناس هتقعد في بيوتها ومش هتنزل تتظاهر؟"

جلس (رأفت) بدوره على مقعد مواجه وهو يقول في حيرة:

ـ"بجد مش فاهم اشمعنى أستاذ (حمزة)؟ يعني دا راجل في القسم الأدبي وملوش في السياسة. لو انت كنت قلت ماشي ليك أعداء كتير ومقالاتك بتخبط في الكل خصوصاً الكبار والمسنودين... لكن (حمزة)!!!".

تنهد (مازن) في عمق عله يتخلص من بعض ضيقه وهو يجيبه قائلاً:

ـ"الاعتقال مش ل(حمزة) وبس. هما كمان اعتقلوا الدكتور (مصطفى)، ودا معناه إن الجرنال هو المقصود. كدا رئيس التحرير ونائب رئيس التحرير غايبين والجرنال مش هيبقى بنفس الكفاءة.. أكيد دا اللي في دماغهم".

تدخل (معاذ) في الحوار بينهما قائلاً بتردد:

ـ"اسمحولي أتـدخل.. انتـو هتعملـوا كـدا فعـلاً؟؟ أقصـد هتعملـوا الـلي في دماغهم؟"
أجابه (مازن) في قوة وحزم:
ـ"دا بعينهم.. الجرنـال مـش قـايم عـلى أشـخاص. الجرنـال قـايم عـلى فكـر وقضـية كلنـا مـؤمنين بيهـا. في غيـاب الـدكتور (مصـطفى) كلنـا موجـودين وهننفذ سياسة الجرنـال مهـما حصـل إن شـاء اللـه. ولازم نفضـح عمايلهـم وبلاويهم زي ما طول عمرنـا بنفضـحها. متخـافش يـا (معـاذ)... إحنـا مـش هنخاف منهم".
ارتسم الارتياح على ملامح (معاذ) المصرية وهو يتنهد قائلاً:
ـ"ريحت قلبي ربنا يريح قلبك".
حينها سأله (رأفت) بفضول:
ـ"صحيح يا (معاذ)... من ساعة ما شفتك يوم التلات وأنا عـايز اعـرف انـت بتشتغل إيه وتعرف (حمزة) منين، وكل مرة أنسى أسألك".
ابتسم (معاذ) ابتسامة واسعة أظهرت أسنانه اللامعة وهو يقول بتواضع:
ـ" أخوك (معاذ كامـل).. طبيـب أسـنان، واتعرفـت عـلى أسـتاذ (حمـزة) في اجتماعات الحركة".
عقد (رأفت) حاجبيه في دهشة قائلاً:
ـ"الحركة؟ حركة إيه؟"
هم (معاذ) بإجابته حينما نطق (مازن) ببساطة:
ـ "حركة كفاية. (حمزة) من أعضاء حركـة كفايـة، وأكيـد دا برضـه سـبب في اعتقاله".
هز (رأفت) رأسه مـتفهماً والدهشـة لا تـزال مرسـومة عـلى ملامحـه وهـو يقول:

ـ" أهاا... قلتلي بقى.. هو في كفاية وأنا في الجمعية الوطنية للتغيير، وانت؟ ملكش في الليلة دي ولا مقضيها مقالات وخلاص؟"

ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه (مازن) وهو يجيبه:

ـ" لا... أنا مليش في الليلة دي.. أنا ليا حوار مختلف".

ابتسم (رأفت) بدوره وهو يقول بمرح يميزه:

ـ"ماشي يا عم المختلف... الله يباركلك".

ثم ما لبث أن أردف بضيق:

ـ "منهم لله... نكدوا عليا في أسعد أيام حياتي. بدل ما احتفل بكتب كتابي يخطفوا صاحبي قدامي".

داعب (مازن) جواله بشرود وهو يقول مواسياً:

ـ"معلش.. متعوضة في الفرح إن شاء الله ويكون (حمزة) معانا".

قالها وهو يشرد بعيداً ويتذكر آخر مكالمة تلقاها من زوجته بعد اختطاف (حمزة) مباشرة وكيف كان جافاً معها.

فحينما رأى اسمها يتراقص أمامه على شاشة الهاتف مصحوباً بنغمتها المميزة خفق قلبه للحظة قبل أن يتبادر إلى ذهنه خاطر أزعجه وجعله يرد عليها بخشونة متعمدة.

كان يتوقع أن يكون اتصالها محاولة منها للاستئذان كي تشارك في مظاهرات الجمعة، وهذا ما أغضبه.

لكن ما جعله يشتعل غضباً كان سؤالها عن (حمزة).

لذا صرخ بها والغيرة تعمي عينيه:

ـ" وانتي مالك ومال (حمزة)؟ بتسألي عنه ليه؟"

ورغم تأكيدها على أنها تريد مساعدة (راندا) زوجته، لم يهدأ غضبه ولم تنطفئ غيرته... حتى الآن.

فحينما نقل له الهاتف ذبذبات صوتها كاد يـذوب حنانـاً، لكـن تخيلـه أنهـا تريد المشاركة في المظاهرات جعله يفقد صوابه.
وفجأة وجد نفسه يرفع عينيه عن هاتفه ويسأل (رأفت) قائلاً:
ـ" إيـه الـلي يخـلي (رانـدا) مـرات (حمـزة) تتصـل بمـراتي أنـا تسـأل عـلى (حمزة)؟"
هز (رأفت) كتفيه قائلاً ببساطة:
ـ" عادي... هتكلم مين يعني؟ هما كانوا زملا زمان فعادي تسألها".
هز (مازن) رأسه بعدم اقتناع وهو يجول ببصـره في الغرفـة لـيلمح (معـاذ) واقفاً في الشرفة المطلة على الشارع الرئيسي، فعاد ببصره إلى (رأفت) قائلاً:
ـ"مش عارف ليه مش مقتنع بالحجة دي... (رانـدا) حسـب مـا فهمـت مـن (حمـزة) مطلعـة عينـه بغيرتهـا. فلـما تكلـم مـراتي... حاسـس بحاجـة مـش مريحاني".
تنحنح (رأفت) بحرج قائلاً:
ـ" بص... ما تفهمش غلط... إحنـا كلنـا عـارفين بموضـوع غـيرة (رانـدا) دي، والمشكلة إنها مش غيرة عادية. الموضوع داخـل فيـه انعـدام ثقـة بـالنفس.. فهـي متخيلـة إن أي واحـدة حلـوة ممكـن تلفـت انتبـاه (حمـزة) وتاخـده منها... (منار) كانـت حكـت لي مـرة زمـان إن (رانـدا) حاطـة في دماغهـا إن (حمزة) كان معجب ب (علا) أيام التـدريب، ولمـا رفضـته نقـل عليهـا هـي واتجوزها لكنه لسه بيفكر في (علا). طبعـاً الكـلام دا ملـوش أي أسـاس مـن الصحة لإن (حمزة) من البداية كان مركز على (راندا) وعمـره مـا بـص عـلى بنت بتتدرب غيرها".
عقد حاجبيه وهو يفكر بما قاله (رأفت) وعقله يعـود إلى المـرة الأولى التـي تحدث فيها مع (حمزة) بشأن (علا).

كانت في نفس اليوم الذي قابلها فيه للمرة الأولى، وكان للتو قد عاد إلى الجريدة بعد أن أوصل (علا) وأخيها الصغير إلى منزلهما.

يومها، تلقى اتصالاً من (حمزة) يسأله أين هو، وأجابه بأنه قادم إليه. وما إن جلس في مكتبه حتى ابتدره بسيل من الأسئلة الفضولية عن (علا) وسبب عدم رؤيته لها من قبل في طرقات الجريدة.

كان الفضول هو محركه الأول في الاستعلام عنها بكل هذا الإصرار، لكن (حمزة) كان شحيحاً وهو يعطيه من المعلومات ما لا يزيد عما يعرفه الآخرون، وحازماً وهو يحذره من التصرف معها بطيش قد يؤذي صورتها الملتزمة أمام الجميع.

أدهشه دفاع صديقه المستميت عن أخلاقها، حتى بدا وكأنها شقيقته أو تحت حمايته الخاصة، لكنه لم يشك للحظة في أن (حمزة) قد يخفي مشاعر خاصة تجاهها.

فهذه ليست أخلاقه، وزوجته لن تتركه يهنأ بمثل هذا الترف.

تلك المجنونة... تُرى كيف تلقت نبأ اعتقاله؟

*****

التاسعة مساء

القاهرة الجديدة

أغلقت الهاتف بشرود وخطان من الدموع يُغرقان وجهها بعدما بلغها نبأ اعتقال زوجها.

لم تدر أهي دموع الخوف عليه مما يلقاه المعتقلين عادة من إهانة وإساءة وتعذيب،

أم هي دموع الحزن على اختفاءه من حياتها وحياة صغيرهما وهي لا تدري بعد ما إذا كان مقدراً له العودة إليهما ثانية أم لا؟

أم تراها دموع الندم؟

الندم!؟

نعم الندم لأنها أساءت إليه مراراً وهي تتهمه في داخلها بخيانتها مع أخرى.

حتى اليوم اتهمته بالخيانة.

فمنذ المساء وهو لا يجيب اتصالاتها، وكانت المكالمة الأخيرة بينهما عصراً حينما أخبرها أنه سيذهب مع (رأفت) لحضور عقد قرانه.

ومنذ ساعتين تقريباً فوجئت بهاتفه مغلقاً.

حاولت الاتصال وإعادة الاتصال مراراً،

وفي كل مرة كانت تصلها نفس الرسالة..

"الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح. من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق".

لحظتها قفز شيطان الغيرة أمامها وهو يوسوس لها بالمكان الذي ذهب إليه (حمزة).

من المؤكد أنه برفقة إحداهن الآن... شقراء فاتنة هيفاء القد ولا يعير لها أو لطفلهما أي اهتمام.

وما إن تخيلته يخونها مع فاتنة شقراء حتى قفزت صورة (علا) أمام عينيها.

لا تدرِ لماذا تتخوف دائماً منها وتشعر بها مصدر خطر داهم على حياتها.

حتى بعدما تزوجت من (مازن) ظلت تثير قلقها، خاصة بعد خلافهما الأخير.

لذا سارعت بالتقاط هاتفها المحمول والبحث عن رقم (علا) بين صفوف الأسماء المهملة، وما إن وصلها صوت غريمتها عبر الأثير حتى هتفت بها في سرعة:

ـ"فين (حمزة) يا (علا)؟"

أتاها صوت (علا) المندهش وهي تجيبها بنوع من الضيق:

ـ" وأنا اعرف منين يا (راندا)؟ الناس تقول السلام عليكم الأول. وبعـدين أنـا صحيح بشتغل في مكتبه لكن مش معايا جدول بتحركاته".

شعرت بتسرعها في الهجوم على زميلتها فتداركت قائلة بارتباك:

ـ"آسفة ماخدتش بالي. المهم متعرفيش هو فين؟"

تصاعدت دماء الغضب في رأس (علا) وهي تهتف من بين أسنانها قائلة:

ـ"أنا صحفية مش سكرتيرة يا (راندا)، دا غير إني لسه في أجازة مرضي".

استمرت (راندا) في إصرارها على الوصول إليه وهي تتابع:

ـ"طيب اسألي جوزك.. أكيد يعرف هو فين إذا مكانش معاه أصلا".

زفرت (علا) في قوة وغيظ قائلة:

ـ" استغفر الله العظيم... يعني اتصل بجوزي عشان أقول له فـين صـاحبك؟ أمري لله حاضر هكلمه".

وبعد خمس دقـائق حيـنما أتاهـا الخـبر اليقـين باختطـاف زوجهـا مـن بـين أصدقاءه، شعرت بالأرض تميد تحت قدميها وألـف سـؤال وسـؤال يـدور في عقلها ويطن في أذنيها طنيناً مخيفاً..

من الذي قد يختطف زوجها؟ ولماذا؟

أهي عملية ثأر؟ لكنه ليس من الصعيد.

أم هي عملية انتقامية؟ ولكن من الذي يريد الانتقام منه ولماذا؟

أيكون الاختطاف متعلقاً بامرأة ما؟؟؟

شعرت بأن ما تبقى من خلايا في مخهـا سـتطير بفعـل الشـك والغـيرة التـي أعمتها فلم تجد أمامها سوى شقيقها ملازم الشرطة تستنجد به.

وحينما أخبرته بما سمعته كان له رأياً آخر...

ـ "ست إيه وكلام فارغ إيه يا (راندا)؟ جوزك مش بتاع الكلام دا".

قالها شقيقها الذي يصغرها بـثلاث سـنوات، وهـو يراجـع عـدة أوراق عـلى مكتبه بقسم الشرطة.

أما هي فكانت على نفس إصرارها وهي تقول:
ـ"مهو أنا مش مقتنعة برضه إن أمن الدولة خدوه... هو صحفي بيكتب في الأدب يعني ملوش في السياسة، أمن الدولة ياخدوه ليه؟"
أجابها ببساطة:
ـ" لإنه عضو في حركة كفاية".
قفزت من مقعدها وهي تصرخ في استنكار جعله يبعد الهاتف عن أذنه كيلا تصاب بالصمم:
ـ"مين؟ انت بتقول إيه؟ كفاية اللي ضد الريّس؟ جبت الكلام دا منين؟"
عاد يضع الهاتف على أذنه وهو يقول مهدئاً:
ـ" بصي من غير صريخ ونرفزة مش ناقص ودني تتخرم. جوزك عضو نشط في حركة كفاية من زمان، وأنا اتشديت في الكلية بسببه مرة. ولما قلت له إني ممكن أتئذي بسبب نشاطه المعادي للنظام وعدني انه هيبطل سياسة. وفعلاً هو هدّى اللعب ومعادش بيروح الاجتماعات بتاعتهم زي الأول. لكن مجرد علاقة جوز أختي بحركة مناهضة للنظام زي دي خلاني أترمي الرمية السودا اللي أنا فيها وأمسك قسم شرطة لمكان مش موجود أصلاً على الخريطة".
عقدت حاجبيها وهي تنهار جالسة على نفس المقعد قائلة بذهول:
ـ"كفاية يا (حمزة)؟ وأنا آخر من يعلم؟"
تابع قائلاً بهدوء:
ـ" واضح إنه رجع لنشاطه تاني بعد أنا ما اتخرجت. عموماً وجوده مع ناس زي دول شرف ليه وليهم. الناس دي عايزة البلد تنضف".
أما هي فلم يبد أنها سمعت جملته الأخيرة وهي تقول بشبه هذيان:
ـ"يعني كل الأيام اللي كان بيتأخر فيها برا البيت ويقفل موبايله وأنا اشك فيه.... كل الأيام دي كان معاهم؟ كان في اجتماعات سياسية؟"

ضحك ضحكة قصيرة متوترة وهو يقول بغيظ:
-"يا دي الشك اللي هيخرب بيتك... افهمي يا حبيبتي... جوزك ملوش في أي حاجة غير الصحافة والسياسة وانتي وابنكو وبس. (حمزة) لا يمكن يفكر في واحدة تانية إلا إذا أختي العاقلة الراسية طفشته من البيت. وأنا عارف انك عملتيها ويمكن يكون هو دلوقتي مرتاح من زنك".
هتفت به في غضب:
-"(أسامة)... مش ناقصة خفة دمك. اتصرف دلوقتي وشوف إزاي نقدر نوصل له أو حتى نعرف هما واخدينه ليه".
علت ضحكته المتوترة هذه المرة وهو يعود بمقعده الجلدي إلى الخلف قبل أن يقول لها ساخراً:
-" على أساس إن اخوكي رئيس مباحث ولا مساعد مدير أمن... أنا يادوب ملازم متخرج من ست شهور واسمي لسه بالقلم الرصاص. دا أنا حتى محدوف آخر بلاد المسلمين، والموضوع شادد اليومين دول".
اختنق صوتها بالعبرات وهي تقول باكية:
-"يعني أشوف لي حد من برا ينجدني وأخويا في الداخلية؟ اتصرف يا (أسامة) الله يخليك. أنا ممكن أتجن لو (حمزة) حصل له حاجة".
تنهد في قوة وضغط فكيه بقهر وهي يستمع لصوتها الباكي قائلاً:
-" إلا دموعك يا أم (ياسر). والله هحاول اعمل كل اللي أقدر عليه. انتي عارفة معزّة (حمزة) عندنا كلنا قد إيه. ادعي بس بكرا يعدي على خير لإن قلبي مش متطمن. جايلنا تعليمات غريبة بضرب النار في المليان إذا حصل هجوم على الأقسام. بس مين اللي ممكن يهجم عالقسم وليه؟ وحتى أصحابي اللي في الأمن المركزي مسحولين من قبل يوم التلات ولا زالوا مشدودين تحسباً لمظاهرات بكرا. مش عارف هما بيخططو لحاجة ولا المظاهرات دي وراها حد بيهدد البلد فعلا ولا إيه... ربنا يستر".

وكان دعاؤه الأخير هو نفس ما يهتف به الآلاف سراً وعلانية ليلة ٢٨ يناير ٢٠١١.

***

العاشرة والنصف مساءً

وسط البلد

اندفع (معاذ) من الشرفة إلى داخل الغرفة وهو يهتف بانفعال:

ـ"إلحقو السويس ولعت".

انتبه (مازن) من ذكرياته، بينما أنزل (رأفت) هاتفه عن أذنه وهو يسأله بلهفة:

ـ"إيه اللي حصل؟"

التقط (معاذ) أنفاسه وهو يقول بغيظ:

ـ"الكلاب اللي معندهمش ضمير... مش كفاية قتلوا ييجي عشرة من يوم التلات للنهاردة، ومكانوش عاوزين الأهالي يدفنوهم. طلعوا إشاعة إن الشيخ (حافظ سلامة) اتقتل، وما أدراكم بإشاعة زي دي ممكن تعمل إيه".

أنهى (رأفت) مكالمته مع (منار) في سرعة ليلتفت إليهما، بينما عقد (مازن) حاجبيه في ضيق وهو يسأل (معاذ) باهتمام:

ـ" المهم الشيخ (حافظ) بخير؟ هو صمام الأمان في السويس دلوقتي".

أجابه (معاذ):

ـ"أيوة الحمد لله. أصلاً هو كان برا السويس والأمن طلع الإشاعة دي. مش متخيل الوضع هناك عامل إيه".

اقترب منه (رأفت) متسائلاً:

ـ"هو انت كنت بتكلم حد من السويس دلوقتي؟"

أومأ (معاذ) برأسه قائلاً:

ـ"أيوه أنا أصلاً من السويس. ومن شوية قلت أكلم اخويا اتطمن عليهم، فقاللي على اللي بيحصل هناك. البلد هاجت والناس ولّعت في قسم شرطة الأربعين ومقر الحزب الوطني وحالة انفلات فظيعة. وطبعا كل دا عشان يبرروا تدخل الأمن المركزي وقوات فض الشغب ويموّتوا كام واحد تانيين. أنا مش فاهم إيه اللي بيحصل".

حينها قلب (رأفت) كفيه في حيرة قائلاً:

ـ" طيب ليه الشيخ (حافظ) ما يطلعش ويهدّي الناس ويعرفهم إنها كانت إشاعة"؟

هز (معاذ) كتفيه قائلا بقلة حيلة:

ـ" مش عارف... أخويا بيقول إنهم كلموه واتأكدوا انه كويس، بس أكيد مش هيعرفوا يهدّوا البلد دلوقتي. ربنا يستر".

ازداد انعقاد حاجبي (مازن) وهي يقول ببطء:

ـ" معنى كدا إنهم مش ناويين يعدوها على خير... الأول يقتلوا ناس عادية طول اليومين اللي فاتوا، ودلوقتي بيسربوا إشاعات غلط تخلي البلد تولع، وبيعتقلوا الأعضاء البارزين في الجماعات السياسية. واضح إن بكرا هيبقى يوم صعب... أصعب مما نتصور".

أضاف (معاذ) في سرعة:

ـ" ولو تعرف إن اللي ماتوا في السويس كانوا مضروبين في ضهرهم... يعني مكانوش واقفين قدام البوليس كمان".

تأمله (مازن) للحظات في صمت قبل أن يدير بصره إلى (رأفت) الذي شحب وجهه تدريجياً وهو يسأله بصوت مبحوح:

ـ"تفتكر هيعملوا كدا بكرا؟ يفتحوا علينا النار"؟

تنهد (مازن) في عمق وهو يتجه إلى الشرفة ويرفع بصره إلى السماء الحالكة قائلاً:

ـ" الله أعلم... إحنا خارجين نقول للظلم لأ... ويا جبنا حقنا، يا متنا شهدا".

وكان يعنيها بكل تأكيد

** ** **

(٤)

الجمعة ٢٨ يناير

الحادية عشرة صباحاً

العريش

ضغط زر الاتصال السريع بهاتفه المحمول ليأتيه بعد قليل صوت الرسالة المسجلة المستفز بأن الرقم المطلوب خارج نطاق الخدمة، فأنهى الاتصال في عصبية وهمّ بإلقاء الهاتف على طول ذراعه حينما لمعت عيناه ببريق خاطف وهو ينظر إليه ثانية ويضغط بسرعة عدة أرقام متتالية لم يكد ينهِها حتى ميزت أذناه صوت الرنين على الطرف الآخر متبوعاً بصوت أمه الملهوف وهي تهتف:

ـ" (سيف)؟ أيوه يا (سيف) أنا ماما يا حبيبي".

قال في سرعة مطمئناً:

ـ"أيوة يا ماما.. ازيك وازاي بابا؟ ازيكم كلكم"؟

أجابته بلهفة الأم:

ـ"كويسين يا حبيبي الحمد لله. المهم انت.. طمنني عنك. (لميس) قالتلي إنها كلمتك من يومين وإن أجازتك اتأجلت. كل أما أحاول أطلبك متردش عليا.. نشفت دمنا يابني".

لاحت ابتسامة شاحبة على وجهه وهو يحاول تهدئتها قائلاً:

ـ"معلش يا ماما غصب عني... بابقى مشغول وساعات كتير بعمل الموبيل سايلنت أو اسيبه في أودتي. أنا حبيت بس أتطمن عليكم وأطمنكم عليا".

سألته بتوجس:

ـ"هو انت هتنزل في المظاهرات النهاردة يا (سيف)"؟

زفر في ضيق حاول ألا ينعكس على صوته وهو يجيبها:

ـ"الوضع عندنا مختلف يا ماما... إحنا هنا بننضرب".
عقدت حاجبيها في قلق وهي تهتف به:
ـ"يعني إيه بتنضربوا؟ فهمني فيه إيه عندك. كفاية أختك اللي منشفة دماغها تنزل مع جوزها المظاهرات النهاردة".
عقد هو حاجبيه هذه المرة وهو يهدر في غضب:
ـ"نعم؟ جوزها؟ هو أنا طرطور في العيلة ولا إيه يا ماما"؟
تلعثمت الأم أمام غضبه وحاولت أن تجد الكلمات التي تبرر بها تسرع (رأفت) في عقد قرانه على خطيبته، لتقول أخيراً :
ـ"ما عاش اللي يقول عليك طرطور يا حبيبي... مهو لو كنت جيت في أجازتك كنا كتبنا الكتاب وانت حاضر وشاهد عالعقد.. وبعدين إحنا لقيناه بيكلم أبوك ويتفق معاه إنه هيجيب المأذون العصر عشان يكتب الكتاب. معرفش أقنعه إزاي أصلاً. وامبارح من ١٤ فبراير بسيطة".
هتف من بين أسنانه في غيظ:
ـ"بسيطة إيه يا ماما؟ انتي لسه قايلاها بعضمة لسانك.. الأستاذ المصور المناضل كتب كتابه على أختي عشان يشدها وراه في المظاهرات.. ما صدقوا إني اتنقلت العريش عشان يعملوا ما بدالهم".
ثم أردف في سرعة ولهجة آمرة:
ـ"أوعي تخليها تنزل يا ماما... تحت أي ظرف مش لازم (منار) تسيب البيت النهاردة. امنعيها يا ماما بأي شكل".
اتسعت عينا السيدة في جزع وهي تسأله بصوت مرتجف:
ـ"هو فيه إيه يا (سيف)؟ فيه إيه مش عايز أختك تشوفه؟"
هتف بانفعال جارف:

ـ"فيه موت يا ماما. الوزارة مقلوبة من قبل يوم ٢٥، والتعامل النهاردة هيبقى مختلف عن أي مظاهرة قبل كدا. عشان خاطري يا ماما امنعيها تنزل، حتى لو اضطريتي تربطيها في السرير".
انهارت أمه على أقرب مقعد للهاتف وهي تقول في شحوب:
ـ"بعد إيه يا (سيف)؟ أختك نزلت من ساعة، ويا عالم هترجع ولا لأ".
هتف بها غافلاً عن انقطاع شبكات المحمول:
ـ"كلميها عالموبيل يا ماما.. اتصرفي".
صرخت به في انهيار:
ـ"مفيش شبكة من الصبح. لا موبيلات ولا نت. يارب سترك.. يارب ما تسيئنيش فيها ولا في ابني يارب".
اتسعت عيناه وهو يسمع دعائها المرتجف لتنتقل الارتجافة إلى قلبه وهو يتخيل أن يكون اليوم هو آخر أيام شقيقته الوحيدة في هذه الحياة.

***

الثامنة مساء

ميدان التحرير

تقوقعت على نفسها في رعب وهي تراقب بعينين مذعورتين سقوط المزيد من الضحايا تحت عجلات السيارات المدرعة وبطلقات القناصة المتمركزين فوق مجمع التحرير ومقر الجامعة الأمريكية.
وبأصابع مرتجفة، بللت طرف طرحتها القطنية بقليل من الماء المتبقي في زجاجتها البلاستيكية قبل أن تلف الطرف المبلل حول أنفها وفمها اتقاء لوصول الغاز المسيل للدموع إليها.
ومن بين جموع المتظاهرين اقتربت منها فتاة سافرة تخفي وجهها بلثام على هيئة الشال الفلسطيني، وتبدو من خلفه ملامحها البسيطة بشعرها البني الغجري وملابسها الشبابية، وهتفت بها في قوة وهي تجري إليها:

ـ"متقفيش كدا..خديلك ساتر في أي حتة. الغاز هيزيد دلوقتي".
تجمدت (منار) وهي تحدق بها في صمت جعل الأخرى توقن أنها ليست في حالتها الطبيعية، لتجذبها من ذراعها قائلة بحزم لم يخفِ لكنتها الغريبة:
ـ"مش وقت تتنيح خالص... تعالي معايا".
قالتها وهي تجذب (منار) خلفها حتى وصلتا إلى مدخل منزل قريب احتمتا بداخله من دخان الغاز وصوت لهاثهما يكاد يطغى على أصوات الخرطوش وأبواق مدرعات الأمن المركزي.
وما إن هدأت أنفاس الفتاة حتى اقتربت من (منار) قائلة بابتسامة ودود:
ـ"شكلك أول مرة تنزلي مظاهرات.. باين من الذهول اللي على وشك".
أومأت (منار) برأسها إيجاباً في صمت لتواصل الفتاة قائلة بمرارة:
ـ"وحتى لو مش أول مرة تنزلي مظاهرة.. دي أول مرة نشوف العنف دا. اللي يشوف الميدان واللي بيحصل لنا فيه يقول دا قطاع غزة ودي الانتفاضة الفلسطينية مش ميدان التحرير في القاهرة".
ثم مالبثت أن أزاحت اللثام عن وجهها وهي ترسم ابتسامة دبلوماسية على شفتيها وتمد كفها لتصافح (منار) قائلة بود:
ـ"(رنيم زين الدين).. طالبة في الجامعة الأمريكية اللي احتلوها وبيضربونا من فوقها.. وانتي؟"
صافحتها (منار) وهي تحاول أن تجد صوتها قائلة:
ـ" (منار العليمي).. صحفية".
لطمتها (رنيم) على كتفها كما يفعل الشباب قائلة بمرح:
ـ"هيي صحفية ومرعوبة كدا؟ ما ينفعش. لازم تجمدي قلبك عشان تقدري تنقلي اللي شفتيه هنا للناس".
عقدت (منار) حاجبيها وهي تسألها في حيرة:
ـ"انتي مصرية يا (رنيم)؟"

هزت (رنيم) كتفيها وهي تحاول ربط شعرها المتناثر بفوضوية حول وجهها قائلة بثقة:

ـ"Of course مصـرية. دادي جـراح مشـهور هنـا في مصـر. ولـو تقصـدي اللكنة، I'm sorry.. أصلي مولودة برا وتعليمـي I'm really ...American Sorry إني مش قادرة أحسّن لكنتي المصرية".

أزاحت (منار) لثامها عن وجهها لتكشف ابتسامتها الدافئة وهي تربت على كتف (رنيم) قائلة:

ـ"مين قال إن لكنتك وحشة؟ بالعكس كيوت جداً.. فكرتينـي بجـوني وإتـش دبور".

حركت (رنيم) أصابعها حول وجهها وهـي تقـول بمـرح متناسـية مـا يـدور حولهما

ـ" يو يو يوووو...كبر الجي وليط الدي يا مان".

ضحكت (منار) بقوة جعلتها تسعل في شدة مـن أثـر رائحـة الغـاز الخانقـة قبل أن تتمالك نفسها قائلة بنفس المرح:

ـ"كووول... امتى الأمن المركزي بقى بيمشي بسلطاته وبابا غنوجه ويرحمنا؟ أنا خلاص مش عارفة اتنفس".

اقتربت (رنيم) من بوابة المدخل كمن يستطلع الأوضاع بالخارج، ثم عـادت تهز كتفيها قائلة:

ـ"لسة صوت الضرب شغال. انتي هنا لوحدك يا (منار)؟"

هزت (منار) رأسها نفياً وهي تحتضن نفسها بذراعيها علها تـدفئ جسـدها المنهك قائلة:

ـ"المفروض كنت مع خطيبي واتنين زمايلنا.. بس للأسف اتفرقنا عـن بعـض واحنا على كوبري قصر النيل. أصلاً مرعوبة يكون حصل له أو لأي حد فيهم حاجة من اللي شفتها بتحصل هناك".

عقدت (رنيم) حاجبيها وهي تقترب منها قائلة بفضول:
ـ" هـو إيـه الـلي حصـل عـلى الكـوبري؟ أنـا كنـت في مسـيرة مسـجد النـور ووصلت الميدان متأخر. احنا شفنا الموت طول الطريق.. قنابل غاز وبعـدين بلطجية طلعوا علينا واضطرينا نتفرق في الشوارع الجانبية. عشان كدا لسـه واصلين من شوية ومنعرفش إيه اللي حصل".
ارتسم الألم جلياً على ملامح (منار) وهي تتذكر الأهوال التي عايشـتها منـذ اقتربت مسيرتهم من كوبري قصر النيل.

فقد اتفقت مع (رأفت) على الالتقاء بالقرب من منزل (مـازن) في الزمالـك، حيث قضى ليلته برفقة (مازن) و (معاذ).
وبالفعل وصلت إليـه قبـل صـلاة الجمعـة بقليـل، فـأدت الصـلاة في مصـلى النساء بنفس المسجد معهم قبل أن ينطلقوا جميعاً إلى أقرب نقطـة تجمـع متفق عليها.
وانطلقت المظاهرة في شوارع القاهرة على قلب رجل واحد.
ولدهشتها فقد تسلق (رأفت) ببنيته الضـعيفة ظهـر (معـاذ) لـيجلس عـلى كتفيه وهو يهتف بقوة مخاطباً الأهالي في منازلهم:
ــ"يا أهالينـا انضـمو لينـا.. عـلّي وعـلّي وعـلّي الصـوت الـلي بيهتـف مـش هيموت".
وجدت نفسها تهتف خلفه في حماس شـديد وهـي تلـوح بـذراعيها للأهـالي الذين وقفوا يتابعون المسيرة من النوافذ والشـرفات:
ـ"علّي وعلّي وعلّي كمان... إحنا رايحين الميدان".
وارتفع خلفهما هتاف (مازن) الحماسي:
ـ" مش هنخاف مش هنطاطي إحنا كرهنا الصوت الواطي".

اشتعل الحماس بين الشباب والفتيات الذين ارتفعت أصواتهم بالهتاف، حتى اقتربوا من أول حاجز امني يعترض مسيرتهم بجنود الأمن المركزي المختفين خلف دروعهم الشفافة.
حينها توقفت المسيرة وعمها الصمت في انتظار رد فعل الجنود المتحفزين.
تحرك (معاذ) ليِنزل (رأفت) من فوق كتفيه واعتدل ليهتف بقوة:
ـ"يا أبو دبورة ونسر وكاب... إحنا اخواتكم مش إرهاب".
وكأنما كان هتافه الشرارة التي أعادت الحماس، انطلق المتظاهرون يهتفون خلفه بقوة اهتزت لها مباني المنطقة.
وتقدم المتظاهرون،
وتقهقر الجنود.
تقهقروا بشكل مدروس لم يدركه أغلب المتظاهرين الذين وجدوا أنفسهم فجأة في فخ أمام قوات الأمن التي أطلقت عليهم قنابل الغاز المسيل للدموع بغزارة لتلهب العيون والصدور.
ورغم ذلك استمر تقدم المتظاهرين،
ووصلوا إلى كوبري قصر النيل.. المعبر المباشر إلى ميدان التحرير على الضفة الأخرى لنهر النيل.
وازدادت قوات الأمن ضراوة في تعاملها مع المتظاهرين.
لم تعد قنابل الغاز تُجدي نفعاً، ولا خراطيم المياه القوية في برد الشتاء القارس.
فقد وقف الشباب يصلي العصر جماعة أمام مدرعات الأمن، ولم يأبه باندفاع المياه الباردة التي أغرقتهم.

وحينها انتقل الأمن إلى وسائل جديدة..
إطلاق الأعيرة النارية والخرطوش.

في البداية أطلقوها في الهواء لإرهاب المتظاهرين،
ولكن في هذا اليوم لم يكن هناك أي وجود للخوف في قلـوب هـؤلاء الـذين تقدموا، وتقدموا، وتقدموا.
وانطلق الرصاص الحي....
وأصاب أهدافه.
وأمام عينيها الذاهلة سقط شاب وآخر وثالث،
إصابات مختلفة...لكنها مباشرة،
وقاتلة.
لم تدر كم مر عليها من وقـت وهـي تـرى مـدرعات الأمـن المركـزي تتقـدم وتتقهقر لتدهس بعض الشباب تحت عجلاتها.
صرخت وصرخت حتى بُح صوتها.
كم تمنـت أن تفيـق مـن هـذا الكـابوس لتجـد نفسـها في أي مكـان ويـدها مستكينة في راحة (رأفت) فقط،
لكن (رأفت) نفسه لم يكن هناك.
بحثت عنه بهلع بين الوجوه الملطخة بالدماء،
وبين الشباب الذي ارتدى كمامات الجراحة لتخفيف أثر الغاز الخانق،
ولم تره.
بحثت عن غطاء رأسه المميز، وبحثت عن علمه المعلق على ظهره،
لكنها لم تجده.
بحثت عن (مازن)،
عن (معاذ) الذي تتذكر ملامحه بالكاد،
لكنها لم تجد أي منهما...
ومع اقتراب المغرب، انسحبت القوات،
وتدفق المتظاهرون إلى الميدان، وبداخل كل منهم جرح قوي،

إن لم يكن جرحاً جسدياً من طلقات الخرطوش والرصاص وهراوات الأمن، فهناك الجرح النفسي، وما أقساه عليها وما....

قطع ذكرياتها صوت (رنيم) المبحوح وهي تقول بلكنتها الظريفة:
ـ"هيي.. سرحتي فين؟ بصي الصوت برا أهدى دلوقتي.. أنا هخرج أشوف الطريق واشاورلك عشان تحصليني ونرجع الميدان تدوري على خطيبك وأنا أشوف فين اخويا".
وقبل أن تعترض (منار) كانت (رنيم) تتسلل في حذر خارج المبنى، وليتها لم تخرج.

***

العاشرة مساء

العريش

جلس على طرف فراشه يهز ساقه في توتر وهو يضرب أرقام منزله في القاهرة إلى أن أتاه صوت والده من الطرف الثاني يقول في لهفة لم يستطع إخفائها:
ـ"ألو..(سيف)"؟
أجابه (سيف) في سرعة:
ـ"أيوة يا بابا.. إزاي حضرتك وماما؟ (منار) رجعت ولا لسة"؟
تنهد الأب في عمق وأجابه بتوتر:
ـ"لسة يا حبيبي.. طمنني عنك انت... إيه الأخبار عندكم؟ البلد هنا بتولع يا (سيف)".
اختنق صوت (سيف) وهو يجيبه برجفة ظهرت واضحة في صوته:

ـ"البلد رايحة على مصيبة يا بابا... أنا بينضـرب عليا أر بي جي هنا... زمـيلي القذيفة كسرت الشباك فوق راسه وانفجرت في الحـمام... إحنـا في حـرب يـا بابا".

وكأنما أشعلت كلماتـه فتيـل التـوتر إلى الـذروة في كيـان الأب الـذي هتـف متحفزاً:

ـ"أر بي جي؟ مين اللي بيضربه عليكم وليه يا ابني؟ هـي إسرائيـل هاجمـت رفح؟"

خلل (سـيف) شـعره الأسـود النـاعم بأصـابعه في تـوتر وهـو يقـول بـنفس الصوت المرتجف:

ـ"أنا مش في رفـح يـا بابـا.. أنـا في العـريش مـن أول الأسـبوع. والبـدو هنـا عاملين ثورة علينا.. بيحرقوا الاقسام وعربيـات البـوليس. والجديـد النهـاردة الأر بي جي... أنا بطلع مناوبات على البرج زي العسـاكر يـا بابـا. ربنـا يسـتر وما يكونش اللي بيحصل دا بداية غزو إسرائيلي بجد".

شعر الرجل بالأرض تميـد تحـت قدميـه، فاسـتند إلى طـرف المقعـد المجـاور للهاتف وهو يقول بصوت حاول أن يجعله أعلى من دقات قلبه الواجفة:

ـ"يارب لطفك... يارب لطفك".

هم (سيف) بأن يقول شيئاً مـا، لكنـه سرعـان مـا غـير رأيـه وهـو يقـول في سرعة:

ـ"بابا أنا مش هعرف أكلمك تاني.. رصيدي خلص تقريباً وشحن الموبيل كمان. مضطر أقفل الخط دلوقتي وهابقى أطمنكم بعدين.. ادعيلنا يا بابا".

قالها وهو ينهي الاتصال بالفعل ويلتفـت بعينيـه إلى زميلـه بالغرفـة الـذي غطى الشاش الأبيض رأسه بعد إصابته في اشتباكات الصباح.

ومن أعماقه إنطلقت زفرة قوية...

زفرة من لا يعرف أين الصواب

***

منتصف الليل

ميدان التحرير

أسند رأسه في وهن إلى جدار إحدى البنايات في شارع جانبي يبعد قليلاً عن شارع محمد محمود ومقر الجامعة الأمريكية الذي احتله القناصة ليتصيدوا من فوقه ضحاياهم بطلقاتهم القاتلة.

كان واثقاً من كونهم قناصة، لأن أغلب الشهداء حوله كانت إصاباتهم مباشرة.. إما الرأس أو العنق أو القلب.

وهذا ما أثار دهشته.

فإذا كانوا قناصة على هذه الدرجة من المهارة، كيف أخطأته طلقاتهم لتصيبه في ذراعه الأيسر بدلاً من قلبه؟

تحسس حقيبته التي يرتديها بشكل مائل ليطمئن لوجود الكاميرا الإحترافية التي يستخدمها بها، ثم نزع نظارته الطبية التي أصبحت عدساتها شبه معتمة بفعل الغاز وما تعرض له من مياه وأتربة هذا اليوم ليضعها هي الأخرى في جراب صلب بحقيبته وهو يلهث من هذا المجهود البسيط.

التقط أنفاسه وعاد يضع كفه الأيمن على موضع الطلقة الذي أغرقته دمائه الدافئة في محاولة يائسة لإيقاف النزيف وهو يهذي بداخله أن القناص ربما أخطأه لأنه جائع، أو لأن دخان قنابل الغاز المسيلة للدموع التي تغلف الميدان وجد طريقه إلى القناص فأدمع عينيه و....

غاب لحظتها عن الوعي وهو يشعر بنفسه يهوي في بئر سحيق لا قرار له تصاحبه صورة (منار) المبتسمة في آخر مرة قابلها هذا الصباح عند كوبري قصر النيل.

وكما أظلم عقله فجأة، عاد إلى العمل بصورة جزئية وهو يرى صوراً مشوشة لوجوه لا يعرفها ويسمع أصواتاً متداخلة ميز منها صوتاً واحداً.. (معاذ)

جاهد ليفتح عينيه ويحاول التركيز فيما أمامه، ليرى من يظنه معاذاً ينحني ويضع ذراعه السليم على رقبته ويعاونه على النهوض هاتفاً بحماس وصوت متهالك:

ـ"يالا يا (رأفت).. شد حيلك معايا.. الدكاترة هناك أهه. يالا حاول تمشي على رجليك عشان نروح لهم".

تسند (رأفت) على جسد (معاذ) الرياضي_ إن لم يكن ألقى بثقله كاملاً عليه_ وهو يجر قدميه جراً وكأنما فقد طاقته كلها مع ما فقده من دماء.

ورغم ذلك كان (معاذ) هو من يجره بالفعل إلى جانبه وهو يحاول الجري بأقصى سرعة حتى يصل إلى زملائه الأطباء الذين أقاموا مستشفى ميدانياً بدائياً في شارع جانبي آخر.

وكما شعر (رأفت) بسرعة (معاذ) وهو يحاول إسعافه، شعر أيضاً بالأرض تقترب وتستقبل كليهما بصدمة قوية جعلته يتأوه متألماً، ويكون آخر عهده بالوعي صرخة (معاذ) المدوية "عيني!!"

***

عادت الأصوات بغتة لتخترق سمعه ففتح عينيه في سرعة وهو يدير رأسه فيما حوله ليستكشف أين هو...

وما إن وقع بصره على ما حوله حتى عقد حاجبيه في شدة وشعور قوي بالرغبة في الصراخ تجتاحه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

فحوله في هذا المكان الضيق، تكدس شباب وفتيات يتلقون علاجاً بدائياً للإصابات التي غزت أجسادهم البريئة وأسالت دمائهم الطاهرة، ما بين إصابات باختناق إلى طلقات الخرطوش إلى الرصاص الحي،

إصابات في الرأس والوجه والعنق والصدر والذراعين والساقين،
هؤلاء كانوا أصحاب الحظ الأوفر هذا اليوم،
لأن هناك من لم يحالفهم الحظ، وجاءت إصاباتهم أقوى من أن يتم إسعافها لتصعد أرواحهم الزكية إلى بارئها.
بحث بعينيه عن أي من أصدقائه أو زملائه أو أي شخص يعرفه.
بحث عن (مازن)، وبحث عن (معاذ)،
وبحث عنها...
حبيبته وزوجته، (منار).
لم يلتفت لجرح ذراعه الأيسر الذي غطته ضمادة بدائية لوثتها الدماء ثانية،
ولم يلتفت للألم الذي يضرب ذراعه وصولاً إلى أعمق خلايا مخه.
لم يأبه لذلك كله وهو يجاهد بحثاً عن صوته المبحوح لينادي بكل ما تبقى في جسده المنهك من قوة..
(منار)... (مازن)... (معاذ)
لم يأته رد من أي منهم فعاود النداء بصوت أعلى، وهو يتحامل على نفسه وينهض ليسير بين المصابين باحثاً بعينيه عن أي منهم
ظل ينادي إلى أن أوشك على فقدان الأمل...
حينما رآها.
قلبه أنبأه أنها هي،
لكن عينيه لم تقتنعا بسهولة.
فأمامه كانت (منار) تستند بظهرها إلى الحائط دون أي تعابير على وجهها الشاحب.
كانت أشبه بالأموات بنظرتها الشاخصة الخالية من لمعة عينيها المحببة.
اقترب منها في لهفة وركع على ركبتيه أمامها وهو يربت على وجهها بكفه الأيمن قائلاً بجزع:

ـ"(منار).. (منار) حبيبتي أنا (رأفت).. (منار) بُصيلي".
لم يبد عليها أي تأثر بحديثه، فعاد يربت على وجهها برفق وهو يناديها بصوت مختنق:
ـ"(منار).. مالك؟ عملو فيكي إيه؟ ردي عليا أبوس ايدك... (منار)".
أذهله تخشبها أمامه، حتى حينما أجبرها على النظر في عينيه... لم تشعر به على الإطلاق فهتف يستنجد بأي من المسعفين في انهيار:
ـ"يا اخواننا حد يشوف مالها... مراتي مش بترد عليا. مين اللي جابها هنا طيب؟ إيه اللي عمل فيها كدا؟"
قالها وهو يواصل محاولة إعادتها إلى عالمه بشتى الطرق، حينما اقتربت منه مسعفة شابة ركعت إلى جانبه لتفحصها سريعاً قبل أن تقول له في أسف:
ـ" حالتها زي ما هي من ساعة ما جابوها... واحد من الشباب جابها من تلات ساعات وقال إنها مخنوقة من الغاز.. لقاها مسورقة ورا جامع عمر مكرم وجنبها جثة بنت تانية. فتقريباً هي عندها صدمة عصبية. ما دامت مراتك خدها من هنا.. روحوا بيتكم ووديها الصبح لدكتور نفساني يشوفها. إحنا هنا بنسعف الإصابات الجسدية مش النفسية".
حدق في وجه المسعفة للحظات يحاول استيعاب ما قالته قبل أن يعود بوجهه إلى (منار) ويقترب منه هامساً:
ـ"(منار)..لو حاسة بيا ارمشي بعينك.. اضغطي ايدي.. اعملي أي حاجة.. حسسيني إنك عايشة".
لكنها لم تحرك ساكناً.
حينها التفت إلى المسعفة التي كانت على وشك النهوض ليسألها في لهفة:
ـ"لحظة لو سمحتي... الدكتور الشاب اللي جابني هنا فين؟ دكتور (معاذ)".
عقدت الفتاة حاجبيها قائلة في حيرة:

ـ"دكتور شاب جابك؟ اللي جابك راجل كبير.. سابك هنا وخرج جاب شاب كمان وخرج.. هو بيشوف المصابين ويجيبهم هنا، بس ربنا يستر عليه هو".
سألها بنفس اللهفة:
ـ"طيب فين الشاب اللي جابه الراجل دا بعدي؟ ممكن يكون (معاذ) اللي باسأل عليه".
دارت بعينيها بين المصابين، ثم ما لبثت أن نهضت لترى بوضوح أكثر قبل أن تشير إلى شخص ما قائلة:
ـ"أعتقد هو دا... شوف كدا. أنا مضطرة أشوف باقي المصابين... اتعامل انت بقى".
تحامل على قبضته اليمنى المضمومة لينهض إلى الاتجاه الذي أشارت إليه المسعفة بحثاً عن (معاذ)،
ووجده،
وليته لم يجده.

***

فجر ٢٩ يناير

استند على كتف مصاب آخر وهو يدخل المستشفى الميداني يحجل على ساقه اليسرى بينما رفع قدمه الأخرى المصابة عن الأرض كيلا يضغط عليها.
ما إن رآهما أحد المسعفين الشباب حتى هرع إليهما وهو يقدّر بعينيه أي الإصابتين أكثر خطورة، فالأول كان مصاباً بطلقة خرطوش اخترقت ذراعه الأيمن الذي سالت دماؤه، بينما كان الثاني مصاباً بطلقة رصاص في فخذه الأيمن الذي ربطه برباط عنق قاتم فوق موضع الإصابة لتقليل النزيف.
اختار المسعف المصاب في ذراعه لكثرة خرزات الخرطوش به، وبالتالي كثرة الثقوب التي تسيل منها الدماء،

أما الآخر فتلقفه مسعف ثانٍ ساعده في الجلوس على طاولة طبية بدائية وشق بنطاله طولياً حتى موضع الإصابة التي لم تكن عميقة لحسن الحظ. فالرصاصة لم تستقر باللحم وإنما اكتفت بترك توقيعها ممهوراً على لحم فخذه.

نظف الجرح سريعاً وضمده بعناية قبل أن يرفع وجهه للمصاب قائلاً بشكل روتيني:

ـ"ياريت ما تمشيش عليها كتير عشان ما يحصلش التهاب. ولو هتروّح خُد أي مسكن ومضاد للالتهاب".

أومأ المصاب برأسه متفهماً وهو يدور بعينيه في المكان وينزل عن الطاولة الطبية لمصاب جديد.

هاله العدد الكبير للمصابين داخل المكان المحدود الذي حوله المتطوعون إلى مستشفى ميداني بدائي، وبحث بعينيه عله يجد أياً ممن يعرفهم.

والتقطت عيناه وجهاً مألوفاً...

شاحب قليلاً عما اعتاده لكنه لا يزال مألوفاً،

اقترب قدر ما سمحت به إصابة فخذه لينتبه إلى الشخص الآخر الجالس مديراً له ظهره فهمس في اهتمام:

ـ"(رأفت)؟ مالها (منار)؟"

وكغريق يتعلق بقشة، قفز (رأفت) واقفاً ليحتضنه هاتفاً بلهفة:

ـ"(مازن)؟ الحمد لله إنك كويس. انت تهت مننا بعد صلاة العصر ـ عالكوبري وكل واحد فينا راح في اتجاه".

احتضنه (مازن) بقوة وهو يشعر بالارتياح لأن صديقه بخير ولم يسقط مع من سقطوا على كوبري قصر النيل أو أمام مجمع التحرير، أو من دهستهم السيارة البيضاء ذات لوحة الأرقام الدبلوماسية.

ثم ما لبث أن أبعده لينظر إلى ذراعه المصاب قائلاً بقلق:

ـ"إيه اللي حصل لدراعك؟"
ابتسم (رأفت) في مرارة وهو يشير إلى فخذ (مازن) المصابة قائلاً:
ـ"نفس اللي حصل لرجلك. بس الحمد لله إحنا أحسن من غيرنا".
أشار (مازن) إلى (منار) قائلاً في حيرة:
ـ"هي (منار) مالها؟ هي اتصابت ولا إيه؟"
هز (رأفت) رأسه نفياً وهو يجيبه بنفس المرارة:
ـ"بالعكس... سليمة تماماً... هي جالها اختناق من الغاز صحيح بس خلاص دلوقتي اتحسنت. لكن الدكتورة اللي شافتها قالت لي إنهم لقيوها مسورقة وجنبها جثة بنت تانية.. تفتكر تكون شافتهم بيقتلوها فجالها صدمة عصبية؟"
اتسعت عينا (مازن) في هلع وهو يدير رأسه في سرعة لينظر إلى (منار) الشاردة عن العالم وعقله يصور له أن تكون (علا) في نفس موضعها.
هز رأسه في عنف لينفض الفكرة وهو يعود ببصره إلى (رأفت) متسائلاً:
ـ"ومحدش عالجها؟ بيتهيألي الصدمة العصبية دي اللي بيضربوا فيها المريض بالقلم فيفوق ويرجع لوعيه".
اتسعت عينا (رأفت) هذه المرة وهو يقول مستنكراً:
ـ"يضربوها بالقلم؟ دا أنا كنت قطعت إيد اللي يهوب ناحيتها".
هتف به (مازن) في ضيق:
ـ"يا بني دا علاج. عاجبك حالتها دي؟ افرض حالتها اتدهورت اذا فضلت كدا كتير؟ طيب اضربها انت و..".
هتف (رأفت) وهو يشيح بذراعه السليمة:
ـ"انت بتقول إيه يا (مازن)؟ ما تهونش عليا طبعاً ولا عمري أقدر ألمسها أو أذيها".
دفعه (مازن) في كتفه بضجر قائلاً:

ـ"خلاص خدها وروّحها لأهلها.. ما تنساش إنها أمانة في رقبتك. انت خدتها سليمة ترجعها سليمة. والحمد لله أهي لسه صاغ سليم."
حدق فيه (رأفت) للحظات وكأن الحل الذي قاله (مازن) لم يدر بخلده من قبل، فتشبث بذراع صديقه قائلاً:
ـ"الله ينور عليك... خدها دلوقتي ورجعها لأهلها، وبالمرة اتطمن على (علا) و (مودي)".
أزاح (مازن) ذراعه قائلاً باستنكار:
ـ"لا والله؟! بقى أنا اللي اسيب الميدان وأروّح مراتك وحضرتك تفضل هنا؟ انت خايف من حماك ولا إيه؟"
قال (رأفت) في سرعة:
ـ"يا سيدي لا خايف ولا حاجة. بس منطقياً أنا ممكن لما افوق اطلع برا أساعد في إنقاذ المصابين وأجيبهم يتعالجوا. لكن انت متصاب في رجلك، وتقدر برضه تبقى مفيد وتوصل (منار) وتتطمن على مراتك. آخر حاجة سمعتها من شوية إن الاقسام ولعت.. يعني البلطجية ماشيين في الشوارع عيني عينك. وحسب معلوماتي فيه قسم شرطة قريب من بيت (علا). خليك اعمل فيها بطل هنا وسيب مراتك وأخوها هناك، ويا عالم جرى لهم إيه ومفيش حد يستنجدوا بيه طول ما شبكات المحمول عطلانة".
عقد (مازن) حاجبيه في قوة وتصاعدت دماء الغضب في رأسه وهو يتخيل أن يكون مكروهاً قد أصاب زوجته وأخيها الصغير، حتى أنه ضغط فكيه بشدة دون أن يدري وهو يرفع بصره إلى (رأفت) قائلاً من بين أسنانه:
ـ"الكلاب بينفذوا الخطة اللي سمعت عنها من شهرين. كانوا ناويين لما الريس ينجح في الانتخابات ويتنازل لابنه عن الرئاسة يفتحوا السجون ويطلقوا البلطجية عشان الناس تتلهي ومحدش يفتح بوؤه ويعترض على التوريث".

اتسعت عينا (رأفت) وهو يسأله في ذهول:

ـ"يعني انت كنت عارف بالمخطط دا؟"

زفر (مازن) في قوة وأجابه وهو يدير بصره بين المصابين قائلاً:

ـ"سمعت طراطيش كلام.. مش مؤكدة يعني. يومها قلت دول أبالسة مش بني ادمين. الله يخرب بيوتهم وينتقم منهم شر انتقام. شوف حواليك كام مصاب. دا غير اللي استشهدوا بالرصاص والخرطوش، واللي اتهرسوا تحت عربيات الأمن المركزي والعربية الدبلوماسية البيضا. حسبي الله ونعم الوكيل. أنا في حياتي كلها عمري ما اتخيلت أشوف يوم زي دا. ربنا عالظالم والمفتري".

قالها وهو ينتبه إلى نقطة غابت عن ذهنه، فالتفت إلى (رأفت) يسأله باهتمام:

ـ"ما شفتش (معاذ) صحيح؟ من ساعة ما غطى وشه بكمامة دكتور الأسنان محدش عارف يكلمه."

قالها وهو يضع كفه الأيمن على قلبه قائلاً بتوجس:

ـ"خايف يكون جراله حاجة زي الشباب اللي راح برا.. الجدع دا لو جراله حاجة هيوجع قلبي بجد."

هبطت عبارة (مازن) كحمل ثقيل على قلب (رأفت) الذي شعر وكأن قبضة باردة تعتصره، فتظاهر بالنظر إلى (منار) وهو يقول بصوت جاهد ليجعله محايداً:

ــ"لا مشفتوش.. يمكن في مستشفى ميداني تاني ولا حاجة. يمكن راح مستشفى القصر العيني. ما انت عارف إنه دكتور وعادي ممكن...".

ثم ما لبث أن قطع عبارته ليقول مغيراً دفة الحديث:

ـ"قلت إيه بقى؟ هتاخد (منار) تروّحها ولا إيه؟"

لكزه (مازن) في كتفه السليم قائلاً في غيظ طفولي:

ـ" يا ساتر عليك وعلى زنك. تشغل بالي على مراتي عشان أوصّل لـك مراتـك. المشكلة يا عم المفتح إني أصلاً مش هقدر أمشـي لوحدي.. لازم أسـند عـلى حد عشان كفي اليمين مش هعرف امسك بيه عصاية. ولو مسـكت عصـاية في ايدي الشمال هتبقـى زي قلتهـا. ولـو السـما انطبقـت عـلى الأرض مـش هاسند على مراتك... انت عايز مراتي تدبحني؟ وبعدين..".

قاطعه (رأفت) بإشارة من كفه قائلاً بسخرية:

ـ"مراتك مين يا بابا؟ مكانتش هتلحقك لإني كنت هدبحك قبلها. قـال تسـند على مراتي قال. انت صدقت انك كازانوفا؟ يالا قدامي أنا هوصلكم للعربية. اسـند عليـا لحـد بيـت والـدك وطلـع عربيتـك مـن الجـراچ ومـع السـلامة. وأخدها أنا كعابي تاني لهنا. بس ربنا يستر وأوصل سليم".

ارتسمت ابتسامة نصر على وجه (مازن) المنهـك وهـو يعـدل ياقـة قميصـه قائلاً:

ـ"أيوة لازم أمشـي في موكـب رسـمي. عمومـاً دبابـات ومـدرعات الجـيش نزلت الشوارع الرئيسية. الشاب اللي جه معايا قاللي كدا. بيتهيألي الجـو بـرا بقى أهدى دلوقتي... إحنا داخلين عالفجر".

انحنـى (رأفـت) ليتنـاول ذراعـي (منـار) ويحملهـا عـلى النهـوض، وهـي استجابت له في ميكانيكية غريبة كالمنومة مغناطيسياً.

نظر لها في حسرة على ما أصـابها وهـو يتخيـل أن تفقـد ابتسـامتها الشـقية التي كانت أول ما علّق قلبه بحبها، ثم عاد ينظـر إلى (مـازن) قـائلاً بصـوت مختنق:

ـ" يالا بينا".

وحينما استند إليه (مازن) ليخرجوا سوياً من المستشفى الميداني، حمـد اللـه في سره أن (مازن) لم ينظر خلفه، وإلا لأوجعه قلبه حقاً على (معاذ).

***

فتحت باب شقتها في لهفة حينما رأت صورة ابنتها عبر العين السحرية، لكن ملامح ابنتها الذاهلة جعلت البسمة تتجمد على وجهها وهي تنظر باستفهام إلى (مازن) الذي وقف بعيداً عن الباب في حرج قائلاً:

ـ"(منار) سليمة والله يا فندم. هي بس عندها صدمة عصبية من اللي شافته. أنا و (رأفت) قلنا الأفضل إنها تروّح البيت وترتاح يمكن أعصابها تهدى و..".

قاطعه خروج والدها المهيب من غرفة المكتب وهو يسأله بصوت صارم:

ـ" وفين الأفندي اللي اسمه جوزها؟ يكتب كتابه امبارح وياخدها معاه مظاهرة كان ممكن تموت فيها؟ هي دي الأمانة؟ ياخد بنات الناس يعرضهم للخطر؟ طبعاً ملوش عين يوريني وشه بعد اللي حصل".

احتقن وجه (مازن) في شدة أمام حدة الرجل المشهور بلباقته، فخفض وجهه وهو يلتمس له العذر وقال من بين أسنانه:

ـ"حضرتك إحنا نزلنا مظاهرة سلمية ومحدش فينا معاه سلاح، والمفروض التعامل معانا كان يبقى على مستوى سلمية المظاهرات. بس للأسف انضربنا بالغاز والخرطوش والرصاص الحي. أنا انضربت في رجلي و (رأفت) انضرب في دراعه وشباب كتير متعلم ومثقف راح في الرجلين. عموماً بنت حضرتك وصلت سليمة الحمد لله، وأنا كدا عملت اللي عليا. بعد إذنكم".

قالها وهو يتحامل على درابزين السلم وينزل بأقصى سرعة سمحت بها إصابته.

أما والدة (منار) فأوصدت الباب خلفه وهي تلتفت إلى ابنتها الصامتة وتصحبها إلى غرفتها مكتفية بتوجيه نظرة صامتة إلى زوجها الذي ظل ثابتاً في مكانه للحظات قبل أن يتبعهما إلى غرفة ابنته الوحيدة.

أجلستها والدتها على طرف الفراش وهي تتأملها بعينين ذاهلتين.

فبغض النظر عن شحوب وجه ابنتها ونظرتها الشاخصة، كانت سترتها الشتوية ملطخة بالدماء حتى أنها تحسستها برعب بحثاً عن أية ثقوب من إصابات الرصاص وهي تسألها بقلق:

ـ" (منار)... ردي على ماما يا بنتي. انتي ساكتة ليه؟ شفتي إيه وعمل فيكي كدا؟"

ومن خلفها، اقترب الأب ليركع أمام ابنته ويحيط وجنتها بكفه قائلاً في حنان:

ـ"نونا... أنا بابا. ردي على بابا حبيبك. مالك يا عيون بابا؟"

ولدهشته فقد تدفقت دموعها غزيرة تغرق كفه ووجهها الذي أخفته في عنقه وهي تنتحب في قوة مزقت نياط قلبه وقلب والدتها التي سالت دموعها هي الأخرى وهي تشعر بمدى معاناة ابنتها التي لم تكن البسمة تفارق وجهها.

ظلت (منار) على وضعها وبكائها لدقائق طويلة قبل أن يهدأ تنفسها ويشعر والدها بثقل رأسها على كتفه، فاعتدل ليعدل وضعها على فراشها ويدثرها ووالدتها بغطاء ثقيل ويتركا الغرفة.

كان بداخل كل منهما كماً هائلاً من التساؤلات التي يدركان أن إجابتها ليست لديهما، وإنما لدى (منار) أو خطيبها أو ربما (سيف).. ابنهما الوحيد.

غير أن الأم لم تستطع الجلوس صامتة فاتجهت إلى الهاتف الأرضي وضغطت أرقامه في سرعة ليأتيها صوت نسائي ملهوف على الطرف الآخر يقول:

ـ"ألو... مين؟"

أجابتها بهدوء:

ـ"أنا (ماجدة) يا (نبيلة)... (لميس) صاحية؟"

هتفت شقيقتها بصوت مختنق:

ـ"(لميس) في القصر العيني من امبارح يا (ماجدة) ومش عارفـة أوصـل لهـا. خايفة تكون نزلت المظاهرات هي كمان. (منار) رجعت ولا لسة؟"
ازدردت لعابها الجاف وهي تقول:
ـ"جات من شوية... جوز صاحبتها (عـلا) جابهـا وروّح يـتطمن عـلى مراتـه. المشكلة البنت ما بتنطقش يا (نبيلة)... لا بتصد ولا بترد... مفيش غـير إنهـا اترمت في حضن أبوها وفضلت تعيط لحد ما نامت. بـس منطقـتش بحـرف ولا حتى قالت آه. حاسة إنها شافت مصـيبة وهـي السـبب في الـلي عنـدها دا".
عقدت (نبيلة) حاجبيها في قلق حقيقي قائلة:
ـ" استر يارب على بناتنا. اللي شفته امبارح عالجزيرة والعربية والبـي بي سي يخوّف يا (ماجدة)، والتلفزيون بتاعنا يقـول مفـيش حاجـة وجايـب صـورة للكورنيش فـاضي. الفضـائيات هـي الـلي قالـت عـلى حريـق الاقسـام. الـلي بيحصل دا أكيد متدبر قبل كدا، مش حاجة عشوائية".
خبطت (ماجدة) فخذها بكفها في توتر هاتفة بصوت مختنق:
ـ"يارب سلم ولادنا يارب. يارب استر على ابني يارب. أنا معنـديش غـيرهم.. البنت راجعة عندها انهيار والولد محبوس في العريش والبدو بيصطادوهم. يارب متسيئنيش فيهم يارب".
سألتها شقيقتها في توتر:
ـ" هو (سيف) كلمكو امبارح؟"
هزت رأسها وهي تقول من بين دموعها التي فرت هاربة من مقلتيها:
ـ"كلم أبوه وقال له إن البدو بيضـربوا علـيهم صـواريخ. الولـد كـان خـلاص شوية وينهار في التلفون. ألاقيها منين ولا منين بـس. اسـتغفر اللـه العظـيم. يارب هونها علينا".
هدأتها شقيقتها وهي لا تستطيع منع قلبها من الاضطراب قائلة:

ـ"خير يا حبيبتي بإذن الله... استغفري ربنا وقومي ريحي شوية على ما تيجي (لميس)، وهخليها تطلع لك على طول تطّمن على (منار)".

** ** **

(٥)

السبت ٢٩ يناير

السابعة صباحاً

تأوهت وهي تعدل من وضع عنقها المؤلم بعد أن غفت عيناها بردهة منزلها وهي تحتضن (مودي) على الأريكة. وما إن فتحت عينيها حتى أسرعت بتناول جهاز التحكم عن بُعد وضغطته لتظهر إحدى القنوات الفضائية الإخبارية وهي تنقل صوراً حية لما يحدث في ميادين ومدن مصر المختلفة منذ اليوم السابق.

وبعينين مذعورتين تابعت صور ألسنة اللهب المتصاعدة من مقار الحزب الحاكم في ميدان التحرير ومدن أخرى، ومن أقسام الشرطة التي ظلت مشتعلة طيلة الليل.

حانت منها التفاتة لساعة الحائط لتجدها لم تتجاوز السابعة صباحاً بعد، أي أنها لم تغفُ سوى لأقل من ساعة منذ صباح اليوم السابق.

وبحنان ورفق بالغين حملت أخيها مدثراً بغطاءه الصوفي لتضعه في فراشه بعيداً عن صوت التلفاز ورائحة الدخان التي تملأ ردهة المنزل منذ اشتعال قسم الشرطة المجاور لمنزلهم.

خرجت من الغرفة حينما تناهى إلى مسامعها صوت طرقات خفيفة على باب الشقة ففزعت وهي تتساءل في داخلها عمن يطرق بابها في هذا الوقت.

وبيد مرتجفة التقطت سكيناً رفيعاً من طبق الفاكهة الموضوع على طاولة السفرة، وباليد الأخرى تناولت زجاجة معطر مضغوطة وهي تتجه نحو الباب هامسة:

ـ"مين؟"

لدهشتها أتاها صوت (مازن) من خلف الباب يقول بحذر:
ـ"أنا (مازن) يا (علا). افتحي".
همت بفتح الباب في لهفة لولا أن تذكرت تحذيراً سابقًا منه، فهتفت بصوت مهزوز:
ـ"قول كلمة السر الأول".
تسللت البسمة إلى شفتيه ووجهه المنهك وهو يجيبها قائلاً:
ـ"أربعة احداشر ألفين وعشرة".
تنهدت بارتياح وهي تفتح مزاليج الباب الواحد تلو الآخر حتى انزاح الباب وبدا خلفه (مازن) بهيئة مزرية وشعر أشعث وملامح متهالكة.
ما إن التقت عيناها بعينيه حتى تلاشت كل قوتها التي كانت تتظاهر بها منذ تركها، وتدافعت الدموع غزيرة إلى عينيها وهي تفلت ما بيديها لتتهاوى أرضاً وصوت نحيبها يعلو بشكل مؤلم كطفل ضل طريقه عن سنده وحمايته.
أما (مازن)، فما إن لمح الدموع تتكون بمقلتيها وشفتها السفلى تتقوس كالأطفال حتى هرع لداخل المنزل وهو يغلق الباب بقدمه ليلحق بها قبل أن تصل إلى الأرض.
ولدهشته فقد كانت ترتجف كالمحمومة وهي تهذي من بين دموعها بكلمات لم يفهم منها سوى عدة مقاطع متفرقة:
ـ "سبتني ليه يا (مازن)؟ ليه؟ إيه اللي بيحصل؟ ماتوا... قتلوهم قدامي... غاز... الغاز كتير وال... الحرايق... ولعوا في القسم.. والدخان خنقني..و..".
احتواها بحنان وهو يهمس في أذنها:
ـ"ششششش... بس يا (علا) اهدي مش كدا. حبيبتي عشان خاطري".
تشبثت به أكثر وهي لا تزال ترتجف في ذعر وتهذي بصوت متقطع:
ـ"البلطجية يا (مازن)... بيهجموا عالاقسام والبيوت... هيموتونا يا (مازن)".

ضمها بقوة وهو يخفي وجهه في عنقها وكأنه يلتمس فيه راحته بعد كل ما عاشه خلال الأيام الماضية.

وبشكل تلقائي، وجد نفسه يسند ظهره إلى الجدار وينزلق عليه ليجلس أرضاً ويجذبها معه وهي لا تزال تتشبث به ولا تعي ما حولها من شدة الانهيار.

ولنصف ساعة أو يزيد، ظل (مازن) على وضعه مفترشاً أرضية الردهة الباردة و(علا) تخفي وجهها في صدره الذي أغرقته دموعها، حتى شعر بثقل رأسها على صدره وأيقن أنها استسلمت للنوم كالأطفال بعد أن ينهكهم طول البكاء.

حينها لم يتمالك نفسه وهو يسمح لأصابعه بأن تداعب خصلات شعرها الذهبي الذي اشتاق لملمسه ورائحته... ليس شعرها فحسب، فقد اشتاق لها كلها...لبسمتها ورقتها، وحتى لحظات غضبها المجنون التي كانت آخر عهده بها.

وبابتسامة متهالكة على تناقض وضعهما الآن مع لقائهما الأخير خفض وجهه ليدس أنفه في شعرها ويملأ رئتيه بالهواء الذي يحمل رائحتها، وهو يطبع قبلاته المتناثرة على شعرها وكأنما يتأكد حقاً أنها له ومعه ولم تبتعد عنه.

لم يدر كم مر من الوقت ولا كيف مر عليهما، لكنه يتذكر أنه انتفض مستيقظاً على شعوره بانتفاضة (علا) القوية التي جعلت رأسها يصدم وجهه.

أما هي، فلا تذكر سوى غفوتها على صدر زوجها بعدما بثتها رؤيته طمأنينة غريبة أرخت أعصابها المشدودة، قبل أن تشعر فجأة وكأنها تهوي من ارتفاع شاهق فانتفضت في قوة لتجد نفسها على آخر وضع تتذكره... بين ذراعي (مازن).

ما أثار دهشته في اللحظة التالية كانت تلك الحمرة الرهيبة التي اجتاحتها، حتى كاد أن يشعر بسخونة جسدها تتزايد وهي تبتعد عنه في حرج وتلعثم.

لوهلة أوشك أن يجذبها ثانية إلى وضعها السابق، لكنه سرعان ما تعامل بخبث معها وهو يضع كفه على فكه بألم مصطنع قائلاً:

ـ"أاااه...حرام عليكي كسرتي فكي".

كادت تصدقه وهي تشهق في حرج وتمد أصابعها لتفحصه ببراءة وأسف حقيقي، قبل أن تلمح لمعة الخبث في عينيه فتراجعت وهبت واقفة لتقول بلهجة محايدة:

ـ"آسفة مقصدتش أخبطك. قوم من عالارض، السيراميك بارد والدنيا برد وممكن تتعب".

شعر بخيبة أمل لردها العادي فرفع حاجبيه بحركة لا إرادية ومد كفه الأيسر لها قائلاً:

ـ"طب قوميني معاكي.. التعب حل وخلاص جسمي كله مفكك".

كانت واثقة أنه يستطيع النهوض وحده، لكن شيئاً ما تحرك بداخلها فجأة ليجعلها تمد ذراعيها نحوه وتحكم قبضتيها الرقيقتين على مرفقيه وهي تجذبه بكل ما تبقى فيها من قوة ليقف بالفعل ويطالعها بحب دفين تجاهلته وهي تستدير مبتعدة لولا أن صدرت عنه آهة مكتومة.

كادت تتجاهل آهته لكنها عادت تنظر إليه وهي تقول:

ـ"بطّل دلع".

لكن دهشتها بلغت الذروة حينما خرج صوته متألماً بالفعل وهو يتحامل على ساقه اليسرى ويغلق عينيه بقوة قائلاً من بين أسنانه:

ـ"والله ما بتدلع... آاااااه".

قالها وكفه اليسرى تبحث عن حافة طاولة السفرة ليستند عليها ويحافظ على اتزانه.

حينها فقط أمعنت النظر فيه لتفلت شهقة قوية حينما رأت الدماء تلوث فخذه الأيمن وبنطاله المشقوق حتى منتصف الفخذ وتظهر من خلفه ضمادة طبية بدائية تتوسطها بقعة دماء قانية لا تحتاج ذكاءً باهراً لتفهم ماهيتها.

وبحركة لا إرادية وجدت نفسها تمسك كفه الأيسر في قوة لا تناسب رقتها وتضعه على كتفها قائلة بهلع:

ـ"اسند عليا... إيه اللي حصل؟ انت اتضربت بالنار"؟

حاول ألا يلقي بثقله على جسدها النحيل واكتفى بقربها منه وهو يحجل على ساقه السليمة ليصل إلى الأريكة وينهار عليها في إرهاق قائلاً:

ـ"الحمد لله بسيطة. بس المشكلة إنها في رجلي المصابة قبل كدا".

ركعت على ركبتيها أمامه وهي تحرك كفيها بتوتر أمام وجهها وتقول بجزع:

ـ"ازاي اتضربت؟؟ هو كان فيه رصاص حي بجد؟ هو...".

اقترب بجذعه نحوها وأمسك كفيها ليهدئها قائلاً:

ـ"متخافيش يا (علا). الإصابة مش جامدة. الرصاصة ما استقرتش في رجلي الحمد لله. وكمان مكنتش أنا المقصود بيها. القناص كان بيضرب اللي جمبي وفي الزحمة جات الطلقة فيا.. فالحمد لله تقريباً سطحية".

اتسعت عيناها هلعاً وهي تقول بذعر:

ـ"قناص؟ قناص إيه في مظاهرة؟ وليه أصلاً؟ إحنا فين؟ أنا خلاص مش قادرة اصدق اللي بيحصل.. مش..".

قاطعها وهو يشدد قبضته على كفيها ويقول مهدئاً:

ـ"ششش... مش وقته. أنا مش حاسس بجسمي كله و..".

قاطعته هي هذه المرة وهي تنهض قائلة بحزم:

ـ"قوم.. قوم غيّر هدومك دي وخد دُش دافي على ما أجهز لك حاجة تاكلها".

ابتسمت عيناه بإرهاق وهو يقول موضحاً:

ـ"دُش إيه ورجلي متصابة؟ الجرح هيتلوث".

هزت رأسها نفياً وهي تقول بنفس الحزم:

ـ"هربط عليه كيس بلاستيك الأول. وبعدين أصلاً لازم تغير الضمادة دي لإنها خلاص اتوسخت.. يالا قوم قدامي".

قالتها وهي تستغل وجود كفيها بين كفيه لتجذبه ويقف أمامها وتساعده في الوصول إلى الحمام، قبل أن تتركه وتسرع لإحضار كيس بلاستيكي كبير شقته طولياً وربطته بإحكام حول ضمادة فخذه كيلا تتسرب إليها مياه الاستحمام.

كان يتابع ملامحها الجادة وهي تتحرك حوله وتجهز له الحمام وكأنها (علا) ثانية تختلف عن تلك التي انهارت بين ذراعيه قبل قليل.

حينما همت بالخروج من الحمام، امسك معصمها القريب منه قائلاً بخفوت:

ـ"رايحة فين؟"

التفتت إليه تجيبه في براءة:

ـ"هروح أجيب لك غيار من جوا".

لكنه حينما سألها بنفس الصوت الخافت "مش هتساعديني؟" كان ردها وكزة من قبضتها الحرة في كتفه الأيسر وهي تقول بحنق:

ـ"ارحم نفسك.. تعبان إيه وعنيك فيها الخبث دا؟"

كتم ضحكته وهو يفرد أصابع كفه اليمنى في وجهها قائلاً:

ـ"يا لطيف.. هتحسديني. خلاص هتعامل لوحدي".

جذبت معصمها من قبضته وهي تغمغم في سخط بينما أغلق هو باب الحمام ضاحكاً وبداخله دهشة عارمة من تحول شخصيتها في أقل من شهر إلى شخصية جديدة تماماً.
شخصية أكثر إثارة.

***

فوجئت به يخرج من الحمام مرتدياً معطف الحمام القطني فقط وهو يجفف شعره المبلل بمنشفة صغيرة فهتفت به في دهشة:
ـ"ازاي تخرج كدا من الحمام؟ ملبستش البيجامة ليه؟"
أشار إلى فخذه المصابة قائلاً:
ـ"عشان أغيّر عالجرح. لو سمحتي هاتيلي قطن وشاش و..".
قاطعته بإشارة من كفها قائلة بثقة:
ـ"عارفة هاجيب إيه.. اقعد انت بس وأنا هتصرف".
وتحت نظراته المشتاقة، تحركت في خفة كالفراشة وهي تحضر صندوق الإسعافات الأولية من صيدلية الحمام وجلست أمامه ترتدي قفازاً طبياً مطاطياً قائلة بثبات:
ـ"ارفع رجلك عالكرسي دا وياريت ما تتحركش حتى لو المطهر حرقك".
عقد حاجبيه قائلاً:
ـ"هو انتي اللي هتغيري عالجرح ولا إيه؟"
رمقته بنظرة هادئة قبل أن تجيبه:
ـ"تفتكر انت تقدر تغير عليه بوضعك دا؟ ارفع رجلك يا (مازن) لو سمحت وما تتحركش لحد ما اخلص".
استجاب لها واستسلم تماماً لأصابعها الرقيقة وهي تزيل الضمادة الملوثة بالدماء وتعيد تطهير الجرح الغائر وتضميده بمهارة ربما أفضل من مهارة

طالب الطب الذي ضمده له في أحد الشوارع الجانبية المجاورة لميدان التحرير.

والغريب أنه لم يشعر بألم وخز المطهر على الجرح المفتوح، ربما لأن عينيه كانتا معلقتين بحبيبته الرقيقة التي يراها اليوم في صورة مختلفة تماماً عما اعتاد عليه.

أما (علا)، فكانت أكثر دهشة من ثباتها وهي ترى جرحه وهي التي كانت تشعر بالغثيان من قبل لرؤية الدماء.

لا تنكر أن تجربتها الأخيرة غيرت فيها الكثير، بل ربما غيرتها ١٨٠ درجة.

لكن أن تتعامل مع جرح طلق ناري بهذا الثبات، ناهيك عن كون المصاب زوجها...

يا إلهي... لقد تغيرت حقاً

ما إن أنهت تضميد الجرح حتى لفت انتباهها خط طولي غائر بطول فخذه جعلها تتلمسه بأناملها في حذر وهي تخمن أنه بسبب حادثه القديم الذي كلمها عنه من قبل.

كانت شاردة وهي تتبع الجرح القديم الغائر من فوق ركبته مباشرة إلى ما فوق الطلق الناري بقليل، إلى أن شعرت بأصابع (مازن) تقبض على معصمها الأيمن وترفعه بالقرب من وجهه وبيده الأخرى يخلع القفاز الطبي عن كفها الرقيق.

لوهلة ظلت تحدق فيه بشرود وكأنها غائبة عن هذا العالم، إلى أن شعرت بدفء أنفاسه على كفها وهو يقبله بامتنان عميق هامسًا:

ـ"تسلم ايديكي.. عملتيه أحسن من الدكتور".

انتابتها قشعريرة قوية جعلتها تهب من جلستها وتجذب كفها من بين أصابعه وهي تهتف دون وعي:

ـ"إحنا لسه متخاصمين على فكرة".

عقد حاجبيه وهو يحاول تذكر سبب هـذا الخصـام الـذي تزعمـه؛ فحسـب ذاكرته، ما بينهما ليس خصاماً وإنما طلب للطلاق. فمن أيـن أتـت بموضـوع الخصام؟

وكأنما قرأت تساؤله في عينيه فوضعت كفيها في خاصرتها وهي تقلب شفتها السفلى كالأطفال وتقول بغيظ:

ـ"نسيت كلمتني ازاي عالموبيل آخر مرة؟ كأني بكلمك أشحت منك".

رفع حاجبيه بعدما تذكر مكالمتهما الأخيرة، وتذكر سبب غضـبه منهـا وقتهـا فقال مبرراً:

ـ" لا والله!! عايزياني أقول لك إيه وانتـي بتتصـلي تسـأليني عـلى (حمـزة)؟ كيس جوافة أنا؟ أي راجل حمِش مش بعيد يطين عيشة مراته عـلى الحركـة دي".

أشاحت بذراعيها وهي تدافع عن نفسها بحدة قائلة:

ـ" أنا مكنتش بسألك لنفسي. مراته اتصـلت تسـألني وأنـا اتصـلت اسـألك. لكن أسلوبك في الرد ساعتها زي ما تكون بتقولي اخلصي هاتي اللي عندك".

أنزل ساقه المصابة عن المقعد في قوة آلمته لكنـه تجاهـل الألم وهـو يسـألها بنفس الحدة:

ـ"وتسألك عـن جوزهـا ليـه أصـلاً؟ سـايب معـاكي جـدول بتحركاتـه؟ كانـت اتصلت بيا على طول بدل رأس الرجاء الصالح بتاعتها دي".

عادت تضع كفيها في خاصرتها وهي تقول بغيظ:

ـ" نعم؟ وتتصل بيك ليه إن شاء الله؟ يعني زعلان إنها اتصلت على زميلتهـا ومرات صاحب جوزها لكن عادي عندك إنها تكلم راجل غريب عنها. واللـه عال".

حدق في وجهها الغاضب المحتقن للحظات قبل أن ينفجر ضاحكاً بطريقة زادت من غضبها وجعلتها تسأله من بين أسنانها:

ـ" ممكن اعرف بتضحك على إيه؟؟؟ شايف أراجوز؟"

نهض متحاملاً على ذراعي المقعد واقترب بوجهه من وجهها هامساً بخبث وهو يحرك حاجبيه:

ـ"عشان طلعتي بتغيري يا بيبي".

شهقت بخفة مستنكرة كلماته، ثم مالبثت أن ابتعدت عن مجال جاذبيته وهي تغير مجرى الحديث قائلة بسخرية:

ـ" والله انت فايق ورايق... إحنا في إيه ولا في إيه؟ اتفضل الأكل على ترابيزة السفرة. أكيد ما أكلتش من أمبارح".

قالتها وهي تتركه متجهة إلى غرفتها، لكنها أوقفها في سرعة وكفه يلمس أطراف أصابعها قائلاً بلهجته المغناطيسية:

ـ"مش هتاكلي معايا؟ أكيد انتي كمان ما أكلتيش من أمبارح".

التفتت إليه وهمت بالرفض لولا أن رأته يعقد ذراعيه أمام صدره ويستدرك قائلاً بإصرار:

ـ"على فكرة لو ماكلتيش معايا مش واكل. وابقي عيشي بذنبي بقى إني مُت من النزيف والجوع عشان مراتي رفضت تاكل معايا".

قالها وهو يهم بالعودة للجلوس على المقعد ثانية وكأن الأمر لا يعنيه، فتراجعت قائلة بسرعة:

ـ"خلاص خلاص هآكل معاك... بس لو سمحت البس هدومك عشان متقولش ذنبي انك بردت كمان".

منحها ابتسامته السينمائية التي تخلب لبها وهو يقول بكل نعومة:

ـ"حاضر".

***

على مائدة الطعام_ بعد أن أتم ارتداء ملابسه_ كان يشعر بغصة تمنعه من ابتلاع الطعام، ناهيك عن تناوله من الأساس.

فأمام عينيه كانت مشاهد لم يتخيل يوماً رؤيتها في بلاده، أو بالأحرى بين أبناء بلاده.

مشاهد ضرب همجي وقنابل غاز وهجوم بطلقات الخرطوش على أغلب المسيرات السلمية التي كانت تحاول الاقتراب من ميدان التحرير.

كانت أشبه بحرب أهلية بين مواطنين عُزل خرجوا ليطالبوا بحقهم وحق أبنائهم في الحرية والتغيير، ليقابلهم إخوان لهم بطلقات الرصاص الحي تنفيذاً لأوامر كلاب السلطة.

رأى بعينيه شباباً في عمر الزهور يسقطون أمامه بطلقات الخرطوش التي لم تفرق بين كبير وصغير وانطلقت تحصد أرواحهم.

رأى آخرين تضيع أجسادهم تحت عجلات سيارات الأمن المركزي التي تسير بهستيرية محاولة اختراق الصفوف.

اختنق مع رفاقه برائحة الغاز التي زكمت أنوفهم وأحرقت صدورهم وأدمعت أعينهم

لكن عينيه ذرفتا الدماء بدلاً من الدموع وهو يرى رفاقه يتساقطون حوله بعد أن يومض ضوءاً أحمر على جباههم... ضوء بنادق القناصة.

كان يتلفت حوله في هستيرية عله يلمح من فقد قلبه وإنسانيته ليطلق النار بدم بارد على أخوة له من هذا الوطن، أو حتى أخوة في الإنسانية.

كان يحاول أن يلمح ضوء بندقيته ليحذر من يتربص به الموت.

كان يحاول أن ينقذ أخوة له لم يرهم من قبل، وجمعهم الإيمان بنبل القضية...

حينما ظهر هو..

شاب مصري شهم، يحمل ملامحًا فرعونية بشعر أجعد وملامح نيلية سمراء وبيده كاميرا تصوير حديثة.

فوجئ بهذا الشاب يدفعه أرضاً ليبعده عن مرمى قناص آخر وتطيش رصاصته.

لم تطش تماماً، وإنما أصابته في طرف فخذه الأيمن.

وكأنما أضاف هذا المصور سبباً جديداً كي يكرهه القناص... بل القناصان

فقد انطلقت رصاصتا الغدر من بندقيتيهما في وقت واحد لتصيبه الأولى في صدره وتخترق الثانية جبهته ليخر صريعاً في مكانه.

كل هذا في أقل من الثانية، وقبل أن يفتح (مازن) فمه ليشكر الشاب على حمايته.

كاد ينهار أمام جثمان الشهيد وهو يشم رائحة المسك تفوح من دمه.

لم يكن الشهيد الأول الذي يُسلم روحه أمامه هذا اليوم،

لكنه كان مميزاً..

ربما لأنه أنقذه من الموت،

وربما لأنه كان مبتسماً.

حتى بعد وفاته، ظلت ابتسامته محفورة على ملامحه المصرية، وكأنما هي ابتسامة سعادة بما ينتظره في جنان الخلد.

وربما كانت ابتسامة شماتة فيمن ظنوا أنهم قتلوه، بينما هو في الحقيقة حي عند ربه، وفي مكانة أفضل من الدنيا الفانية.

لحظتها بكى من أعماقه..

بكى كما لم يفعل من قبل،

ربما أكثر مما بكى حين علم بوفاة صديق عمره في حادث سيارة.

بكى شعوره بالهوان وهو يناضل من أجل بلاده التي لا يستفيد من خيرها سوى الصفوة الحاكمة،
وياليتها كانت صفوة.
فهؤلاء ال...

انتفض على لمسة (علا) الحانية لكفه الراقد على المائدة، والتي أخرجته من سيل مشاعره الجارف الذي اتضح في لمعان الدموع بمآقيه واختناق صوته الذي حاول التخلص منه وهو يتنحنح بقوة قائلاً:
ـ" نعم يا (علا)"؟
حملت عيناها تعاطفها العميق معه ومع ما لمحته في عينيه من صراع عنيف يعكس ما تعتمل به نفسه، فقالت بصوتها الرقيق وهي تربت على كفه:
ـ"ما تسرحش... اللي شفته مش هيروح من عنيك دلوقتي. كمّل أكلك عشان تقوم ترتاح".
حرك كفه ليحتضن كفها بداخله هامساً:
ـ"لما كلمتيني يوم الخميس كانوا لسه معتقلين (حمزة) من وسطنا. كنت أنا وهو و (رأفت) و (معاذ) خارجين من كافيه قريب من الجورنال. جالي اتصال الأول من مدام الدكتور (مصطفى) بتقول لي إن ناس من أمن الدولة جوله البيت وخدوه معاهم بكل هدوء وبدون إبداء أسباب. مجرد ما قفلت معاها وبحكي للشباب فوجئنا بعربية ميكروباس وقفت قدامنا والباب الجانبي بيتفتح ويطلع منه ناس شدت (حمزة) من وسطنا. واللي حاول فينا يمنعهم انضرب بعصيان مكهربة".
ثم تنهد بعمق وهو يتابع بشرود:

ـ" بعـدها انتـي اتصـلتي، ومكنـتش عـارف أقـول لـك إيـه... إن الـدكتور (مصطفى) اتحبس، ولا إن اللي مراته بتسأل عنه هو كمان مخطوف. آسف يا (علا).. سامحيني".

ربتت على كفه بكفها الثانية وهي تقول بضيق:

ـ" لما قلتلي معرفتش هكلم (راندا) إزاي ولا هقولها إيـه. وهـي يـا حبيبتـي خدت مني الخبر وبلمت.. مانطقتش. شكرتني وقفلت الخط".

تنهد في عمق وهو يسألها:

ـ"مكلمتيهاش بعد كدا تطمني عليها؟ يمكن هي أو ابنها يحتاجوا حاجة".

هزت رأسها نفياً وهي تجيبه:

ـ" كلمتها قبل ما أنام كان موبيلها مقفول. وشبكات المحمول اتقطعـت مـن الصبح. ومش معايا رقم الأرضي".

لمحت الدهشة في عينيه فتابعت موضحة:

ـ"(راندا) كانت زميلتي في الكلية والتـدريب زمـان.. مـش أصـحاب يعنـي. وبعد ما هي اتجوزت استاذ (حمزة) علاقتي بيها شبه اتقطعت".

هز رأسه متفهماً ثم ما لبث أن زفر بقوة قائلاً:

ـ"استغفر الله العظيم... نكدوا عالواد يوم فرحه".

عقدت حاجبيها تنتظر توضيحاً منه، فأردف قائلاً:

ـ" انتي عرفتي إن (رأفت) كتـب كتابـه عـلى (منـار) يـوم الخمـيس؟ فجـأة كلمني الضهر وقال لي أجهز نفسي عشان اشـهد عـلى عقـد جـوازه. اتقابلنـا ورحت معاه بيت أهل (منار) وكتبنا الكتاب بعد صـلاة العــصر. مسـتعجل حضـرته عالقفص. قال إيه عشان لما تنـزل مظـاهرات الجمعـة معـاه تبقـى مراته".

أومأت برأسها قائلة بضيق:

ـ" أيوه (منار) كلمتني وكانت عاوزاني أروح لها بس مقدرتش. جـوزي كـان حالف ما انزلش من البيت".

ابتسم رغماً عنه وهو يقترب بوجهه منها هامساً:

ـ" جوزك كان خايف عليكي. وعموماً متعوضة في الفرح إن شاء الله".

ارتبكت من قربه فسحبت كفيها بهدوء وهي تتهرب قائلة:

ـ" انت جيت ازاي؟"

أدرك محاولتها فتظاهر بتناول الطعام وهو يجيبها ببساطة:

ـ"بعربيتي. كنت سايبها في جراج البيت ولما الجيش نزل الشوارع وسـمعت إن الاقسـام بتتحـرق وفيـه بلطجيـة بيهـاجموا البيـوت الشـيطان لعـب في دماغي. فقررت أجي اتطمن عليكم بأي شـكل. مشـيت للبيـت في الزمالـك وركبت العربية وجيت على هنا".

اتسعت عيناها بقوة وهي تهتف به:

ـ"مشيت للزمالك برجلك دي؟ الحمد لله دمك ما اتصفاش".

لاحت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يهدئها قائلاً:

ـ" يا حبيبتي اللي بيفرق الزمالك عن التحرير كـوبري قصــر النيـل. مـش في آخر الدنيا يعني".

صاحت معترضة:

ـ" يعني هو البيت قدام الكوبري؟ ما أكيد مشيت جوا الزمالك شوية. انـت بتنتقم من جسمك؟ وترجع كمان تسوق العربية ورجلك مصابة. حرام الـلي بتعمله دا يا (مازن)".

عقد حاجبيه من لهجتها الحادة، فتنهدت قبل أن تسأله في تردد:

ـ" شفت (رأفت) و (منار) في التحرير"؟

أجابها بهدوء:

ـ" أيوه اتقابلنا. وعلى فكرة (منار) كانت معايا ووصلتها لبيت أهلها قبل ما أجي هنا".

ارتسمت الغيرة على وجهها للحظات قبل أن تسأله بخفوت:

ـ"(رأفت) جراله حاجة؟"

أجابها وهو يحاول النهوض من المائدة:

ـ" انضرب رصاصة في دراعه الشمال. و(منار) جالها اختناق من الغاز، بس الحمد لله هو دلوقتي كويس وأصّر يفضل في الميدان. وطلب مني أوصل (منار) لبيتها في طريقي. وأعتقد دا موقف أي واحد في مكاني كان حيعمله".

تلونت وجنتاها قليلاً من الحرج وهي تقول في سرعة:

ـ" طبعاً.. محدش يقدر يقول حاجة. مش هتقوم ترتاح شوية قبل الإعصار (مودي) ما يصحى وما تتهناش عالنوم؟"

ضحك على وصف أخيها بالإعصار وهو يقول:

ـ"طيب أنا هنام جمب الإعصار لانه وحشني فعلاً. وياريت تبقي معانا. عاوز أنام وأنا متطمن إن كلنا سوا".

وكان هذا أكثر ما تخشاه.

***

استلقت على جانبها الأيسر- على غير عادتها- إلى جانبه وهي تحاول عبثاً السيطرة على دقات قلبها المجنونة من قربه.

وازداد ت دقاته جنوناً وتصلب جسدها حينما شعرت بذراعه اليمنى تحاصرها بينها وبين ضلوعه وسمعت همسه الدافئ بالقرب من أذنها:

ـ"متخافيش... أنا تعبان ومحتاج أنام".

حينها فقط حاولت أن ترخي عضلاتها المشدودة وهي تتذكر إصراره على أن ينام ثلاثتهم سوياً ودهشته من نومها على جانبها الأيسر، والذي تحججت بأنه محاولة منها ألا تلمس جرحه عرضاً.

لكن الحقيقة لم تكن كذلك.

فقد كانت تهرب بعنف من ذكرياتها معه.

ذكرياتها التي كانت ستنهال حتماً على مخيلتها حالما تخفي وجهها في صدره كما اعتادت وتنصت إلى دقات قلبه.

لذا تحججت بجرحه كي تنام وظهرها إليه ولا تحاصرها دقات قلبه التي اشتاقت لسماعها.

ولكن هيهات..

فقد تسللت رائحته المميزة إلى أنفها دون استئذان وجعلتها تهيم معها بعيداً، مع ذكرى المرة الأولى التي اقتربت منه إلى هذه الدرجة..

المرة الأولى التي نامت فيها بين ذراعيه

كانت في مستهل شهر العسل- أو بالأحرى أسبوع العسل- والذي بدآه في شرم الشيخ كأي عروسين... لكنهما اصطحبا (مودي) معهما.

يومها، بينما جلست تتأمل ضحكات (مودي) الصاخبة وهو يلعب مع زوجها، لفت انتباهها طفلتين... أو للدقة توأمتين.. لتشعر بقبضة باردة تعتصر قلبها وصداع يكتنف رأسها مع طوفان ذكريات قديم أبى أن يتركها تنعم بتلك اللحظة.

فقد مر أمام عينيها شريط طفولتها السابقة وذكرى نصفها الآخر الذي لم يفارقها طيلة النصف الأول من حياتها، حتى اختطفه الموت.

في تلك الليلة، أفرجت عيناها عن الكثير من الدموع أمامه، وباحت له بالكثير من ماضيها وماضي (عنان)، توأمتها التي فاضت روحها بسبب

جرعة مخدر جراحي زائدة، والتي كانت وفاتها سبباً في تغير شخصيتها تماماً من تلك الفتاة المشاغبة المنطلقة إلى شخصية هي أقرب ما تكون لشخصية (عنان) الوديعة المسالمة.. كانت تظن بعقلها الصغير أن مثل هذا التحول سيقلل من حزن والدتها على الفقيدة، لكنها كانت مخطئة. فقد آثرت والدتها اللحاق بالراحلة بعد عام على وفاتها، وتركتها وحيدة مع والدها بشخصيتها الجديدة الهادئة.

في تلك الليلة، شعرت معه بتقارب جديد، دغدغ مشاعرها وأزال العديد من الحواجز الوهمية التي كانت تضعها بينهما، وهما يحتسيان الكاكاو الساخن في شرفة جناحهما في سكون ليل الشتاء..

لكن يدها الخرقاء اهتزت مع اختلاجة قلبها أمام نظراته الدافئة، لتسكب الكوب بمحتواه على فخذ زوجها المسكين.

فزعت لصرخة الألم التي غادرت حلقة بغتة وهو يهب واقفاً لينفض السائل الساخن عن ملابسه، وارتبكت لا تدري ماذا تفعل وهي تلعن بداخلها تصرفاتها البلهاء التي تأتي في غير الوقت المناسب على الاطلاق. لكنه لم يفقد نبراته الدافئة ونظراته الحنون وهو يهمس مطمئناً أمام عينيها، غير أن شرطه الوحيد للعفو عما حاق بملابسه من دمار كان مبيتها إلى جانبه.. بين ذراعيه وقلبه، ولم تملك رفضاً.

ولأول مرة تركته يحتويها بين ذراعيه لتريح رأسها بالقرب من دقات قلبه وتنعم بدفئه وحنانه و....

وبشكل غريزي، استدارت بين أحلامها لتواجهه وتخفي وجهها بين طيات ملابسه لتشعر بالسكينة بعد أن عادت أخيراً إلى مأواها.

قلب حبيبها الوحيد.

***

أراح جسده المنهك على الفراش إلى جانب (مودي) وهـو ينتظـر أتسـتجيب لطلبه أم لا.
واستجابت على مضض وهي تستلقي إلى جواره بتحفـز واضـح ازداد حيـنما أحاطها بذراعه كيلا تهرب منه.
فقد كان يحاصرها ليضمن بقائها بقربه لا يفصلها عنه شيء.
يريد أن يعوض افتقاده وشوقه البالغين، ويريـد أن يشـعر بالسـكينة التـي غابت عنه منذ تركها.
كان يريدها كزوجة نعم، لكنه يحتاجها نفسياً أكثر من حاجته الجسدية.
لذا كان يكفيه أن يضع ذراعه حول جسدها الضـئيل الـذي أحكمـت حولـه معطفها المنزلي الثقيل بحجة اتقاء البرد، بينما هي تتقيه هو شخصياً.
كان يكفيه أن يزرع وجهه في شعرها لعل رائحته المحببـة تعيـد إليـه بعضـاً من الذكريات الجميلة بدلاً من الصور المزعجة التي تطارد مخيلتـه وعكـرت عليه غفوته السابقة.
ولم يخب رجاؤه.
فما إن طمأن زوجته بأنه لن يلمسها واسـترخت إلى جانبـه وتسـللت رائحـة شعرها إلى أنفه حتى تـدافعت إليـه ذكريـات عذبـة رسـمت البسـمة عـلى شفتيه وهو يدس أنفه أكثر في شعرها ويعود إلى بداية زواجهما..
إلى المرة الأولى التي ذابت فيها بين ذراعيه.

كان ذلك في اليوم السابق لعودتهما من شرم الشيخ، وكانا قد عادا للتـو مـن رحلة بحرية والسعادة تطفر من وجوه ثلاثتهم. لكنه فوجئ بعدوه اللـدود (فتحي النشار) يستفزه بتهديد خفي بإيذاء أسرته الجديدة مالم يتوقف عن فضح فساد شركاته وصلته بنظام الحكم.

ورغم أنه كال ل(النشار) ما يستحق من كلمات لاذعة تثبت قوة حجته وموقفه أمام ضعف حجة ذلك الفاسد، فقد شعر بالدماء تغلي في رأسه من مجرد فكرة تجرؤه على التهديد بإيذاء زوجته و(مودي).

لذا ما إن دخل جناحهما بالفندق حتى ركل الطاولة الصغيرة بغيظ بعيداً عن طريقه وهو يتذمر بكلمات غاضبة بترتها صرخة زوجته المتألمة بعدما ارتطمت ركبتها بالطاولة عند خروجها من الحمام..

وجاءته الفرصة الذهبية ليدلك ركبتها المصابة ويتفحص بدقة رسوم الحناء التي زينت كاحليها وارتفعت بأناقة وإغراء لتختفي تحت معطف الاستحمام القطني. آخر اهتماماته في تلك اللحظة كانت ركبتها المصابة، فمنذ لمح تلك الرسوم وهو يجاهد نفسه ألا يفلت أصابعه ليتحسسها كل رسم على حدة.

لا يدر ما السحر الذي تمثله له نقوش الحناء، لكنها على ساق فاتنته كانت سحراً فرعونياً لا يملك فك طلاسمه كهنة آمون أنفسهم. لذا هام به محاولاً كشف شفرته وأنامله تطوف فوقه برشاقة عازف بيانو يستكشف آلته التي سيعزف عليها أعذب الألحان.

لكنه سرعان ما اجتُث من عالمه الساحر حينما شعر براحتها على كفه وسمع صوتها يشكره بارتباك.

كان قد وقع صريع فتنتها الرقيقة في تلك اللحظات، بوجنتيها الورديتين- لا يدر بفعل الحمام الدافئ أم بفعل خجلها المستمر مع كل حركة يفعلها بالقرب منها- ورائحتها الرقيقة التي تنبعث من شعرها المبلل وبشرتها الندية. اقترب أكثر يتلمس خصلات شعرها الذهبية وتشممها هامساً:

ـ"مكنتش بحب ريحة الزهور... لكن من يوم الحنة لما شميتها عليكي بقيت أسيرها.. ولما نمتي في حضني امبارح أدمنتها".

شعر بتصاعد نبضات قلبها وتزايد أنفاسها مع اقترابه، حتى بدا أنها لم

تسمع بقية غزلـه الهـامس وهـو يخـدرها بعينيـه ويقـترب أكـثر ليتحسـس وجهها الندي الذي صار أشبه بشعلة متوهجة.

أما هو فكان يصارع أحاسيسًا جديدة مجنونة لم تدغدغ مشاعره في زواجـه السابق.

كان كالمسحور الذي يرى أنثى للمرة الأولى، وهو يطلق سراح أنامله لتلمس خصلات شعرها وتداعب حرير خدها ثم تتحسس شـفتيها الـورديتين بولـه، حتى فقد شـعوره بالزمـان والمكـان تقريبـاً وهـو ينهـل مـن شـهدها للمـرة الأولى.

كان يتمنى لو تظل هائمة معه إلى الأبد لولا أنها دفعتـه بعيـدًا عنهـا فجـأة وهي تُحكم ياقة المعطف القطني حول جسدها المرتجف، وتـزيح خصـلات شعرها خلف أذنها في ارتباك.

حـاول الاقـتراب ثانيـة في إصرار عكسـته عينـاه الناعسـتان اللتـان تحولـت نظراتهما فجأة إلى نظرة رجل يريد امرأتـه. لكنـه فـوجئ بهـا تـدير وجههـا بعيدًا كيلا يكرر فعلته.

أقنع نفسه أنها تفعل ذلـك مدفوعـة بخجلهـا الفطـري الـذي لم يعرفـه مـع زوجته الأولى الأمريكية، فأدار وجهها إليـه مسـتخدمًا أقـوى نظراتـه تـأثيراً، والتي لم تخيب أمله وأتت مفعولها سريعًا في استسلام (علا) له، ليصحبها في رحلة أخرى خارج حدود مداركها، وربما خارج حدود مجرتها.

لكن شيئاً ما أعادهـا إلى وعيهـا، لتـتملص مـن بـين ذراعيـه هامسـة برجـاء خفيض أن يتوقف.

كاد أن يسـيء فهمهـا وشـتى الظنـون تتقاذفـه بينهـا، حتـى أنـه لم يقتنـع بجملتها الخجول أن عذراً شرعياً يمنعها عنه ، واتهمها بأنها لم تقتنع به زوجـاً بعد.

لكنها ركزت نظراتها في حدقتيه قائلة بصدق إنها لم تكن لتقبـل الـزواج مـن

أي رجل بهذه السرعة مالم يكن له مكانة خاصة في حياتها.
لم يبد عليه الإقتناع بحديثها، فطالبته فجأة بتعويض لائق على اصابته لركبتها.
تعجب من تغييرها المباغت للموضوع، لكن عجبه زال تماماً ورحب بتقديم التعويض راضياً حينما اكتشف أنه نفس التعويض الذي قدمته هي له بالأمس...

شعر بها تستدير وسط أحلامها لتدس وجهها في صدره كعادتها، فابتسم وهو يختلس من الزمن دقيقة يستعيد فيها حلاوة رحيقها الذي افتقده، قبل أن يشدد من احتضانه لها ويغوص بدوره في بئر من النوم العميق.

***

تململت في فراشها بكسل وهي تفتح عينيها ببطء تتأمل سقف غرفتها وشعور غريب بالسعادة يجتاحها بعد أن كان أميرها ضيفاً محل ترحيب طيلة نومها، حتى أنها كانت تشعر بأنفاسه الدافئة تداعب وجهها وشعرها بينما لا تلتقط أذناها سوى صوت دقات قلبه، ولا تشم أنفها سوى رائحته التي اشتاقت لها في يقظتها لتزورها في أحلامها وتعوض قليلاً من شوقها إليه.
لوهلة ظلت تتأمل السقف بابتسامة حالمة وكأنها تتذكر أحداث الحلم، قبل أن تتقلب في فراشها بدلال ليسقط نظرها على الوسادة المجاورة وتتذكر فجأة أن ما حدث لم يكن حلماً.
قفزت من فراشها في هلع لتفتح باب غرفتها وهي تهتف بجزع:
ـ"(مودي).. انت فين؟"
التفت (مازن) إليها ورمقها بنظرة تحمل ضيقاً واضحاً وهو يقول باقتضاب:
ـ"متخافيش.. (مودي) بيلعب قدامك، مخطفتوش".

شحب وجهها وشعرت بالحرج من عبارته فقالت بارتباك:

ـ"أنا مقولتش كدا.. أصله أحياناً بيلعب في المطبخ وأنا نايمة. فخفت يكون بوّظ حاجة و..".

ثم بترت عبارتها لتسأله بدهشة:

ـ" انت صحيت امتى؟ الساعة لسه مجاتش اتنين ونص".

أجابها بهدوء وهو يتابع نشرة الأخبار على إحدى القنوات الفضائية الأجنبية:

ـ"الإعصار صحاني الساعة احداشر. مكانش مصدق إني نايم جنبه فصحاني يتأكد".

خللت شعرها بأصابعها لتعيد ترتيبه من أثر النوم في اللحظة التي قفز فيه (مودي) تاركاً قطاره اللعبة ليتجه إليها هاتفاً بسعادة طفولية:

ـ"(علا) شفتي (مازن) رجع من السفر وكان نايم معايا. أنا شفته وكنت بحلم، ولما بُسته طلع حقيقي".

ابتسمت في حنان وهي تنحني أمامه وتداعب شعره قائلة:

ـ" أيوه حقيقي. جه وانت نايم".

تقافز الصغير أمامها وهو يقول بطفولية:

ـ"أيوة واتفقنا مش هيسافر تاني".

رفعت عينيها إلى (مازن) الذي تشاغل بالعمل على حاسوبه قبل أن تعود ببصرها إلى أخيها قائلة:

ـ" طيب تعالى نفطر الأول زي الشاطرين".

تركها (مودي) وعاد إلى لعبته قائلاً:

ـ"خلاص فطرت".

لوحت بسبابتها قائلة في تحذير:

ـ" (مودي)... مش اتفقنا نسمع الكلام وناكل عشان نكبر؟"

قلب الصغير كفيه قائلاً ببراءة:

ـ" أنا كلت كوكوبوس وانتي نايمة".

عقدت حاجبيها قائلة:

ـ"كوكوبوس؟ إحنا معندناش كورن فليكس يا (مودي)".

أشار (مودي) إلى (مازن) قائلاً ببراءة:

ـ"(مازن) جابلي النهاردة".

أدارت وجهها إلى (مازن) لتسأله باهتمام:

ـ"انت جبت كورن فليكس ل (مودي)؟"

رفع بصره إليها قائلاً بعتاب:

ـ" إزاي الحاجة الوحيدة اللي بياكلها (مودي) تخلص ومتجيبيش جديد"؟

تلعثمت وهي تحرك ذراعيها قائلة:

ـ"مهو خلص يوم التلات الصبح وانت منعتني أنزل برا البيت و..".

قاطعها قائلاً بحزم:

ـ"لما حاجة تنقص في البيت تتصلي بيا وأنا أجيب لك كل اللي ناقص. لكن تسيبي الولد من غير الأكل اللي بيحبه أربع أيام مينفعش".

شعرت بدماء الحرج تحرق وجنتيها وهي تحاول الرد عليه بأي عبارة مناسبة، لتقفز أمامها العبارة الوحيدة الخطأ في هذا الوقت وهي تقول باندفاع:

ـ"أتصل بيك عشان تحرجني وتقول لي اخلصي؟ وبعدين أنا بعرف أمشّي أموري كويس، و(مودي) مكانش هيموت من غير الكورن فليكس. يتعود ياكل زي الناس العادية".

تأمل ارتجافتها العصبية وهي تهتف به فوضع الحاسب على المنضدة ونهض إليها قائلاً بنفس الحزم:

ـ"أنا لسه مسؤول عنك وعنه. وأي حاجة البيت يحتاجها أنا اللي مسؤول اشتريها. مفهوم"؟

أجفلت من صوته القوي لترفع إليه عينين خائفتين بينما أشار هو بسبابته في غضب إلى ملابسها قائلاً:

ـ"هو دا بقى اللي اتحججتي بالبرد عشان مشوفوش؟ لابسة هدوم الخروج تحت الروب ليه يا هانم؟"

نظرت إلى نفسها لتتذكر أنها لم تهندم معطفها المنزلي بعد استيقاظها لأنها خرجت مسرعة من قلقها على (مودي)، ليكشف بنطالها الجينز وبلوزتها الصوفية. فعادت تنظر إليه قائلة بتلعثم:

ـ"لما شفت في التلفزيون حرايق الأقسام وشميت ريحة الدخان خفت حاجة تحصل، فاضطريت البس هدومي ولبّست (مودي) كمان. وكنت لابسة الروب لإني فعلاً حسيت بالبرد من كتر الخوف".

عقد حاجبيه للحظات ثم مط شفتيه قائلاً:

ـ"افتكرتك كنتي ناوية تكسري كلامي."

هزت رأسها نفياً في خجل، ثم سألته بخفوت:

ـ"فطرت"؟

منحها ابتسامة جانبية وهو يجيبها:

ـ"أكلت كوكوبوس مع (مودي)... بس مفيش مانع أشرب معاكي نسكافيه قبل ما انزل".

عقدت حاجبيها وهي تسأله في دهشة:

ـ"تنزل فين تاني"؟

هز كتفيه قائلاً ببساطة:

ـ"الجرنال طبعاً... لازم يبقى فيه حد هناك يتابع الشغل. وبعدين فيه حاجات كتير حصلت النهاردة وأنا نايم.. الريس غيّر الحكومة وجاب أحمد شفيق بدل نظيف، وكمان عيّن عمر سليمان نائب رئيس".

فغرت فاها للحظة قبل أن تقول بدهشة:

ـ"انت بتتكلم جد؟ يعني خلاص كدا؟ الناس هتروّح بيوتها بقى والدنيا تر...".

قاطعها ساخراً:

ـ"خلاص إيه بس؟ انتي فاكرة إنه كدا حل المشكلة؟ هو بيحاول يهدّي الناس بس بعد اللي حصل امبارح مظنش القرارات الخايبة دي هتخيل علينا".

سألتها بتوجس:

ـ"يعني إيه؟"

أجابها بهدوء:

ـ"يعني احنا وراه لحد ما يسيب البلد زي زين العابدين في تونس كدا."

قالت باستياء:

ـ"وإيه لازمته بس؟ مهو كدا ولا كدا هيخلص مدته كمان ٦ شهور وكفاية اللي راحوا امبارح والرعب اللي شفناه".

عقد حاجبيه بغضب وهتف مستنكراً:

ـ"انتي اللي بتقولي كدا؟ أومال كنتي نازلة مظاهرات ٢٥ ليه؟ فاكراهم هيوزعوا بونبوني؟"

اختنق صوتها بالعبرات وصور قتلى الأمس تداهم عقلها لتقول بصوت متهدج:

ـ"مكنتش أعرف إنها هتوصل للقتل والدهس زي ما شفت امبارح. مكنتش أتخيل انها ممكن توصل لكدا".

أمسك كتفيها يهزها بقوة قائلاً:

ـ"المفروض اللي شفتيه امبارح في التلفزيون دا يخليكي مُصرة أكتر انه يرحل ويسيب البلد.. ولو بقت دي رغبتك قيراط فاللي حضروا امبارح وشافوا الموت بعنيهم رغبتهم يشوفوه على حبل مشنقة أربعة وعشرين قيراط".

تأملت الإصرار على وجهه بعينين دامعتين قبل أن تخفض وجهها أرضاً في صمت، وسمعته يُتبع بلهجة أقل حدة:

ـ" أنا هتابع العدد الجديد في الجرنال وبعدين أروح الميدان مع الشباب. وعموماً الموبيلات اشتغلت خلاص وهفضل على اتصال معاكي".

عادت تشعر بخوف غريزي انعكس على صوتها الباكي وهي تلمس ذراعه قائلة:

ـ"يعني برضه هتسيبني في الرعب دا تاني؟ أنا مخفتش من الحرايق قد ما خفت يجرالك حاجة في التحرير. وأديك اتجرحت في رجلك. ناقص يقتلوك؟"

رقت نظراته بتأثر وهو يلمس كفها على ذراعه قائلاً:

ـ"لو هشوف الخوف دا في عنيكي عشاني مستعد اتقتل مليون مرة".

شهقت في عنف وهي تجذب كفها قائلة بسرعة:

ـ"فال الله ولا فالك".

قالتها وهي تهرب منه إلى المطبخ لتجد أمامها على الطاولة عدداً من الأكياس البلاستيكية التي تحمل اسم سوبر ماركت شهير فعادت تسأله في دهشة:

ـ" إيه الأكياس دي؟ انت رحت السوبر ماركت"؟

اقترب مبتسماً وهو يجيبها:

ـ"أيوة طبعاً... يعني جبت الكورن فليكس منين؟ دا الماركت الوحيد اللي البلطجية منهبتوش وكويس إني لقيت فيه الحاجات اللي هنحتاجها. أنا

جبت حاجات تقضي لمدة شهر تقريباً. محدش عارف البلد ممكن يحصل فيها إيه".
عقدت حاجبيها وهمت بالاعتراض ليوقفها بإشارة من يده قائلاً بقوة:
ـ"مش عايز اعتراض لو سمحتي".
ثم أردف بابتسامة خبيثة:
ـ"هنشرب نسكافيه ولا إيه النظام؟"

***

الإسكندرية
الرابعة عصراً
ارتفع رنين هاتفها بنغمة مميزة كان قلبها يرتجف لها طرباً حتى قبل أسبوعين أو أكثر، لكنها اليوم أثارت بقلبها اختلاجة لا تعلم لها تفسيراً.
تناولت الهاتف من جيب معطفها تتأمل اسم المتصل يتراقص أمامها على شاشته، لكن غصة مؤلمة بحلقها منعتها أن تجيب الاتصال.
صمت الرنين لبرهة قبل أن يعود للارتفاع ثانية بنفس النغمة ونفس الاسم المتراقص، قبل أن تتخذ قرارها بحسم.
أجْلت حلقها من تلك الغصة ثم...
أنهت الاتصال.

** ** **

(٦)

الأحد ٣٠ يناير

الواحدة ظهراً

العريش

شعر باهتزاز هاتفه داخل سترته الرسمية، لكنه تجاهل الاهتزاز وهو يقف بثبات أمام رؤسائه بغرفة القائد في قطاع الأمن المركزي.

لم يكن وحده في حالة انتباه وغليان داخلي، بل كانت هذه الحالة السائدة وسط زملائه بعد تفجير مقر مباحث أمن الدولة في العريش في اليوم السابق.

لم يكن غضبه بسبب التفجير فحسب، وإنما بسبب الطريقة الوحشية التي قُتل بها جندي البوابة، والذي ذبحه المهاجم بلا رحمة، قبل أن يفجر المبنى.

عاد الاهتزاز يُخرجه عن تركيزه مع قادته الذين اجتمعوا للتحقيق مع الشاب البدوي المتهم بارتكاب التفجير، فأخرج الهاتف خلسة ليرى رقم خطيبته يومض على الشاشة برتابة. انتحى جانباً في أحد أركان الغرفة وعيناه لا تفارقان وجه المتهم الذي نافست ملامحه برودة الصحراء في يناير. أجاب الهاتف متوجساً من أي طارئ أصاب أخته الوحيدة، ليأتيه صوت (لميس) الملهوف على الطرف الآخر:

ـ"ألو.. (سيف).. طمنني انت كويس؟"

أعطى ظهره للغرفة بمن فيها ليهمس مطمئناً:

ـ"متخافيش يا (لميس).. أنا كويس الحمد لله.. طمنيني عليكي وعلى (منار).. لسه ما اتكلمتش؟"

تنهدت في حسرة وهي ترمق (منار) الشاردة على فراشها قائلة:

ـ"دي مش (منار)... اللي قدامي واحدة تانية ماعرفهاش.. سرحانة طول

الوقت وفجأة دموعها تنزل من غير كلام. ولو عينها غفلت تقوم مفزوعة وتصرخ بإسم بنت تقريباً كانت معاها يوم الجمعة وشافتها بتتقتل قدامها.. الصدمة شديدة عليها قوي يا (سيف)".

ضغط نواجذه بغضب اتضح في نبرة صوته القاسية وهو يقول بفحيح:

ـ"لو شفته هقطم رقبته الجبان اللي خدها وراه وسابها لوحدها.. أنا هعرفه قيمته الحي....".

قاطعته في حدة:

ـ"(رأفت) ما أجبرهاش على حاجة، وماسابهاش لوحدها. انت لو شفت ميدان التحرير يومها كنت قلت القيامة قامت.. لو شفت الحالات اللي جاتلنا القصر العيني ولا اللي كانت في مستشفى ميداني بدائي في شارع جانبي كنت عرفت إنهم شافوا الموت بعنيهم من غير ما يرفعوا حجر في وش ظابط ولا عسكري. فيه ناس اتهرست تحت مدرعاتكم وناس عنيها راحت من القناصة وناس..."

قاطعها هو هذه المرة محاولاً الحفاظ على صوته منخفضاً رغم عصبيته:

ـ"مدرعاتنا اللي مش عاجباكي هي اللي بتحميكوا في سينا.. الشرطة اللي مش عاجباكوا بتتقتل هنا عشان البلد من شوية عيال لا راحت ولا جات.. أهي الشرطة عندكو قعدت في بيوتها، ورونا هتحافظوا على نفسكم ازاي".

حاولت تهدئته بدبلوماسية:

ـ"(سيف) محدش يقدر يقلل من مجهودكم في سينا، بس برضه مينفعش ننكر اللي شفناه بعنينا من زمايلك هنا.. متحطش نفسك معاهم في سلة واحدة، و..."

قاطعها منهياً الاتصال:

ـ"هي سلة واحدة... السيئة بتعم.. سلام".

***

الرابعة عصراً

الإسكندرية

مسجد القائد إبراهيم

افترشت الأرض بأريحية ألفتها منذ انضمت إلى جموع الشباب الثائر في هذا المكان، واندمجت في كتابة ما يمليه عليها الشباب والفتيات المتحلقين حولها من شعارات ثورية على لوحات ورقية، بعدما عادوا من تشييع جثامين شهداء الإسكندرية الذين قُتلوا يوم الجمعة.

لكنها فقدت تركيزها ما إن تناهى إليها من بين أصواتهم الكثيرة صوت مختلف.

صوت لم يعانق أذنيها منذ سنوات، وتسبب في إفلات إحدى دقات قلبها من عقالها وهي تشعر وكأنما اختفت أصوات الجميع إلا نبرات ذلك الصوت الذي قال في إعجاب:

ـ" لسه خطك حلو وكلامك أحلى".

كادت تظنه صوتاً يأتيها من غياهب عقلها الباطن، لولا أن هاجمتها رائحة المسك التي ارتبطت في ذهنها به، فحسمت أمرها سريعًا وهي ترفع رأسها لأعلى لتتسع عيناها للحظات وهي تتأمل صاحب الصوت قبل أن تهتف بصوت مبحوح:

ـ"(وجيه طنطاوي)!!!؟ معقول؟"

اقترب منها مبتسماً وهو يتأمل ملامحها الرقيقة التي ارتسمت عليها الدهشة لتمنحها وجهًا جديدًا غير ذلك الذي أنهكه الإرهاق.. وجه أقرب إلى ذلك الذي اعتاده وطالما أحب ما تفعله الدهشة به، وما تمنحه من إشراقة محببة إلى نفسه. أحكم سيطرته على عينيه اللتان جابتا ملامحها بشغف، ليتنحنح قائلاً برصانة:

ـ"مش معقول ليه؟ هو انتي الثورجية الوحيدة في الدفعة ولا إيه؟"

نهضت من جلستها برشاقة وأعطت القلم لأحد الشباب قبل أن تلتفت إلى (وجيه) وتقول بابتسامة مشرقة بينما تتأمل ملامحه عن قرب:

ـ" لأ طبعاً، طول عمرك ثورجي يا (وجيه)".

قالتها وهي تضع يمناها خلفها قائلة بخبث:

ـ"طبعاً برضه ما بتسلمش على ستات، وأنا مش هكسف نفسي".

اتسعت ابتسامته وهو يعيد تأمل ملامحها التي لم تتغير كثيراً عما كانت عليه في الجامعة، ووجد نفسه يصارحها بذلك قائلاً:

ـ"ما اتغيرتيش خالص على فكرة يا (سلمى). ولا كأنك متخرجة من عشر سنين".

اتسعت عيناها وهي تهمس محذرة:

ـ"وطي صوتك.. عشر سنين مين؟ الناس هنا فاكراني في أولى جامعة".

ضحك بقوة قبل أن يميل ناحيتها قائلاً بصوت خفيض:

ـ" يعني انتي زي باقي الستات اللي مش بيحبوا حد يعرف عمرهم الحقيقي؟ أهو انتي اتغيرتي في النقطة دي. زمان مكانش بيفرق معاكي السن".

اتسعت ابتسامتها وهي تنفض ثيابها البسيطة من التراب وتهندم أكمام بلوزتها الصوفية الثقيلة قائلة:

ـ"ماشي اتغيرت شوية. قصيت شعري وغيرت لونه عشان أداري ما فعله المشيب. لكن الحمد لله شكلي ما يديش سني خالص. يبقى مفيش داعي أصلاً حد يعرف سني الحقيقي".

انتبه لأول مرة إلى لون شعرها المختلف، والذي لم يلحظه قبل ذلك، فقال مندهشاً:

ـ"تصدقي أنا شفتك (سلمى) القديمة بشعرها الاسود الطويل وديل الحصان اللي الهوا بيطيره... زي ما تقولي شفتك بقلبي".

تضــرج وجهها بحمـرة قانيـة ذكرتـه بالأيـام الخـوالي وهـي تتنحـنح لتغـير الموضوع:

ـ" انت نزلت المظاهرات امتى؟ دي أول مرة أشوفك".

أدرك محاولتها، ولاح شبح ابتسامة حزينة على وجهه وهو يقول بشرود:

ـ"لسه النهاردة، بس دا لا ينفي إن الكورنيش خد مني راقات".

غمزت بعينها بشقاوة محببة:

ـ" هو واخد منك راقات من زمان. كنـت بتاخـده مـن أولـه لآخـره تسـبيل. مش عارفة اخوانجي ازاي وأستاذ تسبيل".

انفجر ضاحكاً على عبارتهـا بشـكل لفـت انتبـاه الموجـودين حـولهما فقطـع ضحكته في حرج وأشار إليها قائلاً:

ـ" طيب يا ست اللبرالية. قدامي نعدي الشارع للكورنيش".

انحنت تلتقط معطفها الثقيل وكوفيتها الصوفية من فوق إحـدى اللوحـات النظيفة وارتدتهما سريعاً وهي تتبعه في عبور طريق الكورنيش، حتى وصلا إلى الحاجز الحجري الـذي يفصـل الطريـق عـن البحـر. وهنـاك وقفـا سـوياً يتأملان موج البحر صامتين، وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها بينما وضع هو كفيه في جيبي معطفه الثقيل قبل أن يكسر الصمت قائلاً:

ـ" مش أنا بس اللي الكورنيش خد مني راقات. احسبيها كدا هتلاقي إنه خد منك انتي كمان".

تنهدت في عمق وهي تشد جانبي معطفها لتحكمه حول جسـدها النحيـل، بينما تداعب الرياح خصلات شعرها القصـير بلـون الكراميـل وتبعـثره حـول وجهها بفوضوية محببة.

ثم ما لبثت أن قالت:

ـ" فين أراضيك دلوقتي؟ سمعت إنك سافرت تشتغل برا".

رمقها بنظرة جانبية قبل أن يعود بنظره إلى البحر قائلاً:

ـ"أيوة اشتغلت في التدريس فترة ورجعت من سنتين. حالياً بشتغل في مدرسة خاصة.. هو (رأفت) مقالكيش اننا اتقابلنا في مصر من شهرين؟"
شعرت بتثاقل أنفاسها حينما تحدث عن لقائه بأخيها، لكنها هزت رأسها بحركة طبيعية، وهمت بأن تقول شيئاً ما حينما تابع هو قائلاً:
ـ" عرفت انك أخدتي الماجستير وبتحضري الدكتوراه، وبتكتبي مقالات نارية ساخرة في صحف معارضة، وطبعتي كتاب ساخر من سنتين، وليكي صفحة خاصة عالفيس بوك".
قالها وهو يتأمل الدهشة التي ارتسمت على ملامحها وهي تسأله بصوت مبحوح:
ـ"انت ممشي ورايا جواسيس يا (وجيه)؟ اوعى تكون بتشتغل مع أمن الدولة".
انفجر ضاحكاً على تساؤلها وهو يتذكر كيف كانت تدفعه دوماً للضحك بقوة كلما تحدثت معه بعفوية.
أما هي فأدهشتها بالفعل معرفته بأغلب تفاصيل حياتها رغم أنه لم تره أو تحاول الاتصال به منذ تخرجا، حتى أخيها لم يخبره كل هذا الكم من المعلومات، فلقائهما كان عابراً كما أخبرها.
لذا عادت تسأله بفضول:
ـ" ليه يا (وجيه)؟ بعد عشر سنين بتدوّر عليا وتعرف أخباري ليه؟"
التفت إليها تماماً وهو يقول بصدق:
ـ" لإن اللي بيننا مش عشر سنين. دول اربعتاشر سنة يا (سلمى). انتي متخيلة أربعتاشر سنة في عمر الإنسان يعني إيه؟ تقريباً نص عمرنا".
اختنق صوتها بالعبرات وهي تشيح بوجهها ناحية البحر قائلة:
ـ" لو حتى ميت سنة. طالما ليك حياة جديدة يبقى ما ينفعش ترجع للماضي".

عقد حاجبيه حائراً عم تتحدث، ثم اقترب من خلفها يهمس بنبرة خاصة:
ـ"ومين قال لك إن ليا حياة؟ قلبي اتقفل من يوم ما سبتك يا (سلمى). مفيش واحدة قدرت تفتحه بعدك".
انتابتها قشعريرة قوية وهي تسمع همسته من هذا القرب، وحاولت إخفاء ارتباكها بتسوية خصلات شعرها المتطايرة وهو يتابع بنفس اللهجة:
ـ" حاولت أكتر من مرة أرتبط. كل أجازة كنت أرجع الاقي الوالدة مختارة كذا عروسة. كلهم أحسن من بعض وفيهم المميزات اللي يتمناها أي راجل...كذا مرة أختار منهم وأرجع أتراجع. كنت دايماً أقول لنفسي حرام تظلم بنات الناس وانت عارف إنك مش هتبقى مخلص ليها بقلبك وعقلك. هتفضل (سلمى) دايماً بينكم. وبصراحة مكانش عندي استعداد أفشل، ففضلت إني ما ارتبطش".
حاولت أن تهتف به "وأنا كمان"، لكنها تماسكت وهي تشد طرفي المعطف حولها أكثر قائلة بلا مبالاة مفتعلة:
ـ" و أنا قربت أرتبط أكتر من مرة، بس دايماً كان بيبقى فيه اختلاف... أي اختلاف يخليني اقول بلاها الجوازة دي".
دار حولها ليواجهها قائلاً:
ـ"إحنا كنا مختلفين بس كنا بنكمل بعض".
هزت رأسها نفياً وهي تتحاشى النظر في عينيه العميقتين قائلة:
ـ"الاختلافات بيننا كانت ممكن تدمرنا... وقتها وإحنا لسه في أول حياتنا أكيد كنا هنتطلق بسرعة. كل واحد فينا كان متمسك برأيه وشايف إن التاني غلط. ومكانش عندنا استعداد للتفاوض. عشان كدا أنا متأكدة إن اللي عملناه وقتها كان الأفضل".
باغتها بقوله:

ـ"الفكرة مكانتش بس الاستعداد للتفاوض. انتي مكانش عندك استعداد تتنازلي عن حاجة، ولا حتى انك تبدأي حياتك من أول السلم مع اللي اختاره قلبك".

اتسعت عيناها للحظات التقت فيها أعينهما رغماً عنها، وهي تحاول عبثاً العثور على صوتها المبحوح، قبل أن تقول باستسلام في النهاية:

ـ" أوكي.. ماشي.. أنا مكنتش مستعدة أبدأ من أول السلم. كل الشواهد كانت ضد الارتباط بيننا. الاختلافات كانت بداية من المظهر للفكر لأسلوب الحياة لكل حاجة. وأنا مكنتش مستعدة للمخاطرة و".

قاطعها قائلاً بحنق:

ـ"يعني كنتي تتخيلي إننا بعد عشر سنين هنتقابل وانتي برضه لسه من غير جواز؟ هو دا كان تخطيطك لحياتك بعيد عني"؟

أجفلت من سؤاله المفاجئ الذي أحرجها بشدة، وكأنه يذكرها بأنها في تعدت الثلاثين من عمرها ولم تتزوج بعد.

هو نفسه شعر بالضيق لسؤاله الذي بدا غاية في قلة الذوق، فعض شفته السفلى في ندم وهم بالاعتذار حينما فوجئ بها تجيبه بإحباط وبصرها معلق بآخر حدود البحر:

ـ"بصراحة لأ.. كنت متخيلة إني هخلص الماجستير وأنا ٢٤ سنة أو ٢٥ سنة بالكتير، ويكون معايا وقتها بيبي صغير وجوزي جنبي. ولما أوصل التلاتين يبقى معايا بيبي كمان وبخلص الدكتوراه. لكن مفيش حاجة اتحققت في وقتها، ومن بين كل اللي تخيلته أخدت الماجستير وبس".

ثم التفتت إليه قائلة:

ـ"وعلى فكرة لما شفتك تخيلت انك اتجوزت ومعاك طفلين ولا حاجة".

ازدرد لعابه وهو يسألها بصوت حمل ضيقه من إحراجها:

ـ"ليه حكمتي على جوازنا إنه هيفشل؟ الطفلين دول لو ولادنا إحنا الاتنين مش كان أحسن؟ نجاحك وأنا جنبك ونجاحي وانتي جنبي مش كان بقى أحسن؟"

التفتت إليه في حدة وهي تهتف باختناق:

ـ"انت دخلت المعتقل كام مرة من بعد ما انضميت للجماعة؟ من يوم ما اتخرجت أنا اتقبض عليا ٤ مرات. عارف ليه؟ عشان المقالات الساخرة اللي بتقول عليها. تفتكر أي بيت دا اللي الأم فيه تدخل المعتقل وقبل ما تخرج الأب يحصّلها؟ كنت هتفرح وعندنا طفلين سايبينهم يتربوا في الملاجئ ولا عند أهلي شوية وأهلك شوية؟ أصلاً كنا هنربيهم ازاي؟ أبوهم الشيخ وأمهم السافرة؟ انت متخيل أهلك كانوا هيوافقوا عليا وأنا نقيض ليك على طول الخط؟ زمان بجد قضيتنا كانت خسرانة يا (وجيه). مكانتش حتى تستاهل نفكر نحارب عشانها".

خفض وجهه أرضاً فيما بدا اعترافاً صريحاً منه بصحة ما قالته، ثم رفع رأسه ثانية ليقول بهدوء:

ـ" بس السنين غيرت كتير من جوانا. أنا عن نفسي كنت فاهم غلط. كنت مَلَكي أكتر من الملك. أعترف إني كنت متشدد، وإني من أول ما دخلت الجماعة اتغيرت ١٨٠ درجة عن أول ما اتقابلنا لإني حسيت بفظاعة حياتي قبل الالتزام، وكنت حاسس إني مهما عملت ذنوبي أكبر من حسناتي. فطبيعي أعمل كل حاجة ضد اللي كنت بعمله قبل كدا. بس لما سافرت وشفت ناس تانية وأفكار تانية لقيت إن الدين مش تشدد ولا كلكعة. لقيت إن الغلط مش في الإسلام ولا في الجماعة، الغلط فيا أنا".

رمقته بنظرة طويلة صامتة قبل أن تبتسم بشقاوة قائلة:

ـ" تعرف كام مرة فكرت ألبس الحجاب وتراجعت بسببك؟ كل مرة شيطاني كان يقف قدامي ويقول لي (وجيه) انتصـر عليكي، فأرجع في قراري وأغيّر قصة شعري ولونه... شُفت تشددك عمل فيا إيه"؟

ضحك حينما لمح لمعة عينيها التي أسرته منذ عرفها، وقال من بين ضحكاته:

ـ" لا حول ولا قوة إلا بالله... يعني شيلتيني ذنوب فوق ذنوبي حرام عليكي. دا على كدا تشددي أذى ناس كتير".

عادت تواجهه وهي تقول بضيق:

ـ"مش انت بس اللي كنت متشدد، ومش انت بس اللي كنت مَلَكي اكتر من الملك. أنا كمان كنت متشددة وشايفة إن التيار الليبرالي هو الأفضل. تاريخياً أحسن رؤساء أمريكا الديمقراطيين، وأنا كنت عايشة الحلم الأمريكي وقتها ومصدقة دا. بدرس لغتهم وأدبهم وثقافتهم وتاريخهم في مرحلة من أخطر المراحل العمرية، يبقى ازاي ما اتأثرش بيهم؟ والطبيعي يا إما ابقى ليبرالية متحررة زيهم، يا إما أقرّب قوي من الدين بشكل مبالغ فيه بهدف الحفاظ على الهوية. ودا اللي حصل معانا إحنا الاتنين.. انت رحت شرق وأنا رحت غرب.. والاتنين عمرهم ما بيتقابلوا".

منحها ابتسامة جانبية وهو يقول بأمل:

ـ"لا بيتقابلوا لما يلفوا حوالين الكورة الأرضية. هيمشوا كتير صحيح بس في الآخر هيتقابلوا. وأدينا اتقابلنا".

***

القاهرة الجديدة

السادسة مساء

استجابت لرنين الهاتف الأرضي لتجد والدها على الطرف الآخر يهتف في لهفة:

ـ" (راندا)!!!؟ طمنيني عليكم يا بنتي".

اختنق صوتها بالعبرات سريعاً وهي تنطق بصعوبة كمن يستنجد به قائلة:
ـ" بابا... أزيك يا بابا؟ وماما و(مهاب) أخويا؟ طمنوني عليكم".
هتف بها وهو يحاول إخفاء قلقه:
ـ" طمنيني انتي الأول... مفيش أخبار عن جوزك؟"
هزت رأسها نفياً وسمحت لدموعها بالانهمار على وجهها وهي تجيبه بأسى:
ـ" للأسف لأ. الأول مكانوش معترفين باعتقاله. ولما اتصلت بكذا برنامج تلفزيوني الموضوع اتحرك شوية واعترفوا إنه رهن الاعتقال بس بيتعامل معاملة كويسة.. قال بيعاملوهم في آمن الدولة كويس... اذا كانت أمريكا مش بتعامل المعتقلين كويس يبقى مصر هتعاملهم كويس؟ حسبي الله ونعم الوكيل".
أمرها والدها في حزم:
ـ" خلاص معادش ينفع تقعدي عندك. لمي الهدوم اللي تحتاجيها انتي وابنك واركبي أول ميكروباس وتعالي... أنا قلبي معادش حمل مناهدة. انتي في مصر واخوكي (أسامة) متصاب بعد ما هجموا على القسم، و(مهاب) بيكملها عليا وينزل مع الشباب عند المحافظة الصبح وبالليل في اللجان الشعبية. ارحموني وارحموا سني".
همت بالاعتراض على رأيه حينما أتاها صوت أمها على الطرف الثاني وهي تحدثها بلهفة قائلة:
ـ" (راندا) يا قلب أمك.. طمنيني عليكي انتي و (ياسر).. المنطقة عندكم فيها لجان شعبية برضه؟"
مسحت (راندا) دموعها بفوضوية وهي تجيبها بنفس اللهفة:
ـ" متخافيش يا ماما... الناس هنا كلهم بيحافظوا عليا وعلى (ياسر) وبيخافوا علينا أكتر ما بيخافوا على عيالهم. هما أصلاً بيحبوا (حمزة)

وعارفين انه بطل من أبطال الثورة. متخافوش علينا. إحنا الحمد لله. المهم أخبار إصابة (أسامة) إيه؟ فاق ولا لسة؟"

انسابت دموع الأم غزيرة خوفاً وهلعاً على وليدها المصاب وهي تجيب ابنتها الكبرى من بين نشيجها:

-"ادعيله يا (راندا). لسه في العناية المركزة ومش عارفة أروح أشوفه. حتى مش عارفة هيستناني لما أروح له ولا يسبقنا عالجنة".

هتفت بها (راندا) بسرعة:

-" فال الله ولا فالك يا ماما... متقوليش كدا حرام عليكي. والله في كل صلاة بدعي له ول (حمزة) ربنا يفرج كربهم هما الاتنين. ياريته كان قريب من هنا كنت رحت له، بس على قوله.. حدفوه آخر بلاد المسلمين".

ظلت الأم على انهيارها للحظات أخرى والأثير ينقل صوت نحيبها الذي يزيد من تمزق قلب (راندا) إلى أن تمالكت نفسها قليلاً وهي تقول بلهجة حازمة مشابهة للهجة الأب:

-" اسمعي كلام أبوكي يا (راندا). هاتي ابنك وتعالي قدامنا هنا. مش هيبقى كل واحد فيكم في ناحية وتشحتفونا عليكوا يا بنتي. وأول ما جوزك يرجع بالسلامة ابقي ارجعي معاه بيتكم".

مطت (راندا) شفتيها قائلة بنفس الحزم الذي بدا متوارثاً في الأسرة:

-" معلش يا ماما... مش هقدر اسيب بيت جوزي. بيت (حمزة) مش هيتقفل، وأنا هفضل هنا مستنياه. قولي لبابا يسامحني ويدعيلي ويدعي ل (حمزة). وخلوا بالكوا من نفسكوا، وحصني (مهاب) قبل ما ينزل من البيت زي ما عودتينا. واستودعينا كلنا. فعند الله لا تضيع الودائع. مش دا كلامك؟"

أنهت المحادثة بقلب ممزق وأنفاس لاهثة، لتنطلق من أعماقها آهـة قويـة تحمل اسم زوجها وهي تعود بذاكرتها إلى الخلف..
إلى أكثر من عامين ونصف،
حين رأت أميرها للمرة الأولى.

كانت طالبـة في عامهـا الأخـير بكليـة الإعـلام قسـم صـحافة، واختـارت مـع زميلاتها (علا) و (منار) أن يتلقين التدريب في الصحيفة التي يرأس تحريرها أستاذهن الدكتور (مصطفى).
وفي اليوم الأول للتدريب لمحته.
لم تتخيل للوهلة الأولى أن يكون خلف هـذا الوجـه الوسـيم بشـكل ملفـت شخصية قيادية لا يشق لها غبار،
ربما كان يبدو سورياً أو لبنانياً أو حتى من أصل تركي،
لكنها لم تتوقع قط أن يتمتع بهذا الذكاء والمهنية والعقليـة الواعيـة، والتـي انعكست في حديثه منذ أول كلمة نطقها.
بحكم ما تراه من أفلام ومسلسلات، كان اسـتهتار الشـاب الوسـيم وتلاعبـه بالفتيات أحد المسلمات الراسخة لديها،
لذا لم تفكر ولو للحظـة أن يتجـاوز اعجابهـا بــ(حمزة) عقلهـا البـاطن كـيلا تبدو فريسة سهلة،
بل إنها كانت تتعمد أن تبدو فظة وعقلها يوسوس لها أنها لا ترقـى لجـمال الفتيات اللائي قد يُدرن رأس شاب مثل (حمزة).
كانت تتوقع اعجابه بــ(علا) التـي تشـاركه الملامـح الشـقراء الملفتـة، وربمـا (منار) ذات الملامح الهادئة والنظرات الشقية.
أما هي فكان يراودها دائماً الشعور بأنها أقل منهما.

رغم ملامحها المريحة وأناقتها المحتشمة وأصلها الطيب كان هناك ما يُشعرها بأنها أقل من زميلاتها.
ربما لأنها تنتمي لإحدى محافظات الوجه البحري وليست من أبناء العاصمة مثلهما،
وربما لأن والدها ليس مهندساً كبيراً كوالد (علا) ولا مستشاراً كوالد (منار).
هي لم تقلل من شأن أسرتها التي تعشقها،
ولم تقلل من شأن والديها الذان نجحا في تربيتها لتصبح صحافية ناجحة، وشقيقها ليصبح ضابط شرطة، بينما لا يزال شقيقها الأصغر طالباً في كلية الطب.
كانت تدرك أن أسرتها نموذج للأسر الناجحة والسعيدة.
لكنها كانت تعاني بشدة من أزمة ثقة تهزها من الأعماق كلما وقفت أمام زميلتيها
لذا كانت دهشتها عظيمة حينما طلبها (حمزة) للزواج!!
لوهلة تخيلته يمزح أو ربما يطلب منها أن تتوسط لدى أي من زميلتيها من أجله.
لكنه كان يريدها هي،
هي فقط.
ربما لم يصارحها بحبه في البداية، لكنه سرعان ما أغدق عليها بمشاعره الفياضة بمجرد أن أصبحت زوجته، ولم يحاول يوماً أن يُحد من طموحها الصحفي، لكنه لم يحاول أيضاً أن يساعدها على حساب الآخرين.
هكذا كان منصفاً دائماً، لكنها لم تكن معه بذات الإنصاف.
تركت عقدتها القديمة تتحكم بها وتنغص حياتهما وهي تتخيله يخونها في كل مرة يكون هاتفه مغلقاً أو كلما تأخر بالخارج.
لم تنس أن والدها زل يوماً وأحب أخرى غير والدتها..

لم تغفرها له، رغم أن أمها تناست الأمر برمته بعدما عاد معتذراً ونادماً على نزوته العابرة.
وكانت النتيجة أن ترسخت تلك الفكرة الجائرة بعقلها الباطن، وهي أن كل الرجال خونة بالفطرة، لاسيما إذا ما توافرت لهم الظروف.
لم تلحظ أن (حمزة) منذ البداية لم يرفع نظراته في أي فتاة سواها، ولم يتحدث هامساً مع فتاة سواها، ولم تلمع حدقتاه الفيروزيتان إلا لمرآها، بل ولم ينطق اسم فتاة مجرداً من لفظ استاذة إلا معها.

يا الله... كم ظلمته بينما ظل هو على احتواءه لها وغرامه بها وكأنما يملك مخزون صبر لا ينفد، أو ربما معين حب لا ينقطع.
وبحرقة وتضرع رفعت كفيها إلى الله تدعوه أن يعيده وشقيقها سالمين.

** ** **

(٧)

الاثنين

٣١ يناير

الرابعة عصراً

وقفت تتناقش بجدية مع مجموعة من طلابها من الشباب والفتيات الذين يدورون في فلكها تقريباً طوال فترة وجودها بمنطقة القائد إبراهيم، قبل أن يتكفل بعض الشباب بمرافقتها في طريق عودتها إلى منزلها بمنطقة سيدي بشر.

كان أغلبهم يرى أن اقتحام السجون لابد وأن يكون مدبراً من قبل وليس وليد اللحظة، وأن الأمر تم كمحاولة لإثارة الذعر في النفوس ليلزم كلُ بيته ولا يغادره خوفاً من انتشار السجناء والبلطجية.

أما قلة من الشباب فرأوا أن هناك تسيب أمني على الحدود الشرقية ساعد بعض العناصر المسلحة من حزب الله وحماس على دخول البلاد، ومن ثم اقتحام السجون، واستدلوا على ذلك بمقاطع الفيديو التي أذاعتها قنوات إخبارية لسجناء غير مصريين استطاعوا الهرب والخروج من مصر وسط حالة الانفلات الأمني.

أما هي فلم تكن لديها معلومات مؤكدة تؤيد أي الرأيين، لكن حدسها كان يميل إلى الرأي الأول لعلمها أن وزير الداخلية لن يتورع عن قتل أقرب الناس إليه إذا وقف في طريقه.

شعرت باقترابه كعادتها، ربما لرائحته المميزة، أو ربما لأن قلبها اللعين مازال يحفظ تردد موجاته فتزداد دقاته رغماً عنها ترحيباً بالقادم.

حاولت تجاهل ذلك التوتر الذي يعصف بها منذ الأمس في قربه، وحينما اقترب ملقياً السلام أجابته بابتسامة هادئة لا تحمل أي معنى أكثر من رد السلام.

شاركهم النقاش باتزان واكتفت هي بالإنصات لهم، قبل أن يصدمها باعترافه الذي دوى كقنبلة وسط المجموعة.

فقد قال بهدوء:

ـ"يا أخي لا تسمع للإعلام في كل ما يقوله، واسمع من شاهد عيان.. زي حالاتي".

التفتت إليه بقوة كادت تصيبها بتمزق في أربطة العنق وهو يتبع بابتسامة:

ــ"متتخضوش كدا.. أيوه أنا شاهد عيان.. كنت معتقل في سجن وادي النطرون واتفتحت علينا الزنازين وانضرب فوق راسنا نار عشان نخرج".

لم تهتم بمعرفة من اقتحم السجن في تلك اللحظة قدر اهتمامها بفكرة الاعتقال نفسها فهتفت مستنكرة:

ـ" وادي النطرون؟ امتى اعتقلوك وانت كنت مع (رأفت) من شهر في القاهرة؟"

أجابها بابتسامة حزينة:

ـ" اعتقلوني بعد ما سِبت (رأفت) بربع ساعة.. حظي المنيل خلاني أنزل القاهرة يوم اجتماع مجلس الشعب والشورى اللي حضره الريّس.. مش كدا وبس.. بدل ما امشي جنب سور الجامعة الأمريكية وأدخل محمد محمود سرحت ودخلت الشارع اللي قبل الجامعة.. طبعًا واحد ملتحي زي حالاتي شكله مش مربي دقنه شياكة ومعدي في حتة زي دي لازم يتقفش.. وقد كان. اتهموني بإني تبع القاعدة وإني تلميذ (أنور العولقي) اللي في اليمن لمجرد إني لما أنهيت تعاقدي في السعودية مريت على اليمن أحضر فرح

زميلي اليمني وقعدت هناك أسبوع. وطبعًا كوني عضو سابق في جماعة الإخوان وملفي القديم في أمن الدولة كانوا أدلة إدانة زيادة وشكراً... اتعمل عليا أحلى حفلات في لاظوغلي وبعدين نقلوني وادي النطرون الجمعة اللي قبل جمعة الغضب.. كل دا وأهلي ميعرفوش عني حاجة ولا...".

أخفت وجهها بين كفيها وارتجافة ألم تجتاحها لتقول باختناق:

ـ"كفاية يا (وجيه).. خلاص فهمت".

تأملها وتأمل ارتجافتها فأشفق عليها وحار ماذا يفعل، ليخرجه رنين هاتفها من حيرته وهو يراها تخرجه من جيبها وتبتعد في سرعة دون استئذان.

***

صدمها اعترافه بما تعرض له من تعذيب دون جريرة اقترفها، ولم يخف عليها قوله إنه ضل الطريق بسبب شروده. شيء ما بداخلها أخبرها أنه كان شارداً بسببها بعدما قابل شقيقها، رغم أن عقلها كان يستبعد ذلك الاحتمال، بل ويرفضه.

فالرجل له حياته الخاصة كما أخبرها أخوها من قبل، ولم ينضم إلى الثورة رغبة في البقاء إلى جوارها، وإنما لأنه واحد من بين ملايين تعرضوا للأذى على يد النظام الحاكم.

أخرجتها ذات الرنة المميزة من شرودها، ووجدتها أفضل فرصة للهروب من أمامه في هذه اللحظة، فابتعدت دون استئذان وهي تجيب المتصل ببرود:

ـ"نعم".

أتاها صوته الحانق على الطرف الآخر يهتف بها:

ـ"مبترديش عالتليفون ليه؟"

أجابته ببرود:

ـ"عادي.. مسمعتوش".

استشاط غضباً من برودها فارتفع صوته أكثر:
ـ"يعني إيه عادي؟ انتي مش بتردي وأخوكي تليفونه مقفول وهموت من القلق عليه. اتطمن عليكم ازاي؟"
وضعت كفها البارد في جيبها وهي تجيبه بنفس البرود:
ـ"محدش بيموت من القلق.. عموماً موبيل (رأفت) اتكسر يوم الجمعة ولسة مجابش موبيل غيره. وأنا بكلمه أتطمن عليه على موبيل (مازن)".
تجاهل اهانتها المبطنة وهو يسألها بتوتر:
ـ"المهم اتصاب أو جراله حاجة يوم الجمعة؟"
تنهدت في ضيق قائلة:
ـ"أخد رصاصة في ذراعه الشمال، بس الحمد لله الإصابة مش خطيرة".
أتاها صوت زفرته القوية واستغفاره قبل أن يسألها:
ـ"وانتي؟"
أجابته باقتضاب:
ـ"كويسة يا (أكرم). شكراً على السؤال".
زفر ثانية وسألها بحنق:
ـ"انتي بتعامليني ليه كدا يا (سلمى)؟ كل دا عشان قلتلك متنزليش يوم ٢٥؟ ونزلتي وغيرك نزل.. إيه اللي اتغير؟ كام واحد ماتوا؟ استفادوا إيه غير حرقة قلب أهاليهم؟ إيه الفايدة؟ كل دا عشان تغيروا الوزارة؟ اهي اتغيرت وجالكم نائب الرئيس اللي كنتوا بتحلموا بيه. نرجع بيوتنا بقى قبل البلد ما تخرب".
قذفته بإجابة عنيفة أخرى لم تندم عليها فيما بعد:
ـ" احنا كبرنا على أخد الأوامر من أي حد.. حتى أهالينا. ومش هنرجع قبل ما ننجح في هدفنا".

شعر بكلماتها تصفعه بكراهية لم يعهدها في شخصيتها شبه المثالية، لكنه ابتلع عبارتها العدائية وهو ينهي المكالمة:
ـ"براحتك".
وأغلق الخط.

***

السابعة مساء
ميدان التحرير
تهالك جالساً على أحد الأرصفة وهو يلهث في عنف ويمسح بكم سترته العرق الغزير الذي يُغرق وجهه رغم برد ليل الشتاء القارس، والتفت ينظر إلى الشاب الذي تهالك إلى جواره وهو يضغط بكفه على جرح غائر في جبهته تسيل منه الدماء ليقول في قلق:
ـ"مرحتش للمستشفى الميداني ليه؟ خليهم يطهروا الجرح ويغطوه بدل ما دمك سايح كدا".
لاح شبح ابتسامة واهنة على شفتي الشاب لم تخفها لحيته الكثة وهو يقول بخفوت:
ـ"خليها على الله. هآخد نَفَسي شوية وأروح لهم يغطو الجرح. ولاد اللذينا دول مبيخلصوش؟ هما لموا بلطجية البلد كلها ولا إيه؟"
تنهد (مازن) في ضيق وهو يتابع بعينيه المعركة حامية الوطيس بين شباب الميدان والبلطجية الذين يرشقونهم بقطع رخامية مدببة، بينما يرد شباب الميدان الهجوم بقطع من بلاط الأرصفة وما يستطيعون جمعه من قطع الرخام التي تسقط خلفهم.
لم يكن المشهد جديداً على (مازن) أو أي ممن انضموا للميدان منذ يوم السبت، والذين لاحظوا توافد أعداد غفيرة من أصحاب السوابق ومسجلين

خطر بدوائر الأمن، أو من يُعرفون بالبلطجية، على الشوارع المحيطة بالميدان في محاولة منهم لاقتحامه.
لكن شباب ورجال الميدان تكاتفوا لصدهم وهم يغلقون الشوارع الرئيسية المؤدية إلى الميدان بالمتاريس وسيارات الأمن المركزي المحترقة وبعض البلوكات الخرسانية والألواح الحديدية التي استعانوا بها من موقع بناء فندق سياحي عالمي بالميدان بعد توقف العمل فيه.
ومنذ يوم السبت بدأت معركة التراشق بالحجارة بين الطرفين، والتي تبدأ يومياً في فترة العصر وتستمر حتى الليل، بينما يتناوب الشباب والرجال الرد على حجارة البلطجية.
بالطبع لم تكن تلك المناوشات تمر دون إصابات بين صفوف الثوار، لأن قطع الرخام الحادة كانت كفيلة بشج رأس من تصل إليه.
ولكن لحُسن الحظ لم يسقط شهداء بين رجال الميدان منذ انتهاء إطلاق النار صباح التاسع والعشرين من يناير.
كلها كانت اصابات في الرأس او الصدر أو الذراع
وكلها كانت غير مؤذية تماماً.

وانتشر أكثر من مستشفى ميداني في أنحاء الميدان المختلفة لمعالجة الجرحى والمصابين بوسائل بدائية مالبثت أن تحسنت مع توافد أطباء متطوعين وتبرع مواطنين بمطهرات وأدوية مختلفة لمواجهة ما يستجد من طوارئ في الميدان.
والغريب أن شعب الميدان استطاع منذ اليوم الأول أن يكوّن جمهورية فاضلة بين جنباته، وهو يختار من بين المعتصمين من يتكفلون بتوفير الغذاء والمياه وتأمين المداخل والمخارج إلى جانب قوات الجيش والحفاظ على

نظافة الميدان وغيرها من المهام التي تطرأ مع تكيف المعتصمين على أسلوب الحياة الجديد.

حياة صحراوية وسط القاهرة.

أو قل هي ظروف أجبرت المعتصمين على إبراز أجمل وأنبل ما فيهم دون طمع أو حقد أو حسد أو أي من خطايا الإنسان السبع.

كانت حياة على الفطرة.. بكل نقائها وبرائتها.

وكم استمتع بها (مازن) ورفاقه من شباب الثوار.

فقد شعروا للمرة الأولى عبر سني عمرهم الثلاثيني بأنهم ينجزون شيئاً حقيقياً، حتى وإن لم يثقوا في نتيجته النهائية.

كانوا بالفعل كمن يحمل كفنه على كفيه في كل يوم يدخلون فيه الميدان بعد عودتهم من أعمالهم،

فالمرء لا يدري متى تصيبه رصاصة غادرة أو قطعة رخام قاتلة.

ولكن إيمانهم بقضيتهم كان يحثهم على الاستمرار والصبر على البرد وقلة الطعام والشراب.

رغبتهم في مستقبل أفضل لأبنائهم وذويهم كانت دافعاً قوياً،

حبهم لهذه البلاد وأملهم في نهضتها كان الوقود الذي يدفئ لياليهم الباردة،

وحماسهم كان يلتهب أكثر مع ترديد الاغاني الوطنية القديمة.

هو لم يكن مختلفاً عنهم في حماسهم وإصرارهم

لكنه لم يكن من هواة ترديد الأغاني مع (رأفت) وباقي الشباب.

فقد كان يستغل فترات راحته في التفكير فيها..

معشوقته المجنونة التي لا ينفك يهرب من أسر عينيها الزرقاوين،

حتـى وإن اسـتطاع الفكـاك مـنهما في صـحوته، فكيـف يهـرب منهـا وهـي تطارده في أحلامه بصوتها الرقيق وملامحها الفاتنة؟

كان قد أوهم نفسه بالاعتياد على فراقها.
حاول أن ينسى رائحتها التي لا تفارق أنفه..
صوتها الذي يغرد في أذنيه..
نعومتها التي لا يزال يشعر بها تحت أصابعه..
أوهم نفسه وصدق الوهم...أو كاد.
حتى رآها في المظاهرة قبل أسبوع، وسمع صوتها عبر الهاتف بعد يومين.
أيقن وقتها أن دفاعاته لم تكن حصينة بما يكفي... فقد تصدعت الواحد تلو الأخر في كل مرة يجتمع بها.
لكن كل دفاعاته انهارت فجأة حينما وجدها بين ذراعيه تتشـبث بـه وتـبكي ابتعاده بانهيار كطفل تاه عن والديه في الزحام.
يومها انتابه نهـم غريـب لأن يغرسـها بـين أحضـانه ولا يستنشـق إلا هـواءَ ممزوجاً بأنفاسها.
وكم تمنى لو استطاع ابقائها في أحضانه للأبد،
أو حتى يعوض ما فاته من هواء يحمل رائحتها و...

خرج من ذكرياته على صوت (رأفـت) وهـو يهتـف بـه ويحـرك كفـه أمـام عينيه قائلاً بمرح:
ـ"هيي... رحت فين يا عم؟ أوعى تقول البيت".
رفع (مازن) عينيه إلى صديقه المشاغب وابتسم بإرهاق قائلاً:
ـ"قال يعني أنت مش بتفكر في خطيبتك".

افترش (رأفت) الرصيف إلى جوار صديقه وتنهد في عمق والجدية ترسم نفسها على ملامح وجهه ونبرات صوته وهو يقول:

ـ"افكر بس؟؟ أنا هاموت من القلق عليها. يوم السبت كله مكلمتنيش ووالدتها هي اللي ردت عليا. طبعاً كانت بتكلمني من تحت الضرس وهاين عليها تضربني في التليفون. بس امبارح (منار) كلمتني دقيقتين والنهاردة كمان".

ضحك (مازن) بسخرية قائلاً:

ـ"دقيقتين بس؟ إيه البخل دا؟ هي خايفة عالرصيد ولا إيه؟"

لكزه (رأفت) بمرفقه في جانبه بقوة آلمته وهو يهتف به من بين أسنانه:

ـ"هو انت على طول لسانك متبري منك كدا؟ البنت مش بتتكلم أصلاً.. يادوب قالتلي انا كويسة وطول المكالمة أنا اللي بحاول أخليها تنطق".

تحسس (مازن) موضع الألم من لكزة (رأفت) قبل أن يقول بضيق:

ـ"الله يكون في عونها... صعب على بنت مهما كانت قوتها انها تشوف اللي حصل يوم الجمعة وتنساه. مش بعيد كمان تكون مش عارفة تنام".

هز (رأفت) رأسه موافقاً ومط شفتيه وهو يقول:

ـ"فعلاً هي مش عارفة تنام. دكتورة (ميس) بنت خالتها قالت لي إنها عندها صدمة عصبية مخلياها لا عارفة تتكلم ولا عارفة تنام طبيعي بدون كوابيس... واللي عرفته منها إن (منار) شافت ناس بتضرب بنت قدامها بالشوم لحد ما البنت وقعت سايحة في دمها وماتت. تقريباً (منار) كانت عارفة البنت دي لإنها راحت تحاول تفوقها لقتها ماتت، وهي دي الصدمة اللي خلتها فقدت الوعي وبعدها فقدت النطق".

زفر (مازن) بضيق ثانية وهو يدفن اصابعه في شعره هامساً:

ـ"حسبي الله ونعم الوكيل. كل ما اتخيل إن (علا) كان ممكن تشوف اللي حصل دا دمي يفور".

ثم مالبث أن واجه صديقه يسأله في اهتمام:

ـ"صحيح مقلتليش... مفيش أخبار عن (معاذ)؟ أنا بجد قلقان عليه".

ارتسم الارتباك على وجه (رأفت) ولم يستطع إخفاؤه ليهتف به (مازن):

ـ" انطق يا (رأفت)... مخبي عني إيه؟ (معاذ) مات؟"

هز (رأفت) رأسه نفياً في قوة وهو يقول في سرعة:

ـ"لا والله... (معاذ) عايش بس...".

قالها وبتر عبارته وكأنه لا يجد الكلمات المناسبة لوصف ما حدث للطبيب الشاب الذي تعرفوا إليه قبل أسبوع.

وفهم (مازن) ما يعتمل في داخل صديقه.

فهم أن (معاذ) به أمر جلل، وإلا لما حارت الكلمات على شفاه (رأفت) الذي لا يتوقف عادة عن الكلام. لذا قال بصوت أجش:

ـ"(معاذ) اتصاب؟ انضرب بالنار؟ خبطته عربية؟ قول جراله إيه بالزبط؟"

هرب بنظراته كيلا تلتقي نظرات (مازن) النارية وهو يهمس بأسى:

ـ"اتصاب بطلقة خرطوش في عينه... عينه الشمال راحت".

ضغط (مازن) فكيه في غضب اتضح في لمعة عينيه القاسيتين وهو يكرر من بين أسنانه:

ـ"حسبي الله ونعم الوكيل... شباب زي الورد راح ومستقبله اتدمر عشان اتجرأ يقول كفاية. هو فين (معاذ) دلوقتي؟؟ انت شفته؟"

أجابه (رأفت) بحزن يعتصره:

ـ"(معاذ) ا تصاب وهو بينقذني، ولما فُقت شفته واتصدمت. هو يبان متماسك بس الحقيقة إنه مدمر نفسياً وبيتحاشى الخروج برا المستشفى الميداني. عشان كدا ما رضيتش أقول لك ساعة ما سألت عنه يومها".

غامت عيناه بالحزن على حيوية (معاذ) وشبابه ومستقبله كطبيب أسنان يخطو أولى خطواته في عالمه المهني، اذا كان مقدراً له أن يخطوه من الأساس.

وبقوة مراجل الغضب التي تغلي في أعماقه نهض (مازن) بغتة والتقط أول حجر وقعت عليه عيناه ليلقيه بكل قوته نحو البلطجية صارخاً بصوت مخيف:

ـ"كلاااااب".

***

المعادي

الثامنة مساء

رأتها قادمة من بعيد، بنفس هيئتها القديمة ملثمة بوشاحها الفلسطيني الذي لم ينجح في اعتقال خصلاتها المتمردة خلفه.

شعرت بالسعادة لرؤيتها سالمة ورفعت ذراعها تلوح لها وتناديها بحماس.

ولم تكن صديقتها بانتظار الدعوة... فقد أتت من تلقاء نفسها لتقف أمامها دامعة العينين، قبل أن ينساب خيط رفيع من الدماء من جانب رأسها ليصبغ وجهها ووشاحها بلونه القاني.

همست باسمها لكن صوتها لم يتعد حشرجة مؤلمة أوجعتها دون أن تخرج بحرف مفيد من صحراء حلقها الجاف.

حاولت وحاولت دون جدوى، وهي ترى صديقتها تمد يدها إلى رأسها وكأنما تغمسها في دمائها، قبل أن تصافحها بذات اليد الملوثة بدمائها قائلة بقهر:

ـ"إوعي تسيبي تاري يا (منار).. هاتيلي حقي منهم.. إوعي تتنازلي عن حقي".

قالتها وابتعدت وسط ضباب كثيف، تاركة إياها تحدق في كفها مذهولة، قبل أن تفرج حنجرتها عن صرخة مدوية تحمل اسم (رنيم).

هبت من فراشها هاتفة باسم صديقتها التي قُتلت أمامها ببشاعة، وظلت تنظر إلى كفها الأيمن في رعب وكأنها ترى دماء (رنيم) به بالفعل. انتابتها رجفة قوية وهي تتذكر رسالتها الأخيرة في الحلم، في اللحظة التي أتى فيها والداها هرعاً بعدما أفزعتهما صرختها المذعورة.

تأملتهما بنظرات فارغة وكأنها لا تراهما، ثم مدت يدها تلتقط هاتفها وتضغط رقم (رأفت) لتأتيها رسالة مسجلة تفيد بأنه مغلق. لم تيأس وهي تبحث في سرعة عن رقم (مازن) لتطلبه ويخرج صوتها صريحاً للمرة الأولى منذ مساء الجمعة:

ـ" لو سمحت عاوزة أكلم (رأفت)".

لم تنتبه إلى زمجرة أبيها المستنكرة وهي تنتظر وصول زوجها إلى الهاتف، والذي قالت له بثبات ما إن وصلها صوته:

ـ" عاوزاك".

انتابه الحرج للحظات قبل أن يتنحنح ويسألها مستفهماً:

ـ"عاوزاني في إيه دلوقتي يا حبيبتي؟ حظر التجول بدأ وممنوع الخروج من البيوت".

أجابته بنفس الثبات:

ـ"احنا الاتنين صحفيين يا (رأفت).. يعني حظر التجول ميسريش علينا.. عاوزاك تيجي عشان تاخدني عندك.. في الميدان".

ارتفع صوت والدها الغاضب يرفض ما قالته، لكنها لم تنصت له لأن حواسها بأكملها كانت مع ذلك الآخر.. في الميدان.

** ** **

(٨)

المعادي

فجر الثلاثاء

١ فبراير ٢٠١١

أغلقت هاتفها بتوتر وتنهدت قائلة بقلق:

ـ"يارب سترك... معقول ماشافش ولا اتصال من المغرب؟"

قالتها وهي تطالع ساعة الهاتف لتجدها تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً، فتنهدت ثانية وقامت تصلي الفجر وتدعو الله أن يطمئن قلبها المضطرب.

ما إن أنهت صلاتها حتى لمحت وميض هاتفها الصامت الذي توقف حالما تناولته، فنظرت في شاشته بسرعة لتجده رقم زوجها الذي تحاول الاتصال به منذ فترة.

وقبل أن تفكر في الاتصال به عاد اسمه وصورته يظهران على شاشة هاتفها فأجابته في سرعة وهي تضع الهاتف على أذنها وتسمعه يهمس بعتاب:

ـ"يعني طول الليل بتتصلي، ولما اتصل أنا تسكتي؟"

هتفت في لهفة:

ـ" (مازن)... انت فين؟ عامل إيه؟ وليه مردتش عليا؟"

أجابها بضحكة مرهقة:

ـ" بالراحة بس. أجاوب على أي سؤال دلوقتي؟"

هتفت بنفس اللهفة:

ـ"كلهم. طمنني عنك. الأخبار ماتطمنش أبداً و...".

قاطعها قائلاً بهدوء:

ـ"طيب أنا عندي فكرة أحسن. افتحيلي الباب وانا أطمنك وجهاً لوجه".

حدقت في الهاتف للحظة قبل أن يتصاعد الشك في صدرها لتسأله بتوجس:
ـ"انت فين؟"
قال وهو يضغط جرس الباب:
ـ"واقف عالباب. وكلمة السر عشان تطمني أربعة احداشر ألفين وعشرة".
لم يكد يكمل جملته حتى سمعها تفتح مزاليج الباب في سرعة وتقفز لتتعلق عنقه كالأطفال وهي تهتف بارتياح:
ـ"الحمد لله إنك جيت".
فاجأه تصرفها وأثلج صدره أيضاً، ليحيطها بذراعيه هامساً بصدق:
ـ"مقدرش أتأخر عنك".
أبعدت وجهها عن عنقه لتدقق في ملامحه قبل أن تحيط وجهه بكفيها هامسة:
ـ"وحشتني".
اتسعت عيناه من الدهشة لتصرفها الغريب الذي ألجمه عن الرد عليها لثوان، ثم مالبث أن ابتسم لها قائلاً بود:
ـ"وانتي كمان وحشتيني. تعالي بس ندخل شقتنا".
وكأنما انتبهت فجأة إلى تهورها، أزاحت ذراعيها عن عنقه في حرج وقد اشتعلت وجنتاها خجلاً وهي تتركه وتهرع إلى الداخل.
لكنه لم يفلت كفها عن كفه الأيمن وهو يدخل الشقة ويغلق الباب خلفه ويوصده بيده اليسرى ويستدير إليها ليجذبها إليه هامساً بحرارة:
ـ"دلوقتي أقول لك وحشتيني بجد".
قالها وهو يغمرها بذراعيه ويدفن وجهه في شعرها ليتنسم رائحته التي يعشقها وهو يضيف:
ـ"وحشني صوتك وضحكك وهمسك وريحتك وكل حاجة فيكي".

ذابت وهي تسمع كلماته الدافئة التي افتقدتها طويلاً حتى تمنت لو يستطيع أن يدخلها بين ضلوعه كيلا تفارقه ثانية وهي تهمس بعتاب:

ـ"كنت هتجنن لما مردتش عليا. قلبي كان هيقف من الخوف عليك".

أبعد وجهها عن صدره واحتواه بين كفيه قائلاً في سرعة:

ـ"سلامة قلبك وعقلك يا عمري... إنشاله هو وعيلته".

ابتسمت لجملته العفوية وهي تتأمل الصدق في عينيه لتحيط كفيه براحتيها وتضغطهما برفق وهي تبثه شوقها عبر عينيها الزرقاوين اللتان أخرجتاه عن تماسكه ليروي ظمأه الذي طال في بعدها عنه، ويشعر بذراعيها يتعلقان بعنقه ثانية وكأنه طوق النجاة لها، ليحتويها بدفئه وشوقه البالغين.

لم تكن هي أقل منه شوقاً، لذا لم تمانعه حينها، ولا حينما أنهى استحمامه ليتخلص من إرهاق اليومين الماضيين.

فقد كانت في هذه اللحظة أنثى فقط تتوق شوقاً للقاء زوجها الذي تعشقه، حتى وإن لم تعترف بذلك.

وهو كان بحاجة إلى أي تلميح منها بأنها تريده كما يريدها،

وفي هذه اللحظة، كانت نظرات عينيها تكفيه ليتحرك.

***

اتكأ بمرفقه على الوسادة ليتأملها عن قرب وهي تداعب دبلة زواجهما في بنصره الأيسر وبعينيها نظرة حالمة أثارته فمال يلثم جبهتها برقة قائلاً:

ـ" لو فضلت اقول لك وحشتيني لبكرة مش هشبع".

ابتسمت في خجل وهي تقترب منه وتريح رأسها على صدره هامسة:

ـ"انت كمان وحشتني".

ثم ما لبثت أن عقدت حاجبيها وهي ترفع رأسها عنه لتمعن النظر في جزء أزرق بصدره تلمسته وهي تسأله بجزع:

ـ"(مازن) إيه اللي في صدرك دا"؟
وضع كفه على كفها فوق الكدمة واحتواها بذراعه الآخر قائلاً:
ـ"دا اللي خلاني معرفش أرد عليكي امبارح. من بعد ما سيبتك يوم السبت وفيه بلطجية بيهاجمونا في الميدان. والمكان عامل زي ساحة القتال. من العصر يبدأ تحديف الطوب من الجنبين، وبنقسم نفسنا فرق عشان ناس تحدف وناس ترتاح وكدا. وامبارح خدت الطوبة دي ولا كأنها صاروخ موجه، وهي اللي عملت الكدمة دي وكانت هتكسر التليفون".
رفعت نفسها قليلاً لتقبل الكدمة برفق قائلة:
ـ"سلامتك ألف سلامة. ربنا ينتقم منهم ويورينا فيهم يوم".
شعر بالتأثر من حركتها العفوية فقال بهدوء:
ـ"آمين يارب".
ثم تابع وهو يداعب شعرها قائلاً:
ـ"تعرفي أنا جيت ليه النهاردة؟"
أجابته مبتسمة في خيلاء:
ـ"عشان وحشتك طبعاً".
ضحك وهو يحتويها ثانية ويجيبها:
ـ"دا السبب الأول منكرش. بس فيه سبب تاني عارف انك عاوزاه".
أبعدت رأسها عنه في سرعة وهي تهتف في جذل:
ـ"أوعى تقول هتوديني المليونية النهاردة".
اتسعت ابتسامته وهو يهز رأسه بصمت فعادت تحتضنه وتغرق وجهه بقبلاتها هاتفة بسعادة:
ـ"يس.. بحبك يا (مازن).. بحبك. بحبك".
ثم عادت ترفع رأسها قائلة في حماس:
ـ"يالا قوم نجهز نفسنا".

جذبها إليه وعادت نظرته الخبيثة إلى عينيه وهو يقول:
ـ"لاا...لسة بدري. بعد تلاتة بحبك مينفعش اسيب التصريح دا يعدي كدا بالسهل".
ولم تعترض هذه المرة أيضاً.

***

التاسعة مساء

ميدان التحرير

افترشت الأرض إلى جانبه وهي تحتضن ركبتيها وتنظر بعيداً في شرود أصبح ملازماً لها منذ الجمعة السابقة، ولم تنتبه لهمسه الهادئ إلا حينما لمس كتفها برقة وهو يناديها بخفوت.
أجفلت وهي تدير إليه عينيها الخاويتين من أي تعبير قبل أن تهمس بصوت مشروخ:
ـ" نعم يا (رأفت)".
مس صوتها شغاف قلبه الذي انتفض للحظة بين ضلوعه قبل أن يبتسم بود ويقترب بوجهه منها ليتأمل ملامحها الحبيبة هامساً:
ـ"أنعم الله عليكي يا روح (رأفت)".
تخضب وجهها قليلاً من همسه واقترابه الجريء منها فتراجعت بوجهها قبل أن يلحظهما أحد المحيطين بهما في الميدان، بينما استدرك هو قائلاً بإشفاق:
ـ"ليه ما روّحتيش مع (علا) و(مازن)؟ كنت هابقى متطمن عليكي أكتر وانتي نايمة في بيتكم".
هزت رأسها في إصرار قائلة:
ـ"مش هاسيبك من النهاردة يا (رأفت)... إحنا هدفنا واحد ولازم نفضل سوا".

ثم ما لبثت أن رفعت رأسها قليلاً لتضيف بابتسامة حملت بعضاً من شقاوتها الماضية قائلة:

ـ" وبعدين الست الشاطرة تفضل جنب جوزها على طول عالحلوة والمرة.. ولا إيه؟"

اتسعت ابتسامته ومد يده يحتضن كفها الرقيق بين أصابعه قبل أن يرفعه إلى شفتيه ليلثمه برقة بعثت دفئاً غريباً في أوصالها وسط برد الميدان القارس.

ظل محتضناً كفها لدقائق وعيناه تتبادلان حديثاً طويلاً مع عينّي من اختارها قلبه لتكون رفيقته في هذه الحياة، ثم التقط نفساً عميقاً وهو يقول بلهجة من اتخذ قراراً هاماً:

ـ"ما دمتي مصرة تنامي في الميدان، يبقى لازم الكل يعرف انك مراتي بجد".

قالها وهو ينهض في سرعة ويجذبها من كفها لتقف بدورها إلى جانبه وتتبعه إلى حيث يأخذها.

اصطحبها إلى حيث تجمع بعض الشباب حول داعية شهير كان معهم في الميدان منذ مساء الجمعة، وانتحى به جانباً ليخبره بما انتواه، والذي انعكس في الابتسامة الواسعة التي ظللت وجه الشيخ الذي تهلل وجهه وهو ينظر إليها قائلاً ببشاشة:

ـ"ألف مبروك يا بنتي... أيوا بقى خلونا نفرح".

قالها وهو يستدير إلى الشباب هاتفاً بهم في حماس:

ـ"يا شباب... وسعوا لأخوكم (رأفت) وعروسته.. دلوقتي هنشهر زواجهم على الملأ".

وفي سرعة بدت لها كالحلم، رتب الشباب مكاناً يجلس فيه الشيخ و (رأفت) وهي متقابلين، بينما بدأ الشيخ خطبة موجزة عن الأمل في الغد،

وكيف أن ما واجهه الشباب ويواجهونه في الميدان لا ينفي أملهم في غد أفضل لهم ولأبنائهم.
وحينما أتم الشيخ إجراءات الإشهار، ارتفعت زغاريد جذلى من حناجر النساء والفتيات الذين ظلوا بالميدان بعد انتهاء المليونية.
وأمام الجميع، حرك (رأفت) دبلة (منار) الذهبية من بنصرها الأيمن إلى بنصرها الأيسر وسط صفير الشباب وتهليل وتصفيق المعتصمين.

شعور غريب انتابها في تلك اللحظة...
شعور هو مزيج من السعادة لكونها مع من اختاره قلبها، والدهشة لكم التهليل والتصفيق الحاد الذي أحاط حركاتهما، والترقب من المستقبل الغامض،
والأهم كان شعورها بنفس العبء الثقيل على قلبها؛
العبء الذي تحمله منذ الثامن والعشرين من يناير،
منذ شاهدت بعينيها مقتل ر...

كادت تستغرق في ذكريات لا محل لها في هذه اللحظة، وأنقذها (رأفت) وهو يرفع كفيهما المتلاحمين عالياً ليحيي رفاق الاعتصام.
حينها انتبهت لعشرات المهنئين الذين اقتربوا لتهنئتهم بشكل مباشر ساعدها في الابتعاد تماماً عن أي ذكريات سيئة.
ظلت هي وزوجها يستقبلان التهاني لفترة قبل أن ينفض الحشد من حولهما لينتبه إلى شاشة العرض الكبيرة التي تحمل في إحدى زواياها شعار شبكة إخبارية شهيرة استعداداً لنقل خطاب الرئيس الثاني
في ليلة الثاني من فبراير ٢٠١١.

***

العاشرة مساء

المعادي

فتح باب الشقة في سرعة ليتركها تدخل حاملة (مودي) النائم على كتفها في إرهاق، بعد يوم طويل قضاه معهما ومع مليون مصري آخر في ميدان التحرير.

كان اليوم بالنسبة للصغير فرصة للعب مع أطفال آخرين أحضرهم ذويهم من شتى محافظات مصر للمشاركة في المليونية التي تطالب بإسقاط النظام وترفض الوزارة الجديدة التي عينها الرئيس كوسيلة لامتصاص الغضب الشعبي.

أما بالنسبة لها، فكانت المرة الأولى التي تشارك فيها في هذه المظاهرات إلى جواره، بل وتهتف خلفه بسقوط الرئيس والمطالبة برحيله.

بُح صوتها من كثرة الهتاف معه ومع غيره من المشاركين بالميدان،

وذُهلت لوجود تلك الأعداد الغفيرة التي أتت لتقول كفى للظلم.

رأت (منار) صديقتها التي حاولت التغلب على أزمتها النفسية بعد ما مرت به في جمعة الغضب،

ورأت (رأفت) الذي ربط ذراعه في عنقه، لكنه لم يتوقف عن الهتاف معهم.

لكن أكثر ما آلمها كان (معاذ).. الطبيب الشاب من السويس وصديق (حمزة) كما فهمت.

فهذا الشاب المصري الرياضي فاره الطول أصبح منذ جمعة الغضب يغطي عينه اليمنى بعصابة سوداء.

كان هو الآخر ضمن مصابي هذا اليوم، وخرج منه فاقداً نور إحدى عينيه من رصاص الخرطوش.

ورغم ذلك، لم تختف البسمة عن وجهه البشوش، بل كان أحد الثوار البارزين في الميدان هذا اليوم وقد أصر على العودة إليه ليثبت أن إصابته مهما عظمت لن تُثنيه عن المطالبة بالحرية له ولشعبه

مرآه هكذا أدمت قلبها، رغم أنها لا تعرفه، وكذلك أدمت قلب (مازن).

ربما حاول زوجها أن يبدو طبيعياً وهو يقدمه إليها، لكنها لم تغفل عن لمعة الدموع في عينيه وهو يدير وجهه بعيداً ليصرخ بأقصى ما يمكنه "يسقط يسقط حسني مبارك".

كانت نفس اللمعة التي رأتها في عينيه فجر ٢٩ يناير حينما شرد بعيداً وتذكر ما مر به خلال اليوم السابق.

حاولت أن تصل إليه وسط الزحام لتضغط كفه وتُشعره بأنها تدرك ما يعتمل في قلبه، لكن الزحام حال بينهما واكتفت بأن تتواصل معه بعينيها مشجعة وهي تهتف خلفه "يسقط يسقط حسني مبارك".

كانت تريد المبيت بالميدان والاستمرار في الاعتصام معهم، فهي لن تكون الأولى التي تفعل ذلك.

ف(منار) ستبقى مع (رأفت)، هو يبيت في خيمته وهي تبيت في مسجد عمر مكرم مع باقي السيدات المعتصمات.

لكنه رفض ذلك وأصر على عودتها بالصغير الذي لن يحتمل برد ليل الشتاء في مكان مفتوح كميدان التحرير.

وانصاعت له وهي تصعد إلى سيارته مرغمة ووجهها يحمل شتى التعابير الطفولية الرافضة للعودة إلى المنزل. وهاهي تصل الآن حاملة شقيقها الذي سقط نائماً من الإرهاق على الأريكة الخلفية بمجرد أن تحركت السيارة مبتعدة عن الميدان.

دخلت غرفتها لتضع (مودي) في الفراش في رفق ثم خلعت حذائه وجوربه وأحكمت الغطاء حوله قبل أن تتركه وتخرج إلى الردهة حيث تركت (مازن).

وهناك وجدته متمدداً في إرهاق على الأريكة وقد أسبل جفنيه وبدا كالنائم في عمق، لكنه سرعان ما فتح عينيه واعتدل جالساً حينما سمع حفيف حذائها الرياضي ورفع بصره قائلاً:

ـ"هتعوزي حاجة مني دلوقتي؟ أنا راجع للشباب تاني".

عقدت حاجبيها قائلة:

ـ"راجع فين؟ انت تعبت قوي النهاردة يا (مازن).. ولو أنا غبت في أودة (مودي) كنت لقيتك نايم".

نهض راسماً ابتسامة خفيفة على وجهه قائلاً:

ـ"أنا منمتش.. أنا كنت بريح ضهري بس. وبعدين مفروض الريس هيقول خطاب تاني النهاردة ولازم أبقى في الميدان معاهم، يارب يتنحى بقى ويخلصنا".

ضربت الأرض بقدمها في عناد كالأطفال وهي تقول معترضة:

ـ"هو كل يوم في الميدان؟ حرام يعني تنام في البيت مرة؟"

اقترب منها وداعب وجنتها كطفلة صغيرة قائلاً بابتسامة واسعة:

ـ"يا توتي دا اسمه اعتصام، يعني لازم كلنا ننام هناك. وبعدين الصبح فيه ناس بتروح أشغالها عادي جداً زي ما أنا بروح الجورنال وأتابع الشغل فيه، وبعد كدا نتجمع كلنا من العصر ونفضل بايتين في الميدان لتاني يوم الصبح. يبقى أنا أبات هنا ازاي؟"

أمسكت ذراعه بتوسل قائلة:

ـ"طيب على الأقل نتغدى سوا.. إحنا من الصبح ما أكلناش غير بسكوت".

مط شفتيه في استسلام قائلاً:

ـ"جيتي عالجرح. أنا فعلاً جعان. خلاص اعملي أي حاجة سريعة وأنا هشوف في إيه في التلفزيون".
صفقت بكفيها في جذل كالأطفال وهي تهتف في سرعة:
ـ"حالاً هجهز لك الأكل".
وبالفعل قبل أن تنقضي نصف الساعة كانت تضع عدة أطباق ساخنة على المائدة وتذهب إليه لتوقظه برفق هامسة:
ـ" يالا الغدا جاهز".
منحها ابتسامة ناعسة والتقط كفها يلثمه في حب قائلاً:
ـ"تسلم ايديكي".
تلون وجهها خجلاً من لمسته وصحبته إلى المائدة ليأكلا في صمت قطعته أصوات الملاعق والأطباق الخزفية.
وبعد أن أنهى طعامه مسح شفتيه بالمنشفة قائلاً بهدوء:
ـ" الحمد لله.. أكلنا وشبعنا وريحت ضهري كمان. أنزل بقى".
وكأنما مسها تيار كهربي عنيف، انتفضت على مقعدها وهي تهتف به في حدة:
ـ"لأ مش هتنزل".
عقد حاجبيه في دهشة لحدتها غير المبررة بالنسبة له، وتجاهلها وهو ينهض من مقعده على المائدة متجهاً إلى الأريكة ليلتقط معطفه الثقيل.
لكن مازاد دهشته حتى الذروة كانت حركتها السريعة وهي تقفز من مقعدها وتجذب المعطف من يده في قوة قائلة:
ـ"قلت مش هتنزل يا (مازن)".
زفر في قوة وضغط فكيه في غيظ قائلاً:

ـ"استغفر الله العظيم... اللهم طولك ياروح. ممكن أفهـم الجنـان الرسـمي دا ليه؟ قلتي ريح ضهرك وريحته. قلتي نتغدى واتغدينا. مش عايزاني أنـزل ليه"؟

وضعت كفيها في خصرها قائلة:

ـ"إيه اللي مخليك ملهوف قوي كدا عالنزول؟ فيه إيه هتروح له هناك؟"

رفع حاجبيه بتعجب قائلاً:

ـ"(علا) انتي جالك زهايمر فجأة؟ حبيبتي إحنـا معتصـمين في الميـدان، ولازم أفضل معاهم هناك. أنا مش أقل منهم".

قالت بعناد:

ــ"غيابك مـش هيلغـي الاعتصـام. وبعـدين خـايف عـلى الاعتصـام قـوي ومفكرتش تخاف عليا أنا و(مودي) والبلطجية ماليين الشوارع؟"

عقد ذراعيه أمام صدره قائلاً بنفاذ صبر:

ـ"البواب وشباب كتير واقفين في اللجنـة الشـعبية تحـت البيـت. أنـا هقـف أعمل إيه؟"

هزت كتفيها كالأطفال وهي تجيبه:

ـ"مليش فيه. المهم متنزلش التحرير وخلاص".

لمعت عيناه للحظة وهو يخمن أمراً، لتلوح ابتسامة سـاخرة داخلهـما وهـو يتظاهر بأنه سأم مناقشتها، فجذب المعطـف مـن يـدها في قـوة واتجـه إلى الباب قائلاً:

ـ"لما تبقي تجيبي مبررات منطقية تقنعني أبقى اسمع كلامك".

ومرة أخرى تدهشه بجنونها وهي تهرع لتقف حاجزاً بينه وبين باب الشقة هاتفة بشراسة:

ـ"والله ما انت نازل هناك. وأديني حلفت. وريني بقى هتعمل إيه".

انطلق شرار الغضب من عينيه وهو يهتف بحنق:

ـ"انتي بتحلفي عليا وتتحديني يا (علا)؟ انتي أكيد اتجننتي. طيب حلفان على حلفانك مش قاعد في البيت. ووريني انتي بقى هتعملي إيه".
شعرت للحظة بغباء تصرفها ولجوءها للحدة، في حين كان يمكنها إقناعه بالبقاء بطريقة أفضل،
واستكمالاً للغباء هتفت به في غيظ:
ـ"يبقى كلام التلفزيون صح. طول الليل طبل وزمر ومخدرات وبنات والدنيا هايصة".
ضغط ذراعها بقوة آلمتها وهو يهتف من بين أسنانه بغضب أعماه:
ـ"شكلك اتجننتي رسمي. مخدرات إيه وبنات إيه وكلام فارغ إيه؟ انتي بتتهميني أنا بالكلام دا؟ أنا هنزل الميدان عشان كدا يا (علا)؟ هو دا رأيك فيا؟"
شحب وجهها أمام غضبه ولهجته القاسية التي أعادت لها ذكريات لا تريد تذكرها، فغمغمت بخوف:
ـ"كل البرامج بتقول كدا. لما أشوفهم بيقولوا إن فيه ممارسات خارج نطاق الزواج في الميدان أفهم إيه؟ ولما ألاقي جوزي مُصر ينزل ويسيبني ويختفي عني بالأيام من غير حتى ما يتصل افهم أنا إيه؟"
شدد من قبضته على ذراعها وهو يقول بقهر:
ـ"تفهمي إيه؟ تفهمي إنهم بيشوهوا صورتنا ياهانم. انتي لما جيتي الصبح شفتي حاجة مريبة؟ شفتي بنت سلوكها مش محترم أياً كان شكل لبسها أو معتقداتها؟ وحتى لو فرضنا جدلاً_ ودا من عاشر المستحيلات_ إن فيه تجاوزات صحيح... إزاي تصدقي إني ممكن أعمل كدا؟ ازاي تتهميني في شرفي وإني ممكن أزني بأي واحدة لأي سبب؟ خلاص (مازن) بقى سافل وزبالة وبتاع ستات من يوم ما ساب البيت؟"

ثم أفلت ذراعها في قسوة وتحولت لهجته إلى السخرية اللاذعة وهو يقترب من وجهها هامساً:

ـ"إزاي تفكري فيا كدا النهاردة بالذات؟ طب واللي حصل بيننا الصبح دا يبقى إيه؟"

حدقت في نظرة عينيه القاسية برعب أخرسها وهي تشعر بأنفاسه الحارة تلفح وجهها بقوة، وعقلها يعمل في جميع الاتجاهات ليتوقع حركته القادمة.

أما هو فثبت نظره علي وجهها للحظات تعمد أن يطيلها ليزيد من ارتباكها وهي تطالعه بترقب قبل أن يقول بسخرية:

ـ"يعني ما رديتيش. أنا أقول لك يبقى إيه".

قالها وهو يستدير ليلقي المعطف على طول ذراعه قائلاً:

ـ"مادام الموضوع بقى ستات مش ثورة...".

وعاد يواجهها بابتسامة شرسة متابعاً:

ـ"أنزل ليه وإنتي موجودة؟"

ازدردت لعابها الجاف وهي تحدق في نظراته الغريبة وتلعن غبائها ألف مرة لأنه أيقظ المارد الغاضب بداخله، والذي لا قِبل لها به.

وقبل أن يباغتها بالهجوم كانت تنحني في مرونة وتفلت من تحت ذراعه هاربة إلى غرفتها التي أغلقت بابها بالمفتاح ووقفت خلفه تلهث وكأنها أنهت للتو سباقاً لأميال.

أما هو فتنهد في قوة وهز رأسه في ضيق وهو يعود ليلتقط معطفه عن الأرض ويلتقط حقيبة الحاسب ويغادر المنزل وهو يصفع الباب خلفه في قوة.

***

هبط درجات السلم بأسرع ما تسمح به ساقه المصابة، وكأنه يسابق الـزمن لمغادرة البيت الذي يشعر بجدرانه جاثمة على صدره.
لم يكن ضيقه بسبب هروبها منه، فهو كان يثير ارتباكها فقط؛
لكنه كان يشعر بالاختناق لحجم الشائعات التي طالـت الجميـع ولم تفـرق بين رجل وامرأة.
فكالعـادة لجـأ الإعـلام المغـرض إلى تشـويه سـمعة المتظـاهرين وتلويثهـا بالباطل كوسيلة لإثناء الشعب عن الانضمام إلى الميدان،
وما من شك في أن نبرة التشـويه سـتزداد اليـوم بعـد نجـاح المليونيـة التـي تجاوزت أعداد المشاركين فيها المليون شخص بين رجال ونساء وأطفال.
ومن أعماقه انطلقت زفرة حارة كانت كفيلـة بـإحراق مـن يقـف أمامـه في هذه اللحظة من قوتها.
كيف سولت لهم أنفسهم الخوض في أعراض الناس بهذا الشكل الحقير؟
وكيف استطاعوا أن يتهموا الشرفاء بهذه التهم الباطلة؟
ألا يكفي عشـرات القـتلى الـذين سـقطوا وهـم يهتفـون بسـلمية مطـالبهم ومظاهرتهم؟
ألم يروا شهداء في ريعان الشباب كـان آخـر عهـدهم بالـدنيا وأول عهـدهم بالآخرة ابتسامة رضا بالجنة؟
أطلق زفرة أخـرى أشـد قـوة وهـو يفـتح بوابـة المنـزل الحديديـة الموصـدة بإحكام ويخرج ويعيد إغلاقهـا حيـنما تناهـت إلى مسـامعه أصـوات رجـال مرتفعة ويبدو أنها في نقاش عنيف.
لفت انتباهه وسط تلك الأصوات المتناحرة صوت حـارس العقـار الصـعيدي وهو يهتف في حنق:
ـ"ست شهور إيه واد الفرطوس ده؟ وانتوا عتصدجوا كلامه؟"

وبشكل غريـزي وجـد نفسـه يتجـه إلى حيـث جلـس مجموعـة مـن رجـال المنطقة متحلقين حول قطع أخشاب مشتعلة للتدفئة وأمامهم جهـاز تلفـاز صغير ينقل خطاب الرئيس الثاني.

أمـا الشـباب فكـانوا يقفـون عـلى بُعـد خطـوات قليلـة وبأيـديهم هـراوات خشبية وصواعق كهربائية تحسباً لأي هجوم من البلطجية والخـارجين عـلى القانون.

لمحه الحارس فهب واقفاً وهو يرحب به بصوت مرتفع:

ـ"أستاذ (مازن)...نورت يا سعادة الباشا. أخبار الميدان على حسك إيه؟"

ارتسمت ابتسامة باهتـة عـلى شـفتي (مـازن) وهـو يجيبـه وبصـره معلـق بالتلفاز:

ـ"كان تمام لحد ما رجعت من ساعتين يا عم (بشندي)... هو الـريّس خَلّـص الخطاب بتاعه"؟

أشاح العم (بشندي) بذراعه في حنق قائلاً:

ـ"خلِص إلهي تِخلص روحه البعيـد. واد الفرطـوس دِه بيتمجلـت علينـا ولّ إيـه؟ جـال سـيبوني أخلـص مـدتي ويبجـى انتجـال سـلمي للسـلطة. داجـين عصافير إحنا إياك".

حاول (مـازن) أن يكـتم ضـحكته عـلى عبـارة العـم (بشـندي) التـي نقلـت ببساطة شعور الكثيرين ممن رفضوا خطاب الرئيس، و (مازن) أحدهم دون شك، لذا سأله في اهتمام:

ـ"يعني انت مش موافق على اللي قاله الريس يا عم (بشندي)؟"

أشاح العجوز، الذي تجاوز الستين من عمر ه لكنـه لا يـزال صـلباً كأهرامـات مصـر، بذراعه ثانية وهو يجيبه بامتعاض:

ـ"ولا عيدخل ذمتي بنكلة. مفكر نفسه عيضحك علينا بالكلمتين دول؟ جال إيـه حنفـز التغيـيرات الـلي انتـوا عاوزينهـا... كنـت فـين مـن تلاتـين سـنة؟

منفزتش ليه وجتيها؟ داي دلـواك تجـول طلبـاتكم أوامـر؟ بجـى يعنـي دِه كلام يخش النافوخ يا أستاذ؟"

رفع (مازن) حاجبه في إعجاب ببداهة الرجل وعفويته في إبداء رأيـه، وهـمّ بالرد عليه حينما سمع صوت أحد الرجال الموجودين يقول معترضاً:

ـ"يعني هو عشان بتشوف الأخبار كل يوم يا (بشندي) خلاص بقيت محلـل سياسي؟ والله أنـا شـايف إن كفايـة كـدا وكـل واحـد يرجـع بيتـه ويشـوف مصلحته، وخلوا البلد تمشي".

اتسعت عينا (مازن) من حديث الرجل الـذي بـدا مـن ملابسـه الراقيـة أنـه أحد السكان المقيمين بالعمارة معهم، وحاول أن يرد عليه بأقصـى درجـات الهدوء قائلاً:

ـ"اسمح لي حضرتك... بس كلام عم (بشندي) صح. يعنـي هـو بقالـه تلاتـين سنة بيحكم عمره مـا فكـر يسـمع صـوت غـير صـوته وصـوت الشـلة الـلي حواليه. وعمره ما فكر يفيد غير نفسـه وعيلتـه. إيـه الـلي يخلينـا نثـق إنـه هيلحق في الست شهور دول يعمل اللي إحنا عاوزينه؟"

ربت العم (بشندي) على كتفه في فخر وهو يقدمه إلى الرجال قائلاً:

ـ"الأستاذ (مازن عاشور) الصـحفي، دوز الأسـتاذة (عـلا) بنـت الباشـمهندز (صفوت السباعي) الله يرحمه".

رحب به الرجال ودعوه إلى الجلوس معهم وهم يتناقشون فيما بينهم حول الخطاب الذي توقع البعض أن يحمل بشرى تنحي الرئيس، قبل أن يحبطهم بما جاء فيه.

وما بين مؤيد ومعارض للبقاء في الميدان، شـعر (مـازن) بمـدى خبـث ومكـر الشخص الذي وضع خطاب الرئيس ليفصم عرى الشعب الذي اتحد أغلبه_ بعد طول شقاق_ على ضرورة التخلص من هذا الحكـم الظـالم الـذي أطبـق على أنفاس الجميع طويلاً.

فبعد هذا الخطاب، انقسم الشعب ثانية بين من يدعون إلى استمرار الاعتصام حتى إتمام الثورة، ومن يدعون إلى فض الاعتصام كيلا تتعطل عجلة الإنتاج.

شعر باختناق فعلي_ رغم هواء الشتاء البارد_ ليستأذن من الرجال ويُجري إتصالاً هاتفياً ب (رأفت) في الميدان يعرف منه ردود الأفعال،

وكم كانت ردود الأفعال مخيبة للآمال.

فقد جاءه صوت (رأفت) محبطاً وهو يكاد يبكي قائلاً:

ـ"الناس بدأت تروّح بيوتها يا (مازن). الاعتصام خلاص صفصف علينا. الميدان اللي كان فيه أكتر من مليون واحد الصبح بقى دلوقتي فيه أقل من عشرين ألف. إحنا ضيعنا يا (مازن)".

عقد (مازن) حاجبيه في شدة وشعور الاختناق يتعاظم داخله حتى أنه خلع الكوفية الصوفية المحيطة برقبته وفتح أزرار قميصه العلوية وهو يهتف في حدة:

ـ"متقولش ضيعنا. إحنا على حق وهما اللي على باطل. مشميتش ريحة المسك فايحة من الشهدا؟ إحنا بدأنا الاعتصام ومش هنفضه لو على موتنا. يا نعيش أحرار يا نموت شهدا يا (رأفت)... مش هو دا شعارنا؟"

أجابه (رأفت) بنفس الإحباط:

ـ"أيوة شعارنا ومفقدتش إيماني بيه. بس أديك شايف... الناس بتقول كفاية اللي الريس وافق عليه لحد دلوقتي. الوزارة واتغيرت والعادلي واتشال وهو قال مش هرشح نفسي للرئاسة ولا هرشح ابني، يبقى متشكرين على كدا".

هتف به في قوة:

ـ"(رأفت)... إحنا انضربنا في الميدان بالغاز والخرطوش والرصاص الحي وشفنا الموت بعنينا.. الناس اتهرست تحت عربيات الأمن المركزي وعربية

السفارة الأمريكيـة قـدام عنينـا. اتحـدفنا بـالطوب مـن البلطجيـة بتـوعهم وبرضه فضلنا صامدين. مش هنستسلم دلوقتي".

ثم أردف في سرعة:

ـ"أنا جاي لك الميدان دلوقتي".

أتاه صوت (رأفت) مشوشاً للحظات قبل أن يميز قوله:

ـ"لأ خليـك عنـدك وتعـالى الصـبح. الوقـت اتـأخر أصـلاً واللجـان الشـعبية مشددة الحكاية حوالين الميدان. مانعين أي حد يـدخل بأكـل أو شرب لينـا.. بيكملوا الحصار."

هتف (مازن) في غضب:

ـ"حصار؟ طيب أنا جاي وهجيب معايا أكل وخلي حد فيهم يمنعنـي أدخـل ويشوف هيجراله إيه".

ليأتي صوت (رأفت) ضاحكاً وهو يقول:

ـ"يا عم انت بلاش شغل العافية دا. إحنا مش عايزين حاجة. وبعدين أهـي الدنيا بدأت تمطر كمان.. يالا كملت. جات عالشتا يعني"؟

شعر وقتها (مازن) بقطرات المطر التي بدأت تتساقط عليه في بطء قبـل أن تتسارع وتيرتها فجأة ليهرب منها إلى مـدخل العـمارة وهـو يقـول لصـديقه ضاحكاً:

ـ"على رأيك... مين عارف؟ يمكن يبقى المطر دا فاتحة خير علينا. خلوا بالكوا من نفسكم، وإن شاء الله هتلاقيني فوق راسك بصحيك الصبح كالعادة".

وافقه (رأفت) قائلاً:

ـ"أوك يا زعيم.. صحيح بيقولو النت رجع تـاني. اتأكـد كـدا وحـاول تشـعلل الحماس على الفيس مع الناس اللي تعرفهم. ولو ينفع تدخل عـلى الصـفحة اللي قلتلك عليها.. طريق الحرية دي. حاول تكلم الادمن وتحمس الأعضـاء. يالا نستغل وجودك في البيت النهاردة".

قالها وأنهى الاتصال، بينما جثم شعور الاختناق على صدر (مازن) الذي التفت ليجد رجال اللجنة الشعبية رفعوا مقاعدهم الخشبية إلى رصيف العمارة ولا يزال النقاش مستمراً فيما بينهم.

حينها أتاه العم (بشندي) بمقعد خشبي قائلاً بابتسامة ودود:

ـ"اتفضل يا أستاذ يا رافع راسنا في التحرير. دلواك حتشرب كوباية شاي صعيدي تحلف بيها من يد عمك (بشندي)، وبعدها تدعيلي".

ابتسم (مازن) وهو يلتقط منه المقعد الخشبي ليجلس عليه في مدخل المبنى بينما اتجه العجوز إلى جذوة الأخشاب المشتعلة ليلتقط إبريق الشاي الذي أخفى الدخان الأسود معالمه، ويصب القليل منه في كوب زجاجي نظيف حمله إلى (مازن) قائلاً بوجه بشوش:

ـ"اتفضل. الكوباية نضيفة ومرتي غاسلاها بالصابون والله".

التقط (مازن) الكوب منه وابتسامته تظلل وجهه قائلاً بأريحية:

ـ"هو إحنا لسه هنعرفك يا عم (بشندي). ريحة الشاي بتاعك دا بتطلع لنا فوق في الشقة ومن زمان نفسي أدوقه. اتفضل اقعد".

جلس العجوز إلى جواره على مقعد آخر وهو يراقب (مازن) يفتح حاسبه الشخصي ويفعل بعدها عدة أشياء لا يفقهها، لكنها تشبه ما يرى الشباب يفعلونه في مقهى الانترنت المجاور.

أما (مازن)، فما إن فتح حاسوبه وتأكد من التقاط إشارة الانترنت اللاسلكية من شقة (علا) حتى فتح موقع فيس بوك ومنه مباشرة إلى صفحة "طريق الحرية".

هاله كم التعليقات الموجودة على الصفحة من الشباب من مختلف التوجهات والآراء، والذين اختلفوا فيما بينهم حول الخطاب وما ينبغي أن يحدث بعده.

جرت عيناه على التعليقات سريعاً قبل أن يلفت انتباهه تعليقاً استفزه للغاية

فقد كتبت صاحبته " مش هقول صح أو خطأ... هقول كان فيه صرخة مخنوقة وطلعت رغم إصرار البعض على خنقها. هقول الأزمة عرفنا فيها معادن ناس وناس. هقول الأزمة نجحت في التغيير اللي كان من عاشر المستحيلات. وهقول يا شعبنا اعتقد كدا كفاية. حققنا اللي كنا عايزينه... نستنى الوفاء بالوعد وإذا محصلش ميدان التحرير موجود والأمن استوعب الدرس. أصلًا خلاص رجعت الشرطة في خدمة الشعب. يبقى نحافظ على اللي وصلنا له لإن الطمع يقل ما جمع".

شعر بالغيظ من كاتبة التعليق حتى أنه دخل صفحتها ليعرف المزيد عنها.

لم تكن صفحتها متاحة للجميع لكن ما لفت انتباهه كان اسم المستخدم والصورة الرمزية

فالاسم كان "عنان السماء"

أما الصورة فكانت لآخر شخص يتوقعه الآن

***

حدق في صورة (مودي) التي تزين صفحة تلك العضوة، ليصبح على يقين تقريباً من أنها (علا) زوجته، فمن غيرها ستضع صورة (مودي) التي صورها له بنفسه في شرم الشيخ؟

شعر بالغيظ يتزايد بداخله ليعود إلى صفحة "طريق الحرية" ويكتب في أعلاها منشوراً جديداً موجهاً لها ولكل من يشاركها الرأي.

شعر ببعض الارتياح حينما أرسل البوست، وظل يترقب التعليقات عليها وهو يرتشف الشاي الصعيدي الساخن ليدفئ أوصاله، بينما توالت التعليقات ما بين مؤيد لرأيه ومعارض،

لكنها لم تعقب على ما كتبه.

لذا أدار وجهه إلى العم (بشندي) يسأله باهتمام:
ـ"تفتكر يا عم (بشندي) الكلام اللي بيقولوه عن اللي في التحرير دا صح؟"
ابتسم العجوز ليظهر فمه الخالي من نصف الأسنان الأمامية وهو يقول بمكر ريفي:
ـ"تجصد أنهي كلام فيهم؟ الكونتاكي ولا النسوان؟"
ارتسمت الدهشة واضحة على ملامح (مازن) بشكل دفع العم (بشندي) للضحك بصوت عالي قبل أن يعود إلى هدوءه ويجيبه قائلاً:
ـ"شوف يا سي الأستاذ. أني عدوز صوح، بس بفهم شوية على جدي. دلواك الشباب اللي زي الورد اللي نزل من يوم التلات دِه كان نازل ليه؟ يعني الدنيا ضاجت في خلجته مش لاجي حتة يعمل فيها دماغ غير أكبر ميدان فيكي يا مصر؟ ويعني الدماغ دي تستاهل إنه ينطخ بالنار ولا ينسحل كيف الدبيحة؟ مهو اللي تهون عليه نفسه إكده يبجى أكيد هدفه أكبر من الدنيا. لما العساكر رشوا عليكو خراطيم المية في عز طوبة معاودتوش على بيوتكم ليه؟ لما ضربوا عليكو الغاز ما هَرَبتوش ليه؟ لما طخوا واحد وتَنين وعشرة منفدتوش بدلدكو ليه؟ ولما دهسوا عشرة وعشرين وجفتوا مكانكم ليه؟ لو اني معافهمش صوح فهمني انت. هو فيه دماغ تستاهل دا كلاته؟ ولا فيه حرمة أصلاً تستاهل انك اتضحي بحياتك إكده عشانها؟"
لمعت عينا (مازن) بالإعجاب لحديث العجوز الذي واصل بنفس الابتسامة الواثقة:
ـ"وبعدين يعني اللي اتبلوا على أعراض الناس دول مين؟ جالولك عليهم شيوخ في الأزهر؟ هما أصلاً طبالين ورجاصين ولا أعدهم وسط الرداله واصل. دول كلاب الريّس، مكان ما يجول انبحوا ينبحوا، ولا هما فاهمين عينبحوا على إيه".
ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه (مازن) وهو يقول بحماس:

ـ"كمّل يا عم (بشندي) الله يرضى عليك. دا انت اكتشاف".
ضحك العجوز ثانية وهو يتابع:
ـ"حكاية الكونتاكي دي بجى نكتة صوح. نفسي أفهم حمار مين اللي فكِر فيها. بجي العالم مش لاجية تاكل وتجول لهم الدواسيس في التحرير بيوزعوا عاللي يروح فلوس وكونتاكي؟ لا وكمان حريم ومخدرات. دا الي ملوش في السياسة واصل راح الميدان عشان يشوف الكونتاكي دِه شكله كيف، ولّا عشان يعمل دماغ. وجال إيه الصعايدة تفكيرهم على كَدهم. دا انتوا محصلتوش حمير عدم اللامؤاخزة".
اتسعت ابتسامة (مازن) وهو يسأله باهتمام:
ـ"يعني انت مش مصدق الإشاعات دي يا عم (بشندي)؟ الله يخليك قول الحق على طول كدا. عرّف الناس هنا إننا مش بتوع كلام فارغ. إحنا نازلين أرواحنا على كفوفنا عشان البلد دي تنضف".
ربت العجوز على ذراعه قائلاً بقوة:
ـ"ماتخافِش يا ولدي... وراك ردالة إهنيه بيدافعو عنيكم. أني كان نفسي أروح وأشارك معاكم، بس جولت أسيب الميدان للشباب الهتيفة وأجعد إهنيه أحمي الحريم. وأديك شايف مفيش دِنس مُدرم يجدر يهوب النواحي دي... يتشاهد على روحه الاول".
ربت (مازن) بدوره على كتف العجوز قائلاً بفخر:
ـ"والله يا عم (بشندي) انت ما تقل عن اللي معانا في الميدان... كفاية روحك دي وقناعتك إننا على حق. لو الناس تسمع كلامك دا أكيد اللي معانا هيزيدوا إن شاء الله".
تنهد العجوز بقوة قائلاً:
ـ"إن شاء الله الناس عتفهم وتجف معاكوم. المهم تخلصونا من بوز الإخص اللي كاتم على نفسنا ليه تلاتين سنة ديه. جال وكان عايز يخلي ولده ريّس

بعده. والله كان الردالة نزلوا من الدبل طخوه وعاودوا تاني... ولا من شاف ولا من دري".

لم يتمالك (مازن) نفسه من الضحك على عبارة العجوز الأخيرة، رغم أنه شعر فيها بنوع من المرارة الخفية التي دفعته ليسأله:

ـ"هو انت ليك تار بايت عند الريس ولا إيه يا عم (بشندي)"؟

لاح الحزن واضحاً بعيني العجوز الذي اختنق صوته بالعبرات وهو يجيبه بألم:

ـ"وهو فيه دار فيكي يا مصر ملهاش تار معاه؟ من جبليها لبحريها ظُلمه علّم عالبيوت والشوارع والوشوش. وآني واحد م الوشوش دي".

تحفزت ملامح (مازن) لحديث العجوز وهو يقول باهتمام:

ـ"ينفع تحكيلي اللي حصل؟ ولا سر؟"

ضحك العجوز في سخرية وهو يقول:

ـ"سر؟ معادش فيه حادة تستخبى يا ولدي. الرادل ده حرج جلبي وجلب أبوي جبل مني... يامين يحرج لي جلبه ويبرد ناري بس".

وبدأ العجوز يحكي...

** ** **

(٩)

الأربعاء ٢ فبراير ٢٠١١

الساعات الأولى من الفجر

المعادي

أجفلت حينما سمعت صفعة الباب القوية، وانتظرت قليلاً قبل أن تخرج إلى الردهة لتجده قد غادر.

نظرت حولها في إحباط لتزفر بقوة قبل أن تتجه بخطوات غاضبة إلى الأريكة حيث كان يرقد قبل قليل، فجلست وأشعلت التلفاز في ضيق لتجد الرئيس يلقي خطابه الثاني إلى الشعب.

تابعته وهي تشعر بتشوش غريب،

فهو يعد شعبه بالاستجابة لمطالب الثوار من ديمقراطية وحرية وتغيير وتحسين لسبل المعيشة.

لكنه يطالبهم أيضاً بتركه في منصبه حتى انتهاء مدة رئاسته بعد ستة أشهر ليضمن الانتقال السلمي للسلطة دون المساس بمقدرات الدولة وسلامتها.

وانتهى الخطاب المنتظر، ولم يعلن الرئيس عن تنحيه،

بل إنه قالها بوضوح، إنه لن يغادر منصبه ولن يغادر مصر حتى يموت.

وازداد التشوش داخلها..

هل هذا ما يريدونه حقاً في الميدان؟ أم أنهم يريدون تنحيه عن الحكم دون قيد أو شرط؟

لوهلة ظنت أنه يهزأ بالشعب بمثل هذا الخطاب العقيم؛

لكنها عادت تتخيل أن بقاء الثوار في الميدان يعني استمرار حالة الفوضى الأمنية، ومن ثم استمرار اللجان الشعبية،

والأهم من ذلك بقاء (مازن) بعيداً،

هناك... مع هؤلاء الفتيات.
"استغفر الله العظيم... الله يلعنك يا إبليس".
قالتها وهي تهز رأسها في عنف لتنفض عنه فكرة خيانة (مازن) كما يدّعي البعض في البرامج التلفزيونية على القنوات المصرية.
وبضيق بالغ أغلقت التلفاز والتفتت تلتقط حاسبها الشخصي وتفتحه في ملل لتفاجأ بوجود إشارة انترنت لاسلكية وأن مصر عادت إلى العالم المتحضر بعودة خدمات الانترنت.
ابتسمت كطفل عادت إليه لعبته المفقودة وهي تفتح موقع فيس بوك في سرعة لترى ما يقوله الشباب عن هذا الخطاب، وعن الثورة بشكل عام.
وبشكل غريزي فتحت صفحة "طريق الحرية" لترى تعليقات الأعضاء على منشورات قديمة لمدير الصفحة.
منهم من كان يبارك عودة مصر إلى الألفية الثالثة؛ ومنهم من كان يؤيد الثورة ويسأل مدير الصفحة عن موقعه الحالي وهل هو بالميدان أم لا؛ ومنهم من كتب يؤيد خطاب الرئيس على استحياء، وهم قلة.
وللحظة تمثلت أمامها الافتراءات التي يعج بها الإعلام المصري ويقذف بها الثوار الشرفاء، وبدلاً من أن تكتب لتؤازر الثوار، وجدت نفسها تكتب تعليقاً باللغة العامية تدعوهم فيه إلى العودة إلى ديارهم والاكتفاء بما حققوه من انجازات لم يحلموا بها قبل ٢٥ يناير.
أرسلت التعليق وخرجت بعدها من الصفحة حينما لاحظت أن مدير الصفحة لم يدخلها بعد.
ظلت تتصفح الموقع لدقائق لترى صوراً وتسجيلات لأحداث جمعة الغضب وما عاناه المتظاهرون فيها في مختلف المحافظات،
ورغماً عنها وجدت جسدها يرتجف في قوة ودموعها تنهمر على وجنتيها أنهاراً.

لم تتخيل أن تحدث كل تلك الانتهاكات في يوم واحد، بل وأن تتشابه فيما بينها رغم اختلاف المحافظات، وكأن قوات الأمن تتعامل مع الثوار بناء على خطة مسبقة.

وللحظة شعرت بأن الخطاب الأخير ربما ينطوي على خدعة سياسية تهدف إلى تفريق الشمل وتجريد الثوار من تعاطف باقي الشعب.

حينها شعرت بنوع من تأنيب الضمير على ما كتبته قبل قليل، فعادت تفتح صفحة "طريق الحرية" لتحذف تعليقها،

لكن ما أدهشها كان رد مدير الصفحة في أحدث منشور له قبل دقائق.

كان منشوره يبدو وكأنه رد خاص على ما كتبته.

رد خاص يحمل رسالة خفية لها.

فقد كتب يقول " إحنا نزلنا وطلعنا الصرخة اللي جوانا، وبرضه عرفنا معادن ناس كتير. أه وصلنا لتغيير مكناش نتخيله، لكن طريق الرجوع اتقفل. دي كدا نصف ثورة، ومن يقومون بأنصاف الثورات يحفرون قبورهم بأيديهم. مكملين للآخر، مش لإننا طماعين، بس لإننا معدناش بنقتنع بأنصاف الحلول. الثورة دي عملها رجالة هما اللي هيفضلوا ثابتين في الميدان. رجالة نزلت أرواحها على كفها عشان البلد، مش عشان ياخدوا فلوس ومخدرات ويعملوا علاقات غير شرعية. الثورة دي عملها شرفاء أنضف من أي شخص يتهمهم بالباطل. عموماً معادنا بكرا وبعده والجمعة وكل يوم حتى يسقط النظام بإذن الله".

شعرت بأن منشوره يرد على الاتهام الذي وجهته للتو إلى زوجها كما لو كان يعلم بما فعلت..

أيكون أحد أصدقاء (مازن)؟

ربما يكون (رأفت)، فهو الذي أخبرها وأخبر خطيبته بإسم الصفحة.

ظلت تتأمل الرد للحظات تصاعد خلالها العناد في رأسها لتغلق الحاسب في غيظ وتنهض في عصبية متجهة إلى الحمام علّ مياه الاستحمام الدافئة تهدئ من أعصابها المتوترة.
خرجت بروبها القطني الثقيل بعد أن جففت شعرها في الحمام بمجفف الشعر، واتجهت إلى غرفتها لتستبدل الروب بملابس شتوية ثقيلة وتصلي العشاء والتهجد والوتر مرة واحدة.
ثم عادت إلى الردهة تراقب قنوات التلفاز المختلفة التي كرست وقتها للتعليق على خطاب الرئيس العاطفي بشكل مستفز أكثر عاطفية، فأغلقت التلفاز ثانية بضجر لتتمدد على الأريكة وتتدثر بالغطاء الخفيف الذي تُغطي به أخاها حينما ينام أمام التلفاز.

ورغم ضيقها وشعورها بالاختناق مما حدث خلال اليوم، جاءها النوم يهرول بأقصى سرعة ليداعب أجفانها وتغرق في سبات لذيذ.
لكنها لم تهنأ بالنوم للأسف،
فقد طاردتها الكوابيس والهواجس غير المترابطة وهي تدخل بيوتاً وترى أشخاصاً لا تعرفهم، وتتعرض لمواقف غريبة تغوص فيها في رمال ناعمة سرعان ما تتحول إلى أمواج بحر هادرة تجذبها نحو الأعماق، إلى أن وجدت نفسها أخيراً في بيتها.. أو هكذا بدا لها.
كان هذا أوسع.... وأكثر إضاءة،
مهلاً... إنها النوافذ والشرفات.... كلها مفتوحة، والرياح تهب عبرها بقوة لتهز الستائر وتزلزل كريستال الثريا ليصدر أصوات تصادم مزعجة.
حاولت الاقتراب من النوافذ لتغلقها، فهي لا تحب الرياح؛
لكنها لم تجد النوافذ التي تعرفها..
فهذه أكبر ولا مصاريع لها!!

ما هذا؟؟؟ من أين أتت تلك البنايات الشاهقة؟
إنها لم تكن يوماً بهذا القرب من بيتها... فكيف اقتربت؟
ومن هؤلاء على أسطح البنايات؟
حاولت التدقيق في هيئة الواقفين لكنها لم تتبين هويتهم،
ربما لأنهم ملثمون،
وربما لأنهم فجأة وبدون سابق انذار انهالوا عليها بوابل من الرصاص.
شعرت بطلقات الرصاص تعبر من حولها بأزيز مخيف لتتعداها وتستقر في قطع الأثاث خلفها؛ وسمعت أصوات تهشم المزهريات الزجاجية؛ وسمعت صوت سقوط الثريا خلفها بأقل من سنتيمترات...
كل هذا وهي واقفة كالمجمدة، لا ترمش بعينيها، ولا تصرخ طلباً للنجدة..
ربما ماتت؟
لكنها لا تشعر بالألم،
وهذا ما يؤكد أنها ماتت.
لا يُعقل أن تتطاير طلقات الرصاص هكذا حولها دون أن تصيبها أي منها.
إذن فقد ماتت..
"لقد أصبحت شهيدة، وسأنضم لأسرتي أخيراً"
ولكن مهلاً.. أنت لا تؤمنين بعدالة القضية، فكيف تكونين شهيدة؟
وفجأة وجدت نفسها تتحرك وهي تمد ذراعها في إصرار خارج النافذة لتغلقها، وسط طلقات الرصاص التي لم تكتم أصوات الهتاف القوية التي تأتي من الشارع تحتها.
حاولت أن تنظر إليهم.. أن تهتف معهم... أن تشاركهم، لكن لسانها تجمد.
حاولت وحاولت،
حاولت الهتاف،
وحاولت اغلاق النافذة،

لكنها فشلت في كليهما، وطلقات الرصاص تزداد،
ليظهر هو،
وبكل قوة يُغلق أحد مصراعي النافذة وهو يبعدها عن مرمى النيران؛
لكن الرصاص لم يخطئه هذه المرة، لتستقر الطلقات في جسده ويسقط أمامها مضرجاً في دمائه وهو يهمس باسمها بابتسامة باهتة كانت آخر عهده بالحياة.
حينها فقط أفرج حلقها عن صرخة تحمل اسمه وهي تهب جالسة على الأريكة في فزع وتتلفت حولها لتتأكد أن النوافذ لا تزال موصدة وأنها كانت في كابوس.
وياله من كابوس.
زفرت في قوة وهي تتفل عن يسارها ثلاث مرات وتستعيذ بالله من الشيطان ثلاث مرات أخرى حتى تستعيد ضربات قلبها هدوؤها،
ثم نهضت في تكاسل لتحضـر كوباً من الماء ليبلل فمها الجاف كأعواد الحطب.
لم يكن بطء خطواتها بسبب الكسل، وإنما لأن أوتار ساقيها كانت مفككة بشدة. ليس أوتار ساقيها فحسب، بل أعصاب وأوتار جسدها كله الذي لم تستطع السيطرة على ارتجافته حتى بعد أن ارتشفت كوب المياه كاملاً.
رفعت شعرها عن عينيها إلى الخلف وتنهدت في عمق وهي تتجه إلى غرفة أخيها حينما لاحظت شيئاً غريباً في الردهة..
فعلى المقعد المجاور تماماً للأريكة التي غادرتها للتو كان معطف (مازن) الثقيل.
عقدت حاجبيها وهي تحاول التذكر، فهذا المعطف لم يكن موجوداً حينما غفت عيناها قبل قليل. لقد غادرها إلى الميدان أثناء خطاب الرئيس.
ولكن كيف أتى هذا المعطف الآن؟

اتجهت في خطوات سريعة إلى غرفة (مودي) لتجده مستغرقاً في النوم كما هو، فعادت إلى الردهة ليواجهها (مازن) وهو بروب الاستحمام القطني يجفف شعره في بساطة دون أن يلتفت لها.

شهقت قائلة في دهشة:

ـ"انت جيت إمتى؟ انت مش رحت التحرير؟"

رمقها بنظرة صامتة وهو يواصل تجفيف شعره كأنه لم يسمعها، بل إنه تجاوزها إلى الغرفة التي هربت منه إليها في المساء وكأنها لا تعنيه.

تصاعد الغضب والحيرة داخلها في مزيج عجيب وهي تتبعه قائلة بحنق:

ـ"(مازن) أنا بكلمك. رجعت امتى؟"

رمقها بنفس النظرة الصامتة وهو يلتقط ضمادة طبية جاهزة من كيس صغير يحمل اسم صيدلية شهيرة ويفتحها ليلصقها بعناية فوق جرح فخذه الذي قارب على الشفاء، قبل أن يجيبها ببرود:

ـ"جيت من شوية وانتي نايمة عالكنبة. حضرتك ما قفلتيش الباب بالترباس زي كل يوم وعشان كدا فتحته عادي بمفتاحي".

تلون وجهها قليلاً وهي تقول في حرج:

ـ"نسيت".

لم يعرها انتباهًا وهو يتظاهر بتمشيط شعره، بينما هو في الحقيقة يكاد يموت من القلق بسبب شحوب وجهها الملحوظ وتسارع أنفاسها العجيب.

كانت نائمة حينما فتح باب الشقة قبل نحو نصف الساعة، وأدهشه أنها لم تشعر بوجوده.

في البداية ظنها تدعي النوم، لكنه حينما اقترب ووضع معطفه على المقعد المجاور لم تبدر عنها أي حركة توحي بأنها تشعر بوجوده أو تتظاهر بالنوم.

وحينما كان ينهي استحمامه قبل قليل تناهى إليه صوتها وهي تهتف باسمه كمن كانت تعاني كابوساً مفزعاً.

ورغم ذلك تظاهر بالبرود وهي تفرك أصابع كفيها في توتر كطالب مخطئ ينتظر العقاب، إلى أن قالت بخفوت:

ـ"شفت خطاب الرئيس؟"

رمقها بنظرة جانبية وهو يتجه إلى الفراش ليرتدي بنطال منامته قائلاً:

ـ"آه سمعت آخر حتة عند عم (بشندي) تحت."

هزت رأسها بتفهم قبل أن تسأله ثانية:

ـ"ورأيك إيه؟"

رفع رأسه إليها قائلاً بتهكم:

ـ"رأيي؟! افرحي وهيصي يا (علا)... الميدان فضي علينا. لا عُدنا هنشوف حريم ولا كنتاكي ولا دولارات".

عقدت حاجبيها في قوة وهي تشعر بسخريته اللاذعة لتقول بتوتر:

ـ"فضي؟ يعني ايه؟ الناس روحت بيوتها؟ معادش فيه اعتصام؟"

تأملها بدهشة حقيقية وهو يسألها بسخرية:

ـ"ومالك فرحتي أوي كدا ليه؟ طب كنتي مثلي عليا إنك متضايقة. اللي يشوفك نازلة مظاهرات من ورايا من أسبوع ما يشوفكيش دلوقتي فرحانة إننا بقينا لوحدنا."

اقتربت منه لتلمس ذراعه قائلة في أسف حقيقي:

ـ"(مازن) أنا مش فرحانة. أنا آسفة على الكلام الغبي اللي قلته قبل ما تنزل، وآسفة إني شكيت فيك. بس غصب عني..أ...".

قاطعها وهو يسألها بغتة:

ـ"انتي عمرك اتكلمتي مع عم (بشندي) في السياسة؟"

تراجعت في حدة قائلة والدهشة تكسو ملامحها:

ـ"عم (بشندي) البواب؟ أكلمه في السياسة إزاي يعني"؟

تنهد في قوة وهو يهز رأسه في عجب قائلاً:

ـ"عم (بشـندي) الـلي مـش عاجبـك دا دماغـه تسـاوي وزنهـا دهـب. عـم (بشندي) البواب زي مـا بتقـولي فـاجئني النهـاردة بكـلام مسـمعتوش مـن واحدة صـحفية مثقفـة زيـك، ولا واحـد مـن طبقـة راقيـة زي (سـالم) بيـه جاركم. عم (بشندي) دا لـو ينفـع كنـت عيّنتـه المتحـدث الرسـمي للثـوار. راجل عجوز فوق الستين بس قلبه شباب وعاوز يشوف البلد بتتغير."

ثم تنهد بعمق وهو يستطرد وعيناه تراقبان ملامحها المندهشة:

ـ"عم (بشندي) دافع عني وعن غيري من غير مـا يعرفنـا. دافـع عـن شرفنـا وأمانتنا. عـم (بشـندي) معجبـوش خطـاب الـريس، لا وشـتمه كـمان وهـو بيقول احنا ما ينضحكش علينا... آااه بس".

لدهشته وجدها تركع على ركبتيها أمامه وتتنـاول كفيـه بـين راحتيهـا قائلـة بصوت مختنق:

ـ"(مازن) أرجوك كفاية. خلاص أنـا غلطـت وبعتـذر. أنـا مجنونـة ومتهـورة عشان كلمتك بالطريقة دي.. واضح إن جلسات العـلاج النفسـي مجـابتش نتيجة معايا وهفضل طـول عمـري كـدا. وبعـدين أنـا مـش جديـدة عليـك وعارف اني بحدف دبـش وباشُـك في هـدومي. مـش لازم نرجـع تـاني لأزمـة الثقة إياها عشان خاطري".

قالتها وهي تخفض رأسها لتقبل كفيه حينما جذبها من راحتيها في قوة وهو يرفعها من الأرض ليِجلسها إلى جانبه قائلاً بتأثر:

ـ"بتعملي إيه يا مجنونة. أنا اللي أبوس ايدك وراسك كـمان عشـان أهملتـك اليومين اللي فاتوا وأنا في الميدان. ونجاح جلساتك محتاجني معـاكي بـس أنـا اللي مقصر. عشان كدا أوعدك نـروح للـدكتورة سـوا قريـب إن شـاء اللـه.. مش لازم نخسر حياتنـا الشخصـية كـمان... كفايـة بكـرا الـلي مـش عـارفين هيحصل فيه إيه".

وأقرن قوله بتناول راحتيها وهـو يلـثمهما برقـة بعثـت الـدفء في أوصـالها المفككة قبل أن يحتويها هامساً بقلق:

ـ"وشك أصفر ليه؟ ايه اللي شفتيه في الكابوس وخلاكي تندهي عليا"؟

لم تخـف عليـه ارتجافتهـا بـين ذراعيـه وهـي تغـوص في صـدره كمـن يريـد الاختباء من ذكرى الكابوس المزعج، فشدد من احتضانها وهو يمسـد ظهرهـا المتصلب براحتيه حتى هدأت قليلاً لكنها لم تجبه على سؤاله،

حينها أبعدها ليتأمل وجهها ويقول بخبثه المعهود:

ـ"عموماً حاسس كدا والله اعلم إن سبب الكابوس دا إنك نمتي بعيـد عنـي. شفتي آخرة اللي ينام بعيد عن حضن (مازن) حبيبه يجراله إيه؟"

ابتسمت رغماً عنها وهي تلكزه في كتفه قائلة بحرج:

ـ"خلاص بقى.. شكلك استحليتها. هو الفجر إدّن ولا لسة"؟

ابتسم لعودة وجهها إلى لونه الطبيعي وهو يجيبها:

ـ"لا الساعة لسه تلاتة ونص. قومي صلي الوتر وتعـالي نـامي. بـاقي سـاعتين لسه تكوني ريحتي جسمك وأعصابك".

هزت رأسها بابتسامة خفيفة قائلة:

ـ"صليت الحمد لله قبل ما أنام".

ربت على وجنتها قائلاً:

ـ"شطورة.. ألحق أصلي أنا بقى عشان ارتاح شوية".

اقتربت لتريح رأسها على كتفه وهي تسأله بخفوت:

ـ"هو انت هتنزل بكرا الميدان برضه"؟

مسد ظهرها ثانية وهو يزمجر بخفوت:

ـ"إمممممم... رجعنا للغيرة والشك تاني"؟

رفعت عينيها إليه قائلة في سرعة:

ـ"لا والله مش غيرة ولا شك... أنا حاسة إني غلطت وعـايزة أصـلح غلطتـي. عايزة أفضل جنبك. ايدي في ايدك وكتفي في كتفك".

احتضن وجنتها بكفه قائلاً بابتسامة عكست لمعاناً غريباً في عينيه:

ـ"لو أضمن إن محدش هيمسّـك بسـوء مـش هـتردد لحظـة واحـدة اخـدك معايا... بس أنا حاسس إن المكان الأفضـل لـيكي دلـوقتي هـو هنـا. تاخـدي بالك من (مودي)، ويمكن من ابن اخت (مودي)".

عقدت حاجبيها في تساؤل عن ابن اخت أخيها هذا وشعرت بـالحيرة لتنتبـه على ضحكته العالية وهو يقول من بين ضحكاته:

ـ"معقول لسه بتقلبيها في مخك؟"

ثم أردف بعمق وهو يغوص بعينيها الحائرة قائلاً:

ـ"ابننا يا (علا)... نفسي تكوني حامل المرة دي. نفسـي نعـرف بوجـوده سـوا ونتابعه يوم بيوم سوا... نفسي نختار اسمه أو اسمها ونسـتنى وصـوله عـلى نار... نفسـي يا (علا)".

شعر بوجنتها تلتهب تحت راحته وهي تنكمش في أحضانه خجلاً هامسة:

ـ"أنا كمان نفسـي أشيل ابنـك يـا (مـازن) وأحـس بيـه بيكـبر جوايـا وانـت جنبي... عشان كدا مش عايزاك تنزل الميدان. خايفة عليك".

أبعدها عنه محاولاً أن يسبر أغوار نظراتها المضطربة هامساً بقلق:

ـ"هو الكابوس كان يخصني؟"

هربت بعينيها من نظراته المتفحصة وهي تقول بتلعثم:

ـ"هو كابوس مش حقيقة، بس ما يمنعش اني أخاف عليك. ويا نعيش سوا يا نموت سوا".

شعر بتصاعد القلق داخله، لكنه رسم ابتسامة مشجعة على وجهه قائلاً:

ـ"أديكي قلتي إنه كابوس.. ومحـدش بيصـدق الكـوابيس. وبعـدين لـو مُتنـا احنا الاتنين مين اللي هيخلف ابني؟"

التصقت به أكثر وهي تحيطه بـذراعيها بكـل قوتهـا قائلـة بصـوت خنقتـه العبرات:
ـ"ألف بعد الشر عنك... ربنا يديك طولة العمر والصحة وميحـرمنيش منـك أبداً".
أحاطها بذراعيه وقبل رأسها بهدوء قائلاً بنفس الابتسامة:
ـ"آمين ولا يحرمني منك يا روح قلبي. يالا ارتـاحي شـوية عـلى مـا أجيلـك. مش عاوزينك تشوفي كوابيس تاني".
قالها وتركها ليكمل ارتداء منامته الثقيلة ويتجه ليصلي بخشوع، علّ الصـلاة تنجح في تهدئة وجيب قلبه المضطرب.

*****

المعادي

الحادية عشرة صباحاً

تمطت بدلال قطة إيرانية، وهي تُفرج عن صفاء حدقتيها البلوريتين ببطء، ثم تستدير بغنج لتحيط صدره بذراعها، لكنها لم تجده بجانبها. فتحت عينيها كاملة ورفعت رأسها عن الوسادة تتأمل الغرفة حولها لتكتشف خلوها من أي أثر له أو لمتعلقاته.
فطاولة الزينة خالية من ساعته وحافظة نقوده، والكومود المجاور له خالٍ من هاتفه. والأدهى أن الشمس أصبحت في كبد السماء بالفعل، أي أنها ليست الثامنة كما تخيلت وكما وعدها بأنه سيوقظها قبل نزوله.
نهضت في سرعة ترتدي معطفها الثقيل، وخرجت في محاولة أخيرة للبحث عنه في أرجاء الشقة وبداخلها أمل واهن أن يكون بالردهة يعمل على حاسوبه، أو ربما مازال يتناول إفطاره في المطبخ.
لكنها لم تجده أيضاً.

شعرت بالتوتر يغزو خلاياها وكابوس الأمس يعود أمام عينيها واضحاً ليترك قبضة باردة تعتصر قلبها وتبعث بقشعريرة إلى معدتها الخاوية.

التقطت هاتفها لتحادثه وابتدرته بعتاب رقيق:

ـ" كدا تنزل من غير ما تصحيني؟"

أتاها صوته هامساً بنعومة مغوية:

ـ"محبيتش أقلقك بدري وانتي نايمة متأخر".

ابتسمت بخفر وهي تسأله:

ـ"انت فين دلوقتي؟"

أجابها بخبث:

ـ"في المكتب.. باكل شوكلاتة بالكراميل اياها... هتلاقي على الكومود بتاعك واحدة ليكي. كنت ناسيها في جيبي".

غزاها الاحمرار فتلعثمت قليلاً قبل أن تقول بخجل:

ـ"بس أنا بحب أكلها معاك".

تنحنح بافتعال ليقول باسماً:

ـ"يعني أسيب الجورنال وآجي؟ معنديش مانع خالص".

ضحكت برقة لتجيبه:

ـ"ولا أنا عندي مانع.. تعالى".

صمت قليلاً ثم همس بصدق:

ـ"بحبِك".

أخرجتها صادقة من أعماقها لأول مرة:

ـ"بحبَك.. بحبَك من أول مرة شفتك في الكلية وانت جاي ندوة مع دكتور (مصطفى).. كنت وقتها لسه في سنة أولى وانبهرت بيك وانت على المنصة جنبه.. يومها قررت أدرس صحافة عشان أشوفك تاني، وبقيت متابعة كل مقالاتك وتحقيقاتك من بعيد. بس بعد ظروف وفاة بابا وموضوع (مودي)

اضطريت استخبى منك عشان أحافظ على صورتي، وكتمت حبك في أوضة سرية جوا قلبي حتى بعد ما قابلتك... بس الحمد لله ربنا كافئني بيك".
تحشرج صوته من الانفعال ليخرج مبحوحاً:
ـ"جاية تعترفي دلوقتي يا بنت (السباعي)... كنتي فين من زمان يا مفترية وسايباني فاكرك متجوزاني تخليص حق".
ضحكت بخفوت وقالت تشاكسه:
ـ"خلاص تعالي وعاقبني زي ما انت عاوز... متسبنيش النهاردة".
تنهد بصوت مرتفع قائلاً بحسرة مفتعلة:
ـ"يااريت كان ينفع.. عموما لو خلصت شغل قبل العصر هجيلك شوية قبل ما اطلع عالميدان... بس مش أكيد".
أنهت الاتصال معه، ليعود ذلك التوتر يضرب معدتها ثانية، حتى أنها لم تستطع تناول افطارها، ولا حتى الشيكولاته التي تركها لها.
حاولت تجاهل مخاوفها وهي تمارس طقوسها اليومية، لكن لعبها مع (مودي) وشجارهما المعتاد على مائدة الإفطار لم يفلحا في تغيير مزاجها الضائق.
فتحت حاسوبها والتلفاز في وقت واحد، لتتابع عليهما آخر الأحداث. لكنها سرعان ما ألقت الحاسوب بإهمال على الأريكة بجانبها، ورفعت صوت التلفاز عن معدله وهي تحدق بشاشته في ذهول.
فأمام عينيها كانت ساحة ميدان التحرير والطريق المؤدي إليه من ميدان عبد المنعم رياض أشبه بساحة حرب تعود إلى ما قبل التاريخ.
حرب بين فوارس عُزل وشرذمة تعلو صهوات جياد و... جِمال!!!

***

الإسكندرية

الثانية ظهراً

اقترب منها مسرعاً وقد عكست خطواته مدى غضبه، ولم ينتظر الوصول إليها ليلوح لها لتقترب.

عقدت حاجبيها في حيرة وهي تقترب بالفعل لتسأله:

ـ"مالك يا (وجيه)؟ وشك مقلوب ليه؟"

أجابها بانفعال غاضب:

ـ"الكلاب بيهجموا عالتحرير".

هوى قلبها بين ضلوعها وهي تتخيل شقيقها مصاباً مرة ثانية أو ربما أسوأ فهتفت:

ـ"هي الشرطة رجعت؟ عاوزين منهم إيه تاني؟"

هز رأسه نفياً ليجيبها:

ـ"لأ مش الشرطة.. شوية بلطجية راكبين خيل وجِمال هجموا على الميدان وبيضربوا المعتصمين عشان يفرقوهم.. بيقولوا إنهم جايين من نزلة السمان ومعترضين على الاعتصام عشان عطّل شغلهم في الأهرامات".

أخفت فمها بكفها في ذعر وهي تهتف بصوت مبحوح:

ـ"يا ربي... يارب نجيهم واحفظ أخويا واللي معاه.. مراته كمان معاه في الميدان من امبارح... يارب سترك".

قال مطمئناً:

ـ"متخافيش.. أنا هطلع دلوقتي إن شاء الله أركب أروح مصر.. مكاني هنا زي قِلته. لازم أقف معاهم هناك في التحرير".

سألته في حيرة:

ـ"وهتسيب والدتك ومراتك؟"

زوى ما بين حاجبيه مندهشاً يسألها:

ـ"مراتي مين؟ انتي برضه مُصرة إني متجوز؟ يابنتي والله انا لسه أعزب ماتجوزتش".

انتقلت دهشته إليها، فاتسعت عيناها تحدقان به لوهلة قبل أن تقول بإصرار:

ـ"انت قلت ل(رأفت) إنك متجوز.. يوم لما اتقابلتوا".

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يهتف منكراً:

ـ"بقولك محصلش.. أنا قلتله اني سايب الجماعة في مجمع التحرير لكن مقلتش مراتي. كنت يومها بخلص أوراق خاصة بيا وبأختي الصغيرة اللي هتسافر لجوزها لكن مجبتش سيرة جواز خالص".

شعرت وكأن موجة متمردة غادرت موقعها وسط البحر لتختارها هي فتغرقها بمائها البارد وتعيدها إلى ذلك اليوم قبل نحو شهرين، حينما صارحها توأمها (رأفت) برغبة صديقه (أكرم) في خطبتها. يومها حاولت الاعتراض كعادتها في الرفض لمجرد الرفض.

لم تكن واثقة في أسباب رفضها لكل من يتقدم لخطبتها، لكنها كانت تعلل رفضها بأنها لم تجد الشخص المناسب بعد، والذي في تعريفها سيقبل بها كما هي، بكل عيوبها ومزاياها، وأولها نشاطها السياسي ومقالاتها الساخرة التي تثير حولها المشاكل دوماً.

لذا حينما اعتذرت بهدوء عن قبول طلب (أكرم) في ذلك اليوم، فوجئت بشقيقها يهتف بها غاضباً أنه لا جدوى من إهدار حياتها في انتظار من لا يشعر بها، بل وأصبحت لديه حياته الخاصة.

يومها قال في فورة إنفعاله إن من تتعلق بحبائله بوعي أو بدون أصبح زوجاً يعيش حياته ولم يأت على ذكر اسمها إلا عرضاً.

ورغم أنها لم تكن تنتظر (وجيه) بالتحديد- ليس على حد علمها- فقد شعرت بانهيار شيء ما بداخلها لا تدري كنهه.

في الوقت نفسه، وبدون سابق إنذار، فوجئت ب(أكرم) يغزو حياتها ويظهر أمامها في كل وقت وفي كل مكان، حتى ساورتها الشكوك أن شقيقها ينقل له تحركاتها سراً.

رغمًا عنها تحرك قلبها بدقات أكثر أنوثة، واستجاب لمحاولات (أكرم) الحثيثة لاستمالتها إليه.

شعرت أنه "آخرة صبرها" حينما وجدته معها في أحلك المواقف، يساندها دون أن تطلب ويدعمها بكل تقدير.

كان صوته أول ما داعب مسامعها في الدقائق الأولى للعام الجديد، وكان ذراعاه أول من تلقفها حينما سقطت مغشياً عليها في أعقاب تفجير كنيسة القديسين أمام منزلها، ولم يتركها إلا حينما عاد شقيقها الأكبر لاصطحابها.

أقنعت نفسها بأنه هدية السماء لها بعد طول انتظار، وهيأت نفسها لتنهل من ينابيع السعادة معه.

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد....

ـ"ها.. قلتي إيه يا (سلمى)؟"

انتبهت من ذكرياتها على عبارته فهزت رأسها بلا تركيز تسأله:

ـ" قلت إيه في إيه؟"

أجابها في حماس ذكرها بأيام الجامعة:

ـ"بقولك لما أقابل (رأفت) أفاتحه في موضوعنا القديم؟ يعني ارتباطنا وكدا".

تأملته بنظرات خاوية كأفكارها، وتاهت الكلمات على شفتيها لا تعرف بماذا تجيبه، قبل أن تحسم أمرها قائلة:

ـ"مش وقته دلوقتي.. خلينا نشوف الدنيا هترسى على إيه".

***

ميدان التحرير

الخامسة مساء

فركت كفيها بتوتر وأصوات صخب المعركة يأتيها من الخارج دون دليل على جانب منتصر. لكن عدم وصول بلطجية النظام ومؤيديه إلى مخبأ النساء في مسجد عمر مكرم أكبر دليل على أن الغلبة مازالت للثوار، وأنهم ما يزالون يسيطرون على الموقف بعد أكثر من ثلاث ساعات من هجوم سائقي الجِمال والخيول.

حاولت التأقلم مع الفتيات والسيدات معها في المخبأ، لكنها لم تستطع. وحدها (نجلاء) استطاعت مجاذبتها أطراف الحديث، ربما لأن كلتاهما كانت تحمل بداخلها الكثير من الآلام التي تحتاج إلى إخراجها من جعبتها علها ترتاح قليلاً.

تناهى إليهما صوت رجال يقترب، فتحفزتا وقبضت كل منهما على السكين بحوزتها، إلى أن جاء صوت (رأفت) لاهثاً:

ـ"(منار).. (منار) سامعاني؟ محتاجينكم في المستشفى الميداني".

خرجت إليه مسرعة وعيناها تجوبان تفاصيله للاطمئنان عليه، فربت على كفها بحنان هامساً:

ـ"متخافيش أنا كويس الحمد لله.. بس محتاجين ناس تساعد في المستشفى الميداني.. الاصابات كتير من كسر الرخام والطوب".

قالت في ثبات:

ـ"أنا جاية معاك.. مش هقدر أقعد هنا أكتر من كدا من غير فايدة".

سألها بقلق:

ـ"هتقدري تستحملي المناظر هناك؟ فيه اصابات كتير و..".

قاطعته بثقة:

ـ"متخافش.. إن شاء الله هقدر اساعدهم بكل اللي اقدر عليه".

ثم التفتت إلى صديقتها الجديدة قائلة بتشجيع:
ـ"يالا معايا يا (نجلاء) وشوفي مين في البنات تحب تيجي معانا في المستشفى الميداني".

خرجت خلفه وبصحبتها ثلاث أو أربع فتيات تشجعن مثلها وسرن جميعاً في صف طويل يتحاشين مواقع سقوط الحجارة الشاردة حتى وصلوا جميعاً إلى المكان المنشود بين بنايتين أمام المتحف المصري، في أقرب نقطة من الاشتباكات في ميدان عبد المنعم رياض.
وقفت تتأمل المصابين المكدسين في مساحة المستشفى الميداني الصغيرة وقد تسمرت قدماها وبردت أطرافها حتى أضحت أقرب إلى الثلج، فيما تقدمت (نجلاء) وباقي الفتيات للداخل.
منظر الدماء أمامها أعاد إلى عينيها مشهد سقوط (رنيم) أرضاً بعدما تلقت أول ضربة هراوة على ظهرها، والتي تبعتها ضربات أخرى أكثر قسوة وشدة انهالت على جسدها الضعيف الذي تفجرت الدماء منه في شتى المواضع، قبل أن يتركها قاتلوها ويلوذوا بالفرار بعيداً دون عقاب.
أغمضت عينيها في قوة تحاول الفكاك من مشهد (رنيم) لتجفل فجأة على صوت ذي لكنة أجنبية يقول لها بجدية:
ـ"من فضلك يا آنسة.. ممكن تثبتي دراع الولد عشان أعرف أخيطه".
فتحت عينيها في سرعة متوقعة أن تجد وجهاً يذكرها ب(رنيم)، لكن لدهشتها وجدت وجهاً ذكرها بشخص مختلف تماماً.

***

المعادي

التاسعة مساء

قطعت الردهة جيئة وذهاباً في ارتباك، وآلام القولون العصبي تفتك بمعدتها دون رادع. فمرأى ميداني التحرير وعبد المنعم رياض وما يدور فيما بينهما من تقاذف لكرات اللهب وزجاجات المولوتوف الحارقة وقطع الرخام الحادة، بل وطلقات القناصة، جعل الأفكار السوداء تطاردها، وأسوأ كوابيسها يتقافز أمام عينيها.

حاولت الاتصال بزوجها أكثر من مرة، لكن الهاتف كان مغلقًا أحيانًا، ولا مجيب للجرس أحايين كثيرة.

وما زاد توترها كان سؤال (مودي) المتكرر عن مكان (مازن)، ولماذا لم يأت لتناول الغذاء معهم.

كادت تصرخ لمجرد التخلص من توترها، لكنها تماسكت وأسرعت تتوضأ وتمسك بمصحفها لتتلو سورة ياسين وتدعو الله بفك كربها وكرب بلادها.

لكن المشاهد التي كانت شاشات التلفاز تنقلها لم تكن مطمئنة على الإطلاق.

** ** **

(١٠)

الخميس ٣ فبراير

العاشرة صباحاً

المعادي

ارتفع رنين هاتفها برنته المخصصة، فقفزت تلتقطه من الطاولة أمامها لتهتف بقلق:

ـ"انت فين يا (مازن) حرام عليك نشفت دمي.. انا منمتش من خوفي و..".

قاطعها بحنان:

ـ"متخافيش هطمنك حالاً. البسي بس حجابك وافتحي الباب".

زوت ما بين حاجبيها في حيرة وهي تلتقط حجابها من المشجب المجاور للباب وتُحكمه على وجهها قبل أن يصلها صوته من خلف الباب بكلمة السر المعتادة.

فتحت مزاليج الباب الواحد تلو الآخر ليطالعها وجه (مازن) المنهك وإلى جانبه وجه آخر يكاد يكون نسخة طبق الأصل عنه في الطول والحجم ولون الشعر وأغلب الملامح.

حدقت بوجهيهما للحظات قطعها (مازن) بدخوله الشقة قائلاً لمرافقه:

ـ"اتفضل يا دكتور (زياد)... معلش (علا) أول مرة تشوفك لايف، وطبيعي تاخد وقت عشان تستوعب.. أنا نفسي لسه مش مستوعب إنك هنا في مصر".

أغلقت الباب خلفهما وهي تهمس بصوت خفيض لم تفارقه الدهشة:

ـ"دكتور (زياد) أخوك؟"

ربت (مازن) على كتفه قائلاً بسعادة:

ـ"تخيلي رايح المستشفى الميداني ألاقي دا في وشي.. مفاجأة زي الأفلام الهندي".

ابتسم (زياد) بوقار وهز رأسه يحييها قائلاً:

ـ"تشرفت بيكي يا (علا).. آسف اني داخل بيتك لأول مرة بإيدي فاضية بس انتي شايفة الظروف.. متعوضة إن شاء الله المرة الجاية".

أومأت برأسها هي الأخرى لتحيته وهي تقول في حرج:

ـ"ولا يهمك يا دكتور.. البيت بيتك.. بس بجد مفاجأة غير متوقعة بالمرة.. حتى شكل حضرتك عالطبيعة غير الصور والكونفرنس كول".

أتاها صوت زوجها المنهك مشاغباً:

ـ"خلوا السلامات دي لبعدين.. لو سمحتي يا (علا) محتاج غيار نضيف من هدومي ل(زياد) لإنه سايب شنطته في الفندق.. وأنا هاخد شاور بعده على ما تكوني حضرتي أي أكل لإني تقريباً ما أكلتش حاجة من إمبارح".

ربتت على كتفه بتعاطف هامسة:

ـ"ثواني يكون الحمام جاهز لدكتور (زياد)... وانت يا (مازن) ممكن تستخدم حمام أوضة بابا.. فيه سخان منفصل عن سخان الحمام الرئيسي".

وتركتهما لتتحرك في همة، وكأنما زالت جميع أوجاعها ما إن اطمأنت لوجوده أمامها.

اجتمعوا على مائدة الإفطار، وانضم إليهم (مودي) الذي ظل ينقل بصره بين (مازن) و(زياد)، وكأنما لم يستوعب عقله بعد كيف أتى (زياد) إلى منزلهم، وهو الذي يراه دوماً على شاشة الهاتف أو الحاسوب.

ورغم الجوع المستبد الذي كان يعربد في أمعاء ثلاثتهم، لم تنجح رائحة الطعام الشهي في مغازلة شهياتهم، واكتفى كل منهم باحتواء مشروبه

الدافئ بين كفيه الباردين، ثم احتسائه في شرود، بينما تسترجع ذاكرة كل منهم هول ما رأته أعينهم في الميدان وعلى شاشة التلفاز.
صرخة أنثوية ملتاعة هي ما أخرجتهم من شرودهم، تبعتها صرخات أنثوية أخرى قريبة تردد اسماً بعينه.
انتفضت (علا) في جلستها ومدت يدها بحركة غريزية إلى ذراع (مازن) وكأنها تطلب عونه، فيما حملت عيناها تساؤلاً ورجاء بألا يكون ما سمعته أذناها صحيحاً.
لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وبالذات في هذا الصباح.
فحينما هب الشقيقان نحو الباب لاستطلاع الأمر، تأكدت من الخبر المشؤوم...
استشهاد (مينا)... أخيها من الرضاع.

***

الحادية عشرة صباحاً

المعادي

"حرام عليكي اللي بتعمليه فينا دا.. يومين بايتة برا البيت ولما ترجعي ألاقي هدومك كأنك راجعة من المدبح.. عليكي من دا بإيه يا بنتي؟ لما تاخدي رصاصة ولا طوبة في دماغك هستفيد أنا إيه يا (منار)؟"
رفعت عينيها الذابلتين من كثرة ما ذرفتا من دموع لتجيب والدتها بخفوت:
ــ"ومش حرام اللي بيحصل في أولادنا هناك؟ مش حرام لما يموتوا ولّا يتشوهوا عشان شوية ناس عاوزة تحافظ على مصالحها؟ وأولها طبعا كرسي الحكم".
جلست بجانبها تهادنها:
ـ" يا بنتي يا حبيبتي.. انتي مالك بالسياسة؟ يعني انتي اللي هتقدري تعدلي المايلة؟ مفكرتيش في أهالي الشباب اللي مات دا؟ انتي صعبان عليكي

الشباب وأنا صعبان عليا أهاليهم.. انتي متخيلة حرقة قلب أم على ابنها لو راح في الرجلين زي ما بيحصل في التحرير؟ فكرتي في حرقة قلب أمك يا (منار)؟ ولا كلام أخوكي صح وخطيبك غسل دماغك وخلاكي تمشي وراه في...."

قاطعتها بانفعال:

ـ"من فضلك يا ماما... طلعي (رأفت) من الموضوع وانسي الكلام اللي بيقوله ابنك خدام مبارك. زمايل ابنك هما اللي قتلونا وسحلونا، ولو كان ابنك لسه في القاهرة كان زمانه معاهم. أنا اللي طلبت من (رأفت) أنزل معاه مظاهرات، وأنا اللي كلمته عشان ياخدني مليونية التلات، وأنا اللي صممت أبات في التحرير يومها مع البنات في عمر مكرم، وأنا اللي قلتله هروح المستشفى الميداني أساعد الجرحى".

ثم أتبعت بمرارة:

ـ" ولو على حرقة قلوب الأمهات.. ادعي لطنط (تريز).. (مينا) استشهد قدام عيني النهاردة الفجر... اتصاب أكتر من مرة وكانوا يجيبوه المستشفى الميداني يتعالج ويجري يطلع معاهم.. بس آخر مرة جابوه واخد طلقة في دماغه وجابوا مخه في كيس... لا قدرت أبكي ولا أصرخ، ولا حتى أقول ل(مازن) وهو بيوصلني إن أخو مراته بالرضاعة مات.. ربنا يصبرهم".

***

السادسة مساء

الإسكندرية

نقرت بأظافرها سطح مكتبها الخشبي في عصبية وهي تنصت إلى صوت الرسالة الرتيبة على الجانب الآخر من الهاتف بأنه مغلق.

للمرة التي لا تعرف رقمها تحاول الإتصال بأخيها منذ الأمس دون مجيب، وحينما هداها الله إلى الاتصال بزوجته وجدتها وسط جلبة عارمة وأصوات صراخ وتأوهات المصابين في المستشفى الميداني.

ورغم طمأنة (منار) لها، لم يرتح قلبها إلا حينما سمعت صوته لدقيقة واحدة أخبرها فيها أنه بخير، وأنه يحارب بلطجية مبارك إلى جانب (وجيه) وآخرين.

لم تهتم بالجزء الأخير من العبارة، ولا بنبرته الساخرة، قدر اهتمامها بأصوات الجرحى وصور الجحيم الذي نقلته الفضائيات العربية طوال اليوم وحتى صباح اليوم التالي.

أما اليوم، فلم تطمئن عليه بعد، ونظرات أمها القلقة تستحثها للاتصال به، لكنه لا يجيب.

أغلقت الهاتف بضيق وحاولت شغل نفسها بكتابة مقال جديد عما رأته وعاصرته في شوارع الإسكندرية.. عن مطاردات بعض البلطجية للثوار في الشوارع الجانبية وبين البيوت، والتي لم تصل إلى الحد الذي رأته في ميدان التحرير.

فجأة ارتفع رنين هاتفها، لكن رنته لم تشجعها على الرد. لعنت غبائها في سرها لاستمرارها في تخصيص تلك النغمة لهذا المتصل تحديداً، وكأنها تصر على استعادة كل الذكريات المؤلمة كلما ارتفع الرنين.

اختفى الرنين قليلاً ثم مالبث أن عاد يصدح في إصرار أثار عصبيتها أكثر، فألغت الاتصال. لكنها اضطرت للرد عليه في المرة الثالثة بعدما شعرت برغبة ملحة في الصراخ بوجهه ألا يتصل بها ثانية.

ـ"أفندم".

ولدهشتها أتاها صوت مختلف عمن استعدت لتصب عليه جام غضبها، وسمعته يقول بسخريته المعتادة:

ـ"بالراحة علينا يا أستاذة".
هتفت بدهشة :
ـ"(رأفت)!! إنت إيه اللي وداك المنيا؟"
ضحك بقوة مجيباً:
ـ" لا يا ذكية.. المنيا هي اللي جات برجليها.. (أكرم) لسه واصل الميدان فاستغليته وقلت أكلمكم أطمنك انتي وماما".
عقدت حاجبيها متسائلة بسخرية:
ـ"غريبة!! وإيه اللي نزله الميدان مع الخونة اللي باعوا البلد؟ دا كان شوية ويبلغ عني رسمي لما كنت مشيّرة ايفنت مظاهرات ٢٥ يناير".
ضحك ثانية وسمعته يحادث أحدهم قبل أن يعود إليها قائلاً بلهجة خفيضة:
ـ"خلاص كفاية فضحتي الراجل.. أهو عرف غلطه لما شاف المجزرة بتاعة امبارح.. المشكلة بقى إنه واقف يتكلم بكل بساطة مع (وجيه)... أاه لو يعرفوا اللي فيها".
هتفت به من بين أسنانها في حنق:
ـ"انت فايق ورايق على فكرة... المهم شوف صرفة وهات موبيل ولّا اتصرف بأي طريقة.. أنا وماما قلقانين عليك ومن الصبح بحاول أكلمك مفيش فايدة".
كتم ضحكته كيلا يثير غيظها أكثر، قبل أن يقول باهتمام:
ـ"خلاص يا أبلة الناظرة آسفين... هاتي ماما أكلمها بقى عشان وحشني صوتها".

***

العاشرة مساء

المعادي

رغم المجهود البدني الفظيع الذي أنهك عضلاته وأوتار ذراعه، إلا أن الضغط النفسي الذي عاناه منذ تلقى خبر استشهاد (مينا) كان أقسى عليه من أي ألم جسماني.

ربما لم يعرف (مينا) جيداً خلال فترة زواجه القصيرة من (علا)، لكنه يعلم مدى ارتباطها بأسرته، وعلاقتها الخاصة بهم.

لم ينس بعد كيف قَدَّمَه إلى (رأفت) قائلاً بابتسامة واسعة إنه صهره، لكنه سرعان ما زجره بنظرة مرعبة رافضاً أن يلمس (علا) حينما وجدها فاقدة الوعي أمامه يوم حادث (مودي). ولم يبدُ أن (مينا) غفر له ذلك، رغم أنه من حملها ليضعها في السيارة في نهاية الأمر.

فحينما إلتقاه قدراً في اللجنة الشعبية أمام المنزل، تظاهر (مينا) باللعب في شاشة هاتفه الذكي، وكأنما ينقل له رسالة مفادها "أختي أغلى من أي حد تاني".

وظل التوتر قائماً من جانب (مينا) حينما التقيا بعدها في الميدان أكثر من مرة، لكنه ما لبث أن اختفى حينما رأى (علا) تهتف إلى جانب زوجها قبل يومين في المليونية، فانضم إليهما وقضى أغلب الوقت معهم حاملاً (مودي) على كتفيه.

في اليوم التالي لم يره، وظن لوهلة أنه ربما غادر الميدان مع من غادروا بعد خطاب مبارك العاطفي. لكنه بالتأكيد لم يتخيل أن يلفظ (مينا) أنفاسه أمام شقيقه (زياد) دون أن يعرف أي منهما الآخر.

حاول احتواء صدمة (علا) التي سقطت أرضاً ما إن تأكدت من النبأ المشؤوم ، وحرص على الوقوف كتفاً بكتف مع العم (عزيز) في فاجعته، والذي كانت دموعه تثير بقلبه شتى الذكريات.

لكنه حينما اختلى بنفسه بعد يوم طويل قضاه بين مشرحة وجنازة، شعر وكأن تلك القبضة الباردة التي تصاحبه منذ الأمس لم تختف، وإنما زادت وطأتها.

استلقى على فراشه بعدما أظلم الغرفة تماماً، وظل يحدق في الفراغ أمامه محاولاً التخلص من كل ما سجلته ذاكرته في الأيام الماضية... من كل المشاعر التي تخنقه بزخمها وتضغط على أعصابه بشكل سلبي، وتسلب عينيه النوم وعقله الراحة.

لم ينتبه لصوت باب الشقة الخارجي ولا اقترابها الخافت منه، إلا حينما لمست ذراعه هامسة بتعاطف:

ـ"حمدالله بسلامتك.. كويس إنك جيت عالبيت عشان ترتاح شوية".

التفت إليها يتأملها بشرود قبل أن يسألها:

ـ" العزا خلص؟"

هزت رأسها مجيبة بحزن ظهر جلياً في صوتها:

ـ"المفروض كانوا يعملوا قعدة في القاعة جنب الكنيسة، بس عشان ظروف حظر التجول اكتفوا بالعزا هنا في البيت وكمان يومين هيبقوا يعملوا قعدة تانية هناك.. هيبقى فترة الصبح فسهل الناس تقدر تيجي تعزي".

ثم أتبعت بتنهيدة عميقة وهي تستند إلى كتفه:

ـ"الصدمة أكبر من انهم يستوعبوا المصيبة.. إذا كنت أنا مش متخيلة إني معُدتش هشوفه تاني.. ربنا يصبرهم بجد.. ماما (تريز) حاضنة صورته ودموعها مبتقفش.. و(أنجيل) بهدلت الدنيا صويت وصريخ.. (مودي) و(ماري) جاتلهم صدمة يا حبايبي، وبالعافية على ما عرفت أنيّم (مودي) وهو كل شوية يقوم مفزوع".

ربت على كفها القريب منه، ليسمعها تضيف بقلق:

ـ" أنا خايفة على عمو (عزيز) لإنه الوحيد اللي معيطش ولا فك الضغط اللي جواه".

ضمها إلى جناحه وأسند رأسه إلى رأسها موضحاً:

ـ" عمو (عزيز) إنهار تماماً في الجنازة، خصوصاً لما ردموا القبر على التابوت. فوجئت بيه بيكلم ابنه ويقوله 'كنت مستنيك انت اللي تدفنني.. كنت مستني أحضر فرحك وأشوفك عالمدبح مع عروستك'... كلامه وجعني وفكرني بحزني على ابننا اللي راح قبل ما نفرح بيه. كنت فاهم إن حزني وقتها مفيش زيه، بس لما شفت عمو (عزيز) عرفت معنى الحزن والحسرة اللي بجد.. إن ابنك وحيدك اللي كبّرته وعلمته يروح منك فجأة في لحظة غدر، وياريتك عارف مين اللي عملها عشان تاخد بتارك منه".

شعرت بتهدج صوته فالتفتت تحيط وجهه براحتيها هامسة أمام وجهه:

ـ"أنا عارفة إنك شفت كتير من يوم الجمعة اللي فات.. لو محتاج تفضفض أنا موجودة... لو عاوز تقعد لوحدك هقوم".

تأملها للحظات على ضوء الردهة الخافت المتسلل عبر باب الغرفة المفتوح، قبل أن يعتدل ليحتويها قرب صدره هامساً:

ـ"مينفعش نكون في مكان واحد وتبعدي.. نسيتي إن مكانك جنبي؟"

** ** **

(١١)

الجمعة ٤ فبراير

العاشرة صباحاً

المعادي

فتح عينيه بتكاسل حينما شعر بضوء الشمس يغزو الغرفة، ويبدد برودة ليل الشتاء التي هيمنت عليها لساعات. وبهدوء تسلل مبتعداً عن قطته التي توسدت صدره في وداعة ونعومة، والتقط هاتفه ليخرج من الغرفة بخفة.

جرت سبابته على شاشة هاتفه في سرعة وهو يُجري اتصالًا، ليأتيه من الطرف الآخر صوت شقيقه مشاكساً:

ـ"صباح الخير يا كسلان... السرير كان واحشك ولا إيه؟"

احمرت أذناه في حرج وتنحنح هامساً:

ـ"خلاص بلاش فضايح.. الدنيا عندك عاملة إزاي؟"

سأله مستفهمًا في حيرة:

ـ"دنيا إيه؟"

ضحك بقوة وقد واتته الفرصة ليثأر من شقيقه الأكبر، فقال مشاكسًا:

ـ"معلش نسيت إنك خواجة ونسيت لغوتنا.. الدنيا اقصد بيها الجو عندك.. الميدان يعني.. أخبار التجمع إيه.. كدا يعني".

جز (زياد) أسنانه بغيظ هاتفًا من بينها:

ـ"اتريق اتريق... ماشي.. ابقى شوف مين هيدخلك الميدان النهاردة. الناس بدأت تيجي من بدري للمليونية، وانت مش هتلحق تشارك".

قالها وأقرنها بإخراج لسانه في حركة صبيانية يعرفها (مازن) جيداً وطالما اعتادا فعلها رغم زجر والدهما الغاضب.

لذا توقعها (مازن) وهو يقول ضاحكاً:
ـ"طلع لسانك يا خويا.. عشان جيتلك يومين الميدان فاكر نفسك بقيت صاحب مكان.. دلوقتي تشوف التشريفة اللي هتستقبلني.. قال مش هلحق مكان قال".
ثم ما لبث أن تغيرت لهجته للجدية وهو يسأله:
ـ"قول لي تحبوا تفطروا إيه أجيبه معايا وأنا جاي. بس مش هعرف اجيبلكم بيتزا ولا ريّش مشوية".
أتاه صوت (رأفت) الضاحك على الطرف الآخر ساخراً:
ـ"ياعم تعالى كُل كنتاكي معانا.. أخوك جاب معونات معاه من أمريكا".
شاركهم الضحك قبل أن ينهي الاتصال على وعد بالحضور سريعاً، وهمّ بالذهاب إلى المطبخ حينما شعر بها تحيط خصره بذراعيها وتريح رأسها على ظهره هامسة في عتب رقيق:
ـ"لتاني مرة تقوم وتسيبني نايمة".
استدار لها ليقبل جبهتها قائلاً بحب:
ـ"كنت ناوي أجهز الفطار لينا قبل ما أنزل.. انتي تعبتي قوي إمبارح في العزا".
ابتعدت عنه بحدة هاتفة بجزع:
ـ"تنزل فين تاني؟ حرام بقى كفاية اللي شفته وبشوفه من يوم الجمعة وانت بعيد.. ارحم الباقي من أعصابي".
تنهد في عمق موضحاً:
ـ" يا حبيبتي متخافيش.. آخر كارت في إيدهم اتحرق يوم الأربع.. أنا لسه مكلم (زياد) من شوية وأعداد الأهالي اللي في الميدان هتخوف أي حد من كلاب مبارك يقرّب ناحيتنا... الشارع كله بقى في صفنا يا (علا) والموضوع بقى مسألة وقت مش أكتر صدقيني".

رجته بعينيها الدامعتين فقبّل جبهتها ثانية وأتبع في حماس:
ـ"طب إيه رأيك إني هاخدكم معايا.. (مودي) محتاج يسيب البيت بعد خضة إمبارح.. وانتي هتبقي متطمنة أحسن بنت كدا ولا كدا تشاغلني ولا حاجة".
لكزته في كتفه بغيظ هاتفة:
ـ"يا ساتر عليك... امسكهالنا ذلة بقى".
ضحك ليحيط كتفيها بذراعيه قائلاً بتلاعب:
ـ"خلاص يا ستي اعتبريني باتحجج عشان تبقي جنبي طول الوقت.. في البيت وفي الميدان".
وبدت حجة منطقية للغاية.

***

الرابعة عصراً
ميدان التحرير
وقفت إلى جانب صديقاتها تحمل علم مصر وتهتف مع الجميع بسقوط النظام في (جمعة الرحيل)..
لم يفتر حماسها يوماً طيلة الفترة التي قضتها في الميدان منذ يوم ٢٥ يناير، ولم تحرص على إعادة شحن هاتفها إلا لماماً. فليس لديها من تخشى قلقهم عليها... أما هو فلم يعد يعنيها أمره، أو هكذا تتظاهر.
نفضت رأسها دون وعي، وكأنه تزيح ذكراه من عقلها، والتفتت تتحدث مع (منار) و(علا) وتداعب الصغير (مودي) حينما خفت الهتاف.
كم كانت تتمنى طفلاً مثله يحمل ملامح (شريف)، لكن ظروف أيهما لم تكن تسمح بمسؤوليات ومصاريف طفل في الوقت الحالي و...
ـ"أخيراً لقيتك؟"

حاولت تكذيب أذنيها حينما داعبتهما نبرات صوته الحبيب، لكنها لم تستطع تكذيب كفها الذي استقر في راحته، وكأنما وجد مستقره القديم.
حينها التفتت إليه بجسمها وجوارحها لتُملي عينيها من ملامحه التي اكتشفت كم اشتاقت لها، وهي تهمس اسمه بخفوت أثار شجونه فاكتنفها بين ذراعيه غير عابئ بالحشود حوله.
فقد عادت مهجة قلبه إلى مستقرها أخيراً.
أفاقت من فورة مشاعرهما ليكسو الخجل ملامحها وهي تتأمل نظرات الفتيات المندهشة حولها، فقالت تقدمه إليهم:
ـ"(شريف) جوزي يا بنات".
أومأت الفتاتان برأسيهما في تحية خافتة ثم استأذنتا، لتعود هي إليه هاتفة:
ـ"انت جيت إزاي؟ قصدي عرفت مكاني منين؟ قصدي نزلت الميدان ليه؟ ق..".
قاطعها قائلاً بابتسامة تغلف وجهه:
ـ"مش أنا لوحدي اللي جيت.. أنا وأخواتي البنات هنا من قبل صلاة الجمعة. جينا وجه ألوفات زينا عشان معادش ينفع نسكت ونسيبكوا تواجهوا الموت لوحدكوا.. جينا عشان دي بلدنا كلنا ولازم نبقى إيد واحدة... مش هسمح تاني للأمن يفرقني عن مراتي أو يخلينا في موقع اختيار بين حياتنا وبلدنا.. يا نعيش أحرار مع بعض، يا نموت برضه مع بعض".
اغرورقت عيناها بالدموع التي سالت رغماً عنها وهي تتأمله بحب، قبل أن تهمس بصدق:
ـ"بحبك... بحبك يا (شريف)... سامحني".
ضمها إليه هامساً:

ـ"سامحيني انتي".

***

العاشرة مساء

ميدان التحرير

استلقيا متجاورين إلى جانب الخيمة البدائية التي يتناوبون النوم فيها لساعات قليلة، وبدا كل منهما شارداً في عالمه، إلى أن قطع(رأفت) الصمت بسؤاله:

ـ"ألا صحيح انت جيت ازاي؟ الطرق مقفولة والسكك الحديد واقفة".

ابتسم الآخر في سخرية مجيباً بغموض:

ـ"دا سر شويبس.. مش سهل أعترف بيه كدا".

ضحك (رأفت) بقوة على ذلك الإفيه القديم الذي لا يعرفه إلا مواليد السبعينيات والثمانينات، والذين أصبحوا في ٢٠١١ مفجري ثورة يناير.

ثم ما لبث أن سأله باهتمام:

ـ" لا بجد جيت إزاي يا (أكرم)؟ ميهمنيش ركبت إيه قد ما يهمني انت أقنعت الحاجّة إزاي. اتسحبت من وراها؟"

ضحك (أكرم) هذه المرة ليجيبه:

ـ"أهو في دي بقى العكس هو اللي حصل. الحاجة مع الثورة أصلاً من الأول وأنا اللي كنت رافض المظاهرات وبقول سيبوه يخلص مدته.. بس بعد اللي شفته يوم الأربع واللي جرالكم لقيتني لابس هدومي ونازل جاي على هنا.. مقدرتش أقعد أكتر من كدا وأغالط نفسي".

هز (رافت) رأسه متفهماً، ثم سأله بلهجة بدت محايدة:

ـ"وهي صحتها عاملة إيه دلوقتي؟ خفِّت خلاص؟"

أدرك مناورة صديقه الخفية، لكنه قال بنفس الحيادية:

ـ"الحمد لله بقت أحسن".

لم يشأ أن يخبره بالمزيد من التفاصيل، وأن الكثير قد تغير منذ خلافهما الأخير غير المعلن، والذي لم يكن لأي منهما يد فيه.

لم يخبره أنه التزم طريقة آلية في التعامل مع من حوله من أسرته، والدته وخاله.

أصبحت حياته مقتصرة على العناية بوالدته المريضة، ومتابعة عمله في القاهرة عبر الإنترنت لحين شفاءها.

كان في الحقيقة يعتمد نفس أسلوبها معه.. فهي أعلنت الحرب الصامتة اعتراضاً على رغبته في الزواج من (سلمى) شقيقة (رأفت).

بكل بساطة قررت استخدام حقها كأم في المصادرة على حقه في الحب والارتباط بالوحيدة التي شعر بأنها تُكمله، لا لشيء إلا لأن عروسه المختارة ربما لا تستطيع الإنجاب لأنها اقتربت من الأربعين.

هكذا كانت رؤية والدته لعروسه التي لم تتجاوز الثانية والثلاثين من عمرها بأي حال، والتي لا يوحي شكلها بأنها تجاوزت الخامسة والعشرين.

بسبب تلك الحيرة، وضغوط خاله القوية كيلا يخسر أمه التي أُصيبت بنوبة قلبية، اضطر للرضوخ وإرجاء المواجهة قليلاً.

لكن (رأفت) لم يفهم معنى الإرجاء، وبدا له أن صديقه وشريكه في السكن قد تراجع عن نيته في الارتباط بشقيقته بعدما اتفق معهم على الخطبة. لذا كان قراره بترك السكن المشترك كيلا يحتك ب(أكرم) خلال تلك الفترة.

أما (أكرم)، فاكتفى بالبقاء في المنيا إلى جانب والدته لحين شفائها، ملتزماً الصمت مثلها.

وحينما شُفيت وأعلنت هدنتها لتسأله عن سر صمته، أجابها بكل صراحة أنه لا يستطيع أن يتخيل حياته دون أمه ودون رضاها عنه، لكنه لن يتزوج أبداً إلا التي منحها مفاتيح قلبه. فإما أن ترضى عنه وعن زواجهما، وإما يظل ناسكاً في محراب أمه راضياً بالبقاء دون زواج.

كانت مغامرة مرتجلة بدرت على لسانه، وشعرت أمه بها فقالت غاضبة إنه يستطيع الانتظار لحين وفاتها، لكنه قال بصدق إن من رفضتها أمه في حياتها لن يتزوجها إذا فارقت أمه الحياة بعد عمر طويل.

بطريقة ما استطاع كسبها إلى صفه، وإقناعها بالعدول عن رأيها الجائر بحق (سلمى). لكن تلك الأخيرة لم ترض عنه بعد، وتصر على الحديث الجاف معه وكأنما أصبحت لا تطيقه، وخاصة بعدما أبلغها اعتراضه على مشاركتها بالمظاهرات.

واليوم، يبدو جلياً أنه لم يعد المنافس الوحيد على قلبها، وأن هذا الشاب الملتحي (وجيه) قريب منها بشكل ما، حتى وإن لم يتحدث عنها علناً. فلمعة عينيه بالأمس حينما حادثها أخوها من هاتفه أنبأته بما تمثله (سلمى) له.

لم يستطع البوح بكل هذا لصديقه، ولم يجرؤ على مفاتحته بشأنهما بالأمس.

لكن الأمر اختلف الآن.. ولابد من...

ـ"(رأفت)... عاوزك في موضوع إذا سمحت لو فاضي يعني".

قطع تأملاته صوت (وجيه) الهادئ مخاطباً صديقه، فأدرك نادماً أنه ربما تأخر كثيراً في قراره.

** ** **

(١٢)

السبت ٥ فبراير

الثامنة صباحاً

المعادي

وقفت تعد طعام الإفطار وهي تتحرك ببطء رغماً عنها، فظهرها يؤلمها منذ البارحة ولم يخفف النوم آلامها. لكنها تحاملت على نفسها أمامه كيلا يشعر بوجعها.

ابتسمت حينما سبقته رائحته إليها، وشعرت به يحتويها من ظهرها، فارتكنت إلى صدره لتريح ظهرها قليلاً دون أن يدرك ما ترمي إليه، وهمست:

ـ"كويس إنك خلصت لبس بسرعة.. المنبه رن ومن تعبنا محسيناش بيه".

قبّل كتفها هامساً بدوره:

ـ"مهو بعد هدّة الحيل امبارح طبيعي ننام زي القتلا... دا حتى (مودي) مصحاش لسة".

التفتت إليه شاهقة:

ـ"إوعى تصحيه.. أنا هستغل نومه وأطلع أساعد ماما (تريز) عشان القعدة بتاعة المرحوم (مينا) في الكنيسة. مش عارفة هي المفروض تعمل إيه بس لازم أبقى معاهم".

هز رأسه متفهماً وصحبها إلى طاولة المطبخ ليجلسا ويسألها:

ـ"عاوزة تروحي معاهم؟"

هزت كتفيها في حيرة فربت على كفها الراقد على الطاولة أمامه قائلاً بجدية:

ـ"لو عاوزة تروحي مقدرش أمنعك... دا مهما كان أخوكي".

احتضنت كفه وهي تمنحة ابتسامة امتنان قائلة:

ـ"ربنا ميحرمنيش منك... هشوف ماما (تريز) هتعوز إيه وأعمله".

بادلها الابتسام وهو يضع أول لقمة طعام في فمها بدلاً من فمه داعياً:

ـ" ولا يحرمني منكم.. انتي و(مودي) واللي جاي".

قالها وهو يمس بطنها بكفه فأجفلت وتضرجت وجنتاها خجلاً حتى كادت أن تغص بلقمتها، فسعلت قبل أن تقول بدهشة:

ـ"مين دا اللي جاي؟"

ابتسم في خبث وهو يبدأ تناول طعامه قائلاً:

ـ"قلبي بيقول لي إنه موجود.. حاسس بيه جوايا المرة دي".

تنحنحت في حرج لتزجره:

ـ"(مازن) إيه اللي بتقوله دا؟"

ضحك بقوة على خجلها المغري وهو يقطف قبلة من وجنتها المزهرة هامساً:

ـ"بكرا تعرفي إني صح.. يالا كمّلي فطارك عشان مبحبش المواليد المسلوعين".

رمقته بنظرة ساخطة لتعمده إحراجها، ثم ما لبثت أن سألته لتغير دفة الحديث:

ـ"هو دكتور (زياد) مجاش ليه يبات هنا امبارح أو يوم الخميس؟ عالأقل ياخد شاور ويغير هدومه.. أنا غسلتها على فكرة وجهزتها".

ابتسم لتغييرها مجرى الحديث، وأجابها بهدوء وهو يرتشف مشروبه الساخن:

ـ"عزمت عليه أكتر من مرة قال لي إنه مش جاي مصر ينام في بيوت.. هو جاي عشان يشارك في الثورة وينام في الميدان مع الناس".

مطت شفتيها بغير رضا قائلة باستياء:

ـ"عزمت عليه؟! هو ضيف؟ دا بيـت أخـوه.. طـب عالأقـل يـروح بيـتكم في الزمالك".

ضحك لتعبيرات وجهها، وقال موضحاً:

ـ" والله حاولت معاه بشتى الطرق.. هـو اتصـاحب عـلى (رأفـت) وبعـدها الاتنين الجداد كمان (أكرم) و(وجيـه) دول وبقـوا ربـاعي أضـواء المسـرح.. هما مرتاحين كدا".

ثم مالبث أن نهض مقبلاً جبهتها قائلاً في سرعة:

ـ"أنا هنزل بقى عشان رايـح الجرنـال... لـو قـدرت آجـي أحضـر جـزء مـن القعدة مع عمو (عزيز) مش هتأخر.. بس أصل النهاردة فيه احتمال لأخبار حلوة".

نهضت بدورها قائلة بحماس:

ـ"إيه؟ (مبارك) هيمشي؟"

ضحك ثانية وهو يتجه نحو الباب ليلتقط معطفه وحقيبته قائلاً:

ـ" لا لسه شوية.. بس احـتمال يفرجـوا عـن دكتـور (مصـطفى) و(حمـزة).. الحملة اللي عملناها في الجرنال عـلى اختفـاءهم وبعـدها مكالمـات (رانـدا) للبرامج في التلفزيون حركت الدنيا شوية، وأمن الدولة اعـترف إنهـم عنـده، بعد ما كانوا بينكروا أي صلة لهـم باختفـاءهم... ربنـا ييسـر الحـال... يـالا سلام".

ودعته وأحكمت إغلاق الأبواب هامسة:

ـ"استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه".

*****

العاشرة صباحاً

وسط البلد

طرق باب المكتب بسرعة، قبل أن يفتحه ويدلف إلى الداخل هاتفاً بحبور:

ـ"دا الكلام بجد بقى... حمدالله بالسلامة يا سيادة النائب".

صافحه (حمزة) وعانقه برجولة وربت على كتفه قائلاً:

ـ"الله يسلمك يا (مازن).. متشكر على الحملة الصحفية اللي عملتوها عشاني أنا ودكتور (مصطفى)".

جلس (مازن) على المقعد المواجه للمكتب هاتفاً:

ـ"بتشكرني على إيه يا راجل؟ هما أصلاً مكانش عندهم أي سبب يخليهم يعتقلوكوا، والبرامج اللي (راندا) اتصلت بيها عالهوا برضه جابت نتيجة، خصوصاً وهما شايفين الشارع كل يوم بيرفضهم أكتر وأكتر.. المهم طمنني عملوا فيك إيه انت ودكتور (مصطفى)".

رفع (حمزة) كتفيه قائلاً في حيرة:

ـ"هتصدقني لو قلتلك إنهم كانوا مقعدينا في مكتب معززين مكرمين والأكل بيجيلنا سخن في مواعيده كأننا في فندق ٥ نجوم؟"

ارتفع حاجبا (مازن) بدهشة حقيقية، قبل أن يهز رأسه باستهزاء:

ـ"ولا أصدق طبعاً.. من إمتى الحنية دي يعني؟"

جلس (حمزة) أمامه موضحاً بهدوء:

ـ"هما في الأول تخيلوا إننا الأساس ورا المظاهرات والصفحات اللي دعت للثورة، وبعدين لقوها مستمرة في وجودنا أو غيابنا.. عرفت انهم قبضوا في نفس اليوم وتاني يوم على ناس تانية من أغلب الحركات السياسية وسجنوهم بالفعل، وكانوا بيدوروا على أدمن الصفحات الثورية.. بس بعد فتح السجون والضغط الإعلامي واللي حصل في يوم الجمل معادش فيه لازمة لاحتجازنا".

رفع (مازن)أحد حاجبيه مفكراً، فأضاف (حمزة) محذراً:

ـ"معنى كلامي إنهم بيدوروا عليك انت كـمان، ومـش بعيـد يكونـوا عرفـوا صلتك بالصفحة اللي وريتهالي".

ضحك (مازن) هازئاً ولوح بكفه وهو يجيب بثقة:

ـ"وحتى لو عرفوا إني صاحب الصفحة، محدش فـيهم يقـدر يقـرب لي. انـت ناسي إن معايا حصانة تخلي رئيس الوزرا ميقدرش يدوس لي على طرف؟"

تنهد (حمزة) في ضيق وعاد يحذره:

ـ"مهو عشان رئيس الوزرا ميقدرش يدوس لـك عـلى طـرف بشـكل قـانوني، ألف مين هيخدمه ويـدوس عليـك شخصـياً ومـالكش ديـة.. البلـد في حالـة انفلات أمني ومحدش عارف ممكن يعملوا إيه".

عقد (مازن) حاجبيه واقترب منه متساءلاً بشك:

ـ"هو حد قالك حاجة؟ سألوك عني يعني؟"

أجابه بعفوية:

ـ"سألوني على صـفحة خالـد سـعيد، بـس مجـابوش سـيرة صـفحتك.. يمكـن متوقعين إني مش عارف أو مش هقول لو عارف. بس على أي حال خد بالك من نفسك.. أنا طلعت من هناك عالبيت أخدت مسدسي وجيت على هنا.. مش هسيب حاجة للظروف".

صمت (مازن) للحظات بدا فيها وكأنه في عالم آخر، قبل أن يسأله بهدوء:

ـ"دكتور (مصطفى) صحته كويسة؟ متعبش منك هناك؟"

هز (حمزة) رأسه نفياً ليجيبه:

ـ" لأ الحمد لله ماتعبش، بـس هـو روّح عـلى البيـت طبعًـا ومـش هييجـي دلوقتي.. مش بقولـك كانـت استضـافة ٥ نجـوم مـش فـاهم مغزاهـا حتـى الآن".

نهض (مازن) ليغادر الغرفة قائلاً بلهجة غريبة:

ـ"كله هيبان في وقته... حمدالله بسلامتك يا كبير. أسيبك أنا بقى تتولى مهامك وأروح أتطمن على دكتور (مصطفى) في السريع عشان مراتي أكيد هتقول طمنّي عليه".

***

الحادية عشرة صباحاً

المعادي

أغلقت باب شقة العم (عزيز) بإحكام، بعدما رتبتها في غياب الأسرة في الكنيسة، وبدأت تنزل درجات السلم في هدوء خوفًا من أن يزداد ألم ظهرها المزعج.

شعرت بحركة مريبة بالقرب من شقتها، فتحفزت وهي تُحكم إحدى قبضتيها على زجاجة المعطر المضغوطة، والأخرى على مفتاح شقتها. ولم يخب ظنها وهي ترى شخصًا ملثمًا ينحني أمام الرتاج ويحاول معالجته بشكل ما.

أعادت صورته الملثمة ذكريات يوم اختطاف (مودي) على يد ملثمين أيضًا، ففقدت كل أثر للتعقل وهي تتخيل نجاح ذلك الرجل في دخول الشقة وبها أخيها الصغير نائماً، ولم تشعر إلا وهي تتقدم منه مسرعة.

شعر الملثم بها فرفع رأسه مستعداً لمهاجمتها، لكنه لم يتوقع أن يكون أول وآخر ما رأته عيناه هو رذاذ ذلك المعطر الذي أغرق وجهه وجعله يصرخ في قوة متراجعاً إلى الخلف.

أما هي، وبدافع من دفقات الأدرينالين في عروقها، فأسرعت تدس مفتاحها في ثقب الباب وتدلف إلى شقتها في لحظات معدودة قبل أن يستعيد الرجل اتزانه. وما إن أغلقت الباب خلفها حتى تحركت يداها بهيستيرية تغلقان جميع المزاليج، ثم زحزحت أحد مقاعد الأنتريه القريب لتضعه خلف الباب وهي تلهث من فرط المجهود والخوف.

فجأة تذكرت حارس العقار، فرفعت جهاز الاتصال الداخلي تصرخ عبره:
ـ"عم (بشندي).. حرامي عالسلم يا عم (بشندي)".
أتاها صوت جلبة بمدخل العمارة، أعقبه هتاف وصراخ قبل أن يهدأ كل شيء.
لكنها كانت أبعد ما يكون عن الهدوء.
تهالكت على المقعد تلتقط أنفاسها الذاهبة، ثم تحاملت على ساقيها المتراخيتين لتطمئن على الصغير الذي وجدته يلعب في غرفته بألعابه، ولم يشعر بدخولها البيت من الأساس.
تنفست الصعداء وهي تغرسه في أحضانها وتملأ رئتيها برائحة براءته، قبل أن تغرقه بقبلاتها وتحمد الله على وصولها في الوقت المناسب.
تمالكت أنفاسها قليلاً وحضّرت إفطار الصغير، ثم تذكرت أنها لم تتصل بزوجها تبلغه بما حدث، وتلفت انتباهه إلى أنهما مستهدفين ثانية.
أمسكت هاتفها تطلب رقمه، وانتظرت صوته بتوتر، ليصلها صوت مختلف:
ـ"أهلا يا (علا).. كنت لسه هكلمك.. فيه بلطجية طلعوا على (مازن) وضربوه، وهو دلوقتي في القصر العيني... في العناية المركزة".

***

منتصف النهار

قصر العيني

تجمدت نظراتها على وجهه الذي أخفت الكدمات جُل ملامحه، وسالت دموعها دون تحكم وهي تسمع (حمزة)يروي لها ما حدث بتأثر:
ـ" لما (مازن) سابني عشان يزور دكتور (مصطفى)، اكتشفت إنه نسي موبيله عالمكتب عندي.. ناديت الساعي يلحقه بيه ملقيتوش، فأخدته ونزلت ألحق (مازن) في الجراچ. قبل ما أوصل مدخل العمارة سمعت أصوات مكتومة فجريت ناحيتها أشوف فيه إيه، لقيت ٣ تيران نازلين ضرب

في (مازن)، وواحد فيهم حط كفه اليمين عالأرض وضربه بكعب المسدس، لدرجة إني سمعت صوت العضم بيتكسر.. ربنا هداني أطلع مسدسي وأضرب طلقة في الهوا، فانتبهوا وسابوه وجريوا، بس واحد فيهم قال ل(مازن) 'عشان تبقى تعرف تكتب كويس'".

كتمت شهقاتها بكفها وهي تهتز بفعل بكائها الشديد، وأغمضت عينيها بقوة كي تمنع عقلها من تخيل مشهد حبيبها أرضاً، و(حمزة) يتابع:

ـ"(مازن) وقتها كان لسه بوعيه، بس طبعاً آلامه لا تُطاق. سندته على كتفي وركّبته عربيتي وجيبته على هنا.. يادوب قدر يكلم (زياد) أخوه وبعدها فقد الوعي زي مانتي شايفة، ومن ساعتها وهما معاه جوا.. الكلاب كانوا هيعملوه خالد سعيد تاني بس ربنا بعتني في الوقت المناسب".

تمالكت نفسها لتقول من بين شهقاتها:

ـ"لتاني مرة يحاولوا يقتلوه. المرة اللي فاتت زنّقوا على عربيته لحد ما دخل في الرصيف، والحكاية كلها كانت شوية خدوش واشتباه في ارتجاج، بس المرة دي قرصة ودن جامدة شوية. أكيد (النشار) ورا الحادثة دي كمان".

هز رأسه نفياً ليوضح قائلاً:

ـ"(النشار) ممكن يبقى آخر حلقة في سلسلة اللي عاوزين يخلصوا من (مازن) أو يقرصوا ودنه. المرة دي الموضوع جاي من فوق".

عقدت حاجبيها متسائلة:

ـ"فوق فين يعني؟ هما مش حددوا إقامة العادلي وغيروا الحكومة كلها؟ مش معقول مبارك منزعج من مقالاته للدرجة دي".

تنهد (حمزة) في ضيق مجيباً:

ـ"مش بخصوص مقالاته المرة دي.. دا بخصوص صفحته".

التفتت إليه في حدة تسأله:

ـ"صفحته؟ صفحة إيه؟"

التفت إليها بدوره متساءلاً:

ـ" طريق الحرية... انتي متعرفيش إن (مازن) هو الأدمن الوحيد للصفحة دي؟"

شعرت بالأرض تميد تحتها وهي تكتشف سراً جديداً عن زوجها، فاستندت بكفها إلى الحائط خلفها وعقلها يسترجع سريعاً تعليقها على الصفحة بعد عودة الإنترنت، وكيف جاء منشوره التالي وكأنه يرد عليها وعلى مشاجرتهما في تلك الليلة.

يا إلهي. متى تنتهي أسراره التي لا تعرفها؟ متى يصبح كتاباً مفتوحاً أمامها؟ لماذا يصر على الغموض وعدم إشراكها في حياته، ولماذا تشعر كل يوم أنه يتعمد تركها خارج حياته القديمة قبل زواجهما؟ بل ومتى يأتيها بنفسه ليخبرها طواعية كل ما أخفاه عنها؟

وكأنما ضغطت مشاعر الحنق زراً خفياً بعينيها، فتوقفت الدموع عن الانهمار، وعادت تتأمل زوجها من خلف زجاج العناية المركزة، وشقيقه يتحدث مع طبيب العناية بشأن حالته ومتى يسترد وعيه الغائب.

انتبهت على صوت هاتفها يرتفع برنة (منار) المميزة، فأجابتها بصوت مازال يحمل أثر الدموع:

ـ"أيوة يا (منار) ازيك؟"

أتاها صوت (منار) المنفعل على الطرف الآخر تهتف:

ـ"إيه اللي سمعته من (لميس) دا؟ جوزك في المستشفى صحيح؟"

تنهدت (علا) في عمق لتخفف توترها وهي تجيبها بأسى:

ـ"أيوة... في العناية المركزة. كنت لسه هكلمك عشان لو ينفع تستأذني طنط وتاخدي (مودي) عندك.. مش هقدر أسيبه في المستشفى في الظروف دي. أخاف حد يسهيني ويخطفه تاني".

صاحت بها مستنكرة:

ـ"أستأذن إيه يا مجنونة انتي؟ هي دي عاوزة استئذان؟ أنا في الطريق أصلاً وجاية آخد (مودي)".

***

الرابعة عصراً

المعادي

فتحت باب منزل أهلها ودفعت الصغير أمامها في رفق، قبل أن تنادي أمها بمرح مفتعل:

ـ"مامتي... تعالي شوفي مين جه يزورنا... الأستاذ (مودي) بجلالة قدره اتنازل وجالنا".

خرجت أمها من المطبخ قادمة نحو الصغير، وفتحت ذراعيها في ترحاب صادق:

ـ"(مودي) حبيبي... تعالى وحشتني يا نور عيني".

هرع (مودي) إليها ليغوص في أحضانها، وتركها تحمله إلى أقرب مقعد وجلسا يتحدثان كأنهما صديقان بالغان.

تركتهما (منار) لتدلف إلى غرفتها في إرهاق، وتتمدد على فراشها محاولة إستدعاء النوم الذي جافاها في الليلة السابقة، رغم إرهاقها الجسدي من الهتاف والتلويح بقبضتها في جمعة الرحيل.

كادت أن تستغرق في النوم حينما أتاها صوته الباكي المنزعج ينادي أخته، فاعتدلت في فراشها قبل أن تنهض للصالة لتجد (مودي) يبكي مذعوراً بين ذراعي والدتها.

اقتربت منه لتحتويه متسائلة في قلق:

ـ"مالك يا حبيبي؟ إيه اللي حصل يا ماما؟"

أشار إلى الحائط بشكل مبهم فالتفتت لتراه يشير إلى صورة شقيقها (سيف) المعلقة على الحائط بزيه الرسمي الأسود واقفاً في الصندوق العلوي لمدرعة وممسكاً ببندقية مثبت بطرفها قنبلة غاز مسيل للدموع.

أدركت مبعث خوف الصغير، لكنها قالت تطمئنه بابتسامة مرتبكة:

ـ"إيه يا (مودي).. انت نسيت عمو (سيف)؟ دا صاحبك اللي بيجيبلك شوكولاته".

هز (مودي) رأسه وهو ما زال مختبئًا في أحضانها قائلاً من بين دموعه:

ـ" لأ.. دا اللي داس الناس في التي في.. أنا شفته".

رفعت عينيها إلى أمها الصامتة، وعيناها تقولان رسالة صامتة فحواها "شفتي؟"

أبعدته عنها ليواجهها، ومسحت دموعه بأصابعها موضحة:

ـ" حبيبي دا عمو (سيف)... هو مكانش في التي في، ومش هو اللي داس الناس".

هز الصغير رأسه في إصرار هاتفًا:

ـ"لأ أنا عاوز (علا).. الراجل دا شرير وهيدوسني".

ارتفع لحظتها جرس الباب، ففزع الصغير وهو يختبئ في أحضانها ثانية، فيما اتجهت والدتها لتتأكد من هوية الطارق، قبل أن تفتح الباب مستغيثة بالقادمة:

ـ"جيتي في وقتك.. شوفي الولد ماله".

اقتربت (لميس) لتجتذب الصغير إليها محاولة تهدئته، قائلة:

ــ"مين زعل (مودي) حبيبي؟ خلاص احنا هنروح نلعب سوا عندنا ونسيبكم".

أجابتها (منار) بحركة مبهمة من رأسها باتجاه صورة (سيف) قائلة:

ـ"مش مصدق إن دا عمو (سيف) وإنه طيب مش شرير".

مسحت (لميس) دموعه براحتيها قائلة بابتسامة مطمئنة:
ـ" متخافش يا (مودي).. محدش من الأشرار هييجي جنبك.. وعمو (سيف) وأصحابه هما اللي هيحموك منهم زي المرة اللي فاتت".
هز الصغير رأسه في إصرار وعدم اقتناع، لتحمله قائلة:
ـ"خلاص تعالى بس احنا نلعب عندنا مع صاحباتك (نورا) و(رؤى) ونسيب (منار) للعوّ ياكلها".
ثم أتبعت هامسة موجهة حديثها إلى (منار):
ـ"(مازن) فاق على فكرة، بس لسه هيدخل عمليات عشان الكسور اللي في كف إيده".

***

العاشرة مساء
القاهرة الجديدة
فتح رتاج شقته الالكتروني، ودلف إليها في ارهاق اتضح في تهدل كتفيه، وارتسم على ملامح وجهه المتعبة وهو يغلق الباب خلفه جيداً بأكثر من مزلاج.
لم يكن إرهاقاً جسدياً فحسب، فقد رافقه إنهاك روحي لم يتخيل نفسه صريعاً له يوماً ما. فما رآه في العيون واستشفه بين نبرات الأصوات اليوم فاق أقصى قدراته على الاحتمال.
لربما رأى نظرات الشك كثيراً في عينّي زوجته، التي تعاني عقدة قديمة بطلها والدها الذي انساق خلف نزوة عابرة بعيداً عن والدتها. ورغم عودته وتوبته، لم يفلح في إعادة صورة المثل الأعلى إلى مكانتها السابقة في عينيها، وظلت نظرتها إلى جميع الرجال تحمل وصمة الخيانة.

عـرف ذلـك مـن والـدها، فجاهـد أن ينسـيها عقـدتها القديمـة؛ وكثـيراً مـا استجابت له ومنحته عدة أيـام مـن السـلام النفسـي، قبـل أن تعـود إليهـا هواجسها فتحيل حياته جحيماً بغيرتها وشكوكها.

كل هذا أِلفه واعتاده ولم يعد يؤثر به كثـيراً، لكـن أن يشـعر بـنفس الشـك يكاد يقفز من عيني (علا) و(زياد) صديق عمره، فهذا مالم يحتمله، بـل ولم يتخيله في أسوأ كوابيسه.

أتاه صوتها الملهوف وهي تقترب سريعاً هاتفة:

ـ"حمدالله بالسلامة يا (حمزة).. طمنني إيه الأخبار"؟

ألقى جسده المكدود على أول مقعد صادفه، وزفر بقوة قائلاً باختناق:

ـ"عملوله عملية في كفه اليمين عشان العضم اللي اتكسـر، وفاق الحمد للـه قبل ما اجي بشوية".

وقفت خلفه تدلك عضلات عنقه وكتفيه متسائلة:

ـ"ومعرفتوش برضه مين اللي عمل كدا؟ أنا بقول هو أكيد (النشـار) برضـه.. يا إما أمن الدولة".

انتفض مبتعداً وهو يستدير إليها غاضباً:

ـ"انتي كمان هتقولي أمن الدولة؟ مش كفاية الاتهام الأخرس في عيونهم؟"

عقدت حاجبيها وهي تجلس على المقعد المواجه له:

ـ"اتهام إيه؟ ولمين؟"

زفر بحنق وهو يجيبها:

ـ"اشمعنى الهجوم على (مازن) ميحصلش غير بعد الإفراج عني؟ معناها إيه غير إني اعترفت عليه في أمن الدولة فأفرجوا عني وعجنوه؟"

شهقت هاتفة باستنكار:

ـ"قطع لسان اللي يقول عنك كدا.. مش انت اللي تبيع أصحابك.. مش انـت اللي ممكن تكون محل شك أصلاً".

ضحك بجانب فمه في سخرية:

ـ"ما بلاش انتي".

تلعثمت قليلاً، ثم ما لبثت أن دافعت عن نفسها بقوة:

ـ"أنا شكيت فيك لإنك عمرك ما حكيتلي ولا عرّفتني بتغيب فين وليه.. مكنتش أعرف إنك عضو في حركة كفاية ولا إنك واحد من اللي قوّموا الثورة دي.. حتى أخويا كان عارف كل حاجة ومقالش ولا حتى لمّح لنشاطك دا. ولإنك مش بتتكلم قدامي كتير في السياسة عمري ما تخيلتك عضو نشط في حركة ضد النظام، فخليتني أشك فيك في اتجاه تاني".

تأملها للحظات قبل أن يشيح بوجهه بعيداً قائلاً بحزن:

ـ"واضح إن مكتوب عليا أفضل محل شك طول الوقت... مراتي تشك اني بخونها؛ وصاحبي اللي اتربينا سوا في بيت جده في البلد يشك اني بِعت أخوه عشان أخرج.. مهو لا يمكن واحد يقعد في أمن الدولة ١٠ ايام ويطلع منه صاغ سليم من غير خربوش وميكونش اعترف على أصحابه أو اتجند جوا ضدهم كمان".

تناولت كفه لتضغطها في قوة هاتفة:

ـ"متقولش كدا.. أنا ممكن أشك انك تخونني لكن مش ممكن تخون اصحابك.. مش..."

قاطعها وهو ينهض جاذباً كفه منها في عصبية:

ـ" ارحميني يا (راندا) بقى.. انتي فاكرة انك كدا بتريحيني؟!"

نهضت بدورها خلفه هاتفة:

ـ"اهدى بس يا (حمزة).. دي مش طريقة مناقشة.. انت متوتر من كل اللي حواليك وأنا بحاول أطمنك.. يمكن أنا غبية وقلت تركيبة الجملة غلط، بس مش قصدي ولا...".

صاح بحنق وكأنه شخص آخر:

ـ"قلتلك مليون مرة إني عمري ما اقدر أحب غير مراتي، وإني مش هكون سبب في تكرار عقدتك القديمة قدام عنيكي.. أثبتت لك بدل المرة ١٠٠ مرة إني مش شايف غيرك قدامي وبرضه جواكي الشك تجاهي.. حتى لما حاولتي تطمنيني رميتيني بالخيانة وكأنها حاجة سهلة، مع انها أبشع جريمة.. حرام عليكي انتي لو عاوزاني أبعد عنك وعن البيت مش هتعملي أكتر من كدا".

ألجمتها صيحته فاغرورقت عيناها سريعاً بالدموع ولم تحر جواباً، بينما لم يمنحها فرصة للرد وهو يتجه نحو غرفتهما هاتفاً:

ـ"رتبي شنطتك انتي و(ياسر) عشان هوديكي طنطا بكرا الصبح إن شاء الله.. الفترة الجاية مش هابقى في البيت ولازم أبقى متطمن عليكم".

عاد عنادها بقوة، فدقت الأرض بكعبها في اعتراض:

ـ"أنا مش عاوزة أسيبك.. عاوزة أفضل جنبك... مش هقدر أبعد ومعرفش ع..".

قاطعها ثانية وهو يواصل ابتعاده:

ـ"المعرفة على قدر الحاجة، وبرضه مش هقولك تحركاتي.. تصبحي على خير".

** ** **

(١٣)

الأحد ٦ فبراير

الثامنة صباحاً

قصر العيني

هاجمته نبضات الألم في شتى أنحاء جسده المكدوم، لكنها كانت حارقة كالجحيم في كفه المتهشم وضلعيه المشروخين ورقبته الملتوية.

كان يدرك أن آلام الرضوض المنتشرة بجسده ستزداد بمرور الوقت، وأن جراحة كفه والجبيرة حوله سرعان ما ستثيران آلامهما الخاصة بعد زوال مفعول المسكنات. لكن ألم ضلعيه كان يتزايد في كل مرة يحاول فيها إلتقاط أنفاسه، حتى صار مصدر صداع خاص بالتنفس.

فتح عينيه بصعوبة، ليهاجمه شعاع الشمس الساطع الذي تغلب على زجاج العناية المصمت، وأضاء الغرفة بقوة متحالفاً مع طلاء حوائطها الأبيض. أغمضهما للحظات قبل أن يعيد فتحهما محاولاً استكشاف الغرفة حوله، ليجدها متقوقعة حول نفسها في وضع غير مريح وقد استغرقت في نوم لا يبدو عميقاً.

كاد يهمس باسمها، حينما داعبته ذكرى مشابهة في بداية تعارفهما، فرسمت ابتسامة حنين خفيفة على شفتيه. يومها كان قد أُصيب بالقرب من منزلها في حادث سيارة مفتعل يحمل توقيع (النشار)، عدوه اللدود، كقرصة أذن لمنعه من استهدافه في مقالاته النارية. ورغم أن إصابته لم تكن شديدة، فقد تظاهر بأنها كذلك وهو يفاجئها باتصاله محتجاً على عدم اهتمامها بالسؤال عنه وعن صحته. كان أكثر ما يشغلها يومها هو كيفية حصوله على رقم هاتفها الذي لا يعرفه أحد تقريباً سوى (منار) ودكتور(مصطفى)؛ لكنه لم يُرحها وصمم على حضورها و(مودي) إلى المستشفى كي يخبرها ما تريد

بالطريقة التي يريدها هو. انتظرها في الصباح التالي كما وعدته، وكان وجه (مودي) ثم وجهها أول ما رأته عيناه.. يومها شاكسها كعادته مستمتعاً بشرارات الخجل التي تزين وجهها البريء، وأراحها بقوله إنه حصل على رقمها من تلك البطاقة المعلقة في رقبة أخيها وتحمل بياناته. كانت تتحين الفرصة للاستئذان والمغادرة خوفاً من أن يراها أي من الزملاء، لكنه لم يكن يريد ذلك، ليجد نفسه يحكي لها بعضاً من ذكرياته الأليمة، فقط ليستبقيها معه قليلاً. ففي قرارة نفسه كان يتمنى أن يرافقه هذان الوجهان ما تبقى له من العمر، وقد حرص على تحقيق ذلك.

تذكرها حينما أفاق بالأمس، وكيف انتفخت أجفانها والتهبت عيناها من كثرة ما ذرفتا من دموع الخوف والقلق عليه. ورغم آلامه همس لها مطمئناً:

ـ" متخافيش.. عمر الشقي بقي".

بالطبع هو كذلك، والدليل أنه ليس الحادث الأول الذي يتعرض له.

ابتسم بسخرية وهو يتذكر ذلك الثور الذي ثبّت كفه اليمنى على رخام السلم قبل أن يهشمه بكعب مسدسه، متخيلاً أنه بذلك سيمنعه من الكتابة.

هذا الأحمق... إنه لا يعرف أن حادثاً أسبق منعه من استخدام كفه الأيمن قبل أكثر من عشر سنوات.. الحادث الذي غيّر الكثير في مجرى حياته- وهي بعد في بداياتها- وأفقده صديق عمره، وأجلسه قعيد الفراش وجلسات العلاج الطبيعي لعدة أشهر. الحادث الذي كان سبباً في انتقاله إلى أمريكا برفقة والده الطبيب بالأمم المتحدة، ليقضي بها عدة أعوام، ويخوض بها تجربته معها.. مع (كاميلا).

وكأنما أقضت ذكراها مضجعه، تململ قليلاً ليَصدر الفراش صريراً خفيضاً أثار انتباهها، ففتحت عينيها وهي تنهض إليه في سرعة هاتفة بقلق:

ـ"(مازن).. انت كويس؟"
ابتسم في تهالك مجيباً:
ـ"بقيت كويس لما شفتك.. المهم انتي كويسة؟"
تضرجت وجنتاها خجلاً، لكنها اقتربت منه تتأمل عينيه عن قرب هامسة:
ـ"أنا أكيد كويسة طول ما انت قدامي.. ربنا يخليك ليا وتقوم بالسلامة".
تأملها بدوره وهو يتجاهل آلامه المبرحة قائلاً:
ـ"عارفة افتكرت إيه؟"
تنهدت وهي تقول بابتسامة خفيفة:
ـ" لما زرتك في المستشفى مع (مودي) أول مرة.. صح؟"
جاهد ليمنع نفسه من الضحك كيلا يهيج آلام صدره، فاكتفى بابتسامة وهو يشاكسها:
ـ"يومها كنت هموت وأفتح عيني على وشك، وأهي لما الحادثة اتكررت فتحت عيني برضه على وشك".
داعبت شعره بأناملها واقتربت تعاتبه:
ـ"يعني هو لازم مستشفى؟ خليك جنبي على طول وأوعدك أصحيك بنفسي كل يوم وتشوف وشي زي ما انت عاوز... المهم تكون بخير وماتبعدش عني لحظة".
قالتها واختنق صوتها بالعبرات وهي تتأمل الكدمات الزرقاء المنتشرة على صفحة وجهه، ثم ما لبثت أن شاكسته بطفولية:
ـ"قوم انت بس عشان نخلص الخناقة اللي بيننا.. لما أشوف انت مخبي إيه تاني عني".
عقد حاجبيه مستفهماً، لتتبع هي في غموض:
ـ"انت عارف وأنا عارفة الحادثة المرة دي سببها إيه.. بس مش وقته الكلام دلوقتي".

قال مغيراً دفة الحوار:

ـ"عاوز لما ييجي الدكتور يكتبلي خروج".

شهقت باستنكار:

ـ"خروج إيه وانت بحالتك دي؟ انت عندك ضلعين مشروخين يا (مازن) ولازم ترتاح عشان تقدر تتنفس طبيعي.. انسى انك ترجع الميدان دلوقتي".

ضغط فكيه بقوة من الألم المتصاعد يعصف بخلاياه، ليقول من بين أسنانه:

ـ"مش عاوز اقعد هنا.. المكان مش أمان. كلمي (زياد) ييجي ينقلني أي مستشفى في المعادي، وكمان عشان نبقى جنب (مودي)".

لاحظت حبيبات العرق التي نبتت على جبينه فجأة، فأدركت مدى ألمه وهو يلمس دعامة رقبته بكفه السليمة ويلتقط أنفاساً قصيرة حتى لا يحرك أضلاعه المشروخة، محاولاً ألا يصرخ من شدة ما يعانيه، فهتفت تهادنه:

ـ"حاضر.. حاضر.. اللي انت عاوزه".

ثم ضغطت زر استدعاء التمريض.

****

منتصف النهار

ميدان التحرير

داعبت أنامله شاشة هاتفه الذكي ليتابع عليها ما يحدث خارج "جمهورية التحرير"، ويستشف الخطوات السياسية القادمة بعد انضمام مختلف القوى الحزبية والسياسية إلى الثوار، ورفضهم التفاوض على بقاء الرئيس حتى نهاية ولايته. فقد أعلن الثوار اليوم أحد الصمود، ورفضوا السماح بفتح ميدان التحرير أمام حركة المرور، حتى لا يفقد الميدان والاعتصام هيبته. وانتقل حماس الثورة ليشعل باقي المحافظات التي خرجت إلى ميادينها الكبرى تطالب هي الأخرى برحيل مبارك.

خرج من تركيزه على زجاجة مياه معدنية تتراقص أمامه وخلفها صوت (وجيه) الساخر:

ـ" يا اخواننا أنا جيت التحرير عشان الكنتاكي والدولارات.. مكانش طموحي يبقى آخرة صبري مية معدنية".

رفع عينيه وانتقلت إليه عدوى السخرية من نظرات (وجيه)، فالتقط منه الزجاجة ليرتشف بعضاً منها ويعيدها إليه قائلاً:

ـ"ضحكوا علينا باين يا شيخ.. طب يمكن يكونوا بيوزعوا بيرة ومرضيوش يدولك عشان الدقن وكدا".

ارتفعت ضحكات (وجيه)، ليقول من بينها:

ـ"أهي حكاية شيخ دي زي الكنتاكي بالزبط.. لو بيوزعوا كنتاكي أبقى أنا شيخ.. يابني أنا مدرس انجليزي، والدقن دي مش دقن ملتزمين".

أثارت الجملة انتباهه، فعقد حاجبيه مفكراً قبل أن يسأله:

ـ" انت كنت زميل (سلمى) في الكلية بقى على كدا".

اعتدل (وجيه) ليرتشف بعض الماء على ثلاث دفعات، قبل أن يجيبه:

ـ"أيوه كنت دفعتها، وكنت كتير راشق في فنون جميلة عند (رأفت) قبل ما ألتزم. انت بقى تعرفه وتعرف (سلمى) منين؟"

أكسب صوته بعض الثقة وهو يقول:

ـ"اتعرفت على (رأفت) في الكلية، بس أنا كنت قسم عمارة، وكنت ساعات باستعبط وأروح معاه كلية الآداب عشان أتفرج عالموديلز اللي بيختارهم.. عقل عيال بقى".

ثم أضاف باهتمام:

ـ"بس علاقتنا عائلية كمان.. طنط والدة (رأفت) كانت بتعزمني كتير عندهم عالغدا عشان أنا مغترب.. من المنيا. ولما اتخرجنا وجاتلي فرصة

شغل في القاهرة قلت ل(رأفت) ييجي هو كمان يجرب حظه، وسكننا في شقة سوا".

هز (وجيه) راسه متفهماً، وعقله يشرد بعيداً في تلك التي تركها في الإسكندرية تتظاهر مع شباب بلدتها. إذاً ف(أكرم) يحمل بداخله مشاعر قد لا تختلف عن مشاعره هو شخصياً تجاه (سلمى)، وإلا ما لاحظ توتره في كل مرة يذكر اسمها عرضاً.

أتراه يحبها مثله؟ الأهم من ذلك، ماذا عنها؟ هل تبادله المشاعر؟ وإذا كانت تحبه بالفعل فلماذا لم يرتبطا؟

عاد بذاكرته إلى الجمعة القريبة، حينما قرر مصارحة (رأفت) بحقيقة أنه لم يتزوج، وأنه مازال يحلم بأن تكون (سلمى) زوجته.

يومها حفرت الدهشة أخاديدها على وجه (رأفت)، وبدا وكأنه يسترجع بداخله مشاهد أخرى، قبل أن يعود بتركيزه إليه قائلاً باختناق:

ـ"انت شقلبت حسابات كتير أوي بكلامك دا يا (وجيه)... صحيح (سلمى) اتقدملها ناس كتير وهي رفضتهم، لكن مؤخراً كانت بتفكر بجدية في الارتباط، ودا بالتحديد بعد ما قابلتك وقلتلها انك ارتبطت وعايش حياتك".

ثم أتبع متساءلاً:

ـ"انت كلمتها في الموضوع دا؟ ارتباطكم يعني؟"

فرك (وجيه) كفيه ليبثهما بعض الدفء مجيباً في حيرة:

ـ"ما ادتنيش عقاد نافع.. قالتلي لما نشوف البلد رايحة لفين والدنيا هترسي على إيه... لكن أنا بجد يا (رأفت) عاوزها.. شفت بنات من كل النوعيات وفضلت هي اللي قدامي.. أنا مش قليل الرباية عشان أتكلم عن أختك قدامك، بس انت شاهد على اللي كان بيننا زمان. ومين عارف، يمكن لما نزيح مبارك الأمور تختلف ومتبقاش دقني ولا مقالاتها دليل إدانة نتسحب بسببها على أمن الدولة".

لكن (رأفت) لم يمنحه هو الآخر رأياً قاطعاً، وتركه ضائعاً تتخبطه أمواج الحيرة.

أما الآخر، فشعر برسالة (وجيه) الخفية وهو يخبره تاريخ معرفته القديمة ب(سلمى).
يدرك جيداً أن ذلك الشاب الأنيق الملتحي ينافسه عليها، خاصة بعدما انتحى جانباً ب(رأفت) لبعض الوقت قبل أن ينفصلا ويختار صديقه الابتعاد عن موضعهما. قلبه أنبأه يومها أن الأمر يتعلق بها، فحاول الاتصال بها مستغلاً جلوسه وحيداً. كان يراهن نفسه على استجابتها لاتصاله معتقدة أن شقيقها يتصل بها من هاتفه، لكنها ما إن سمعت صوته حتى اكتسب صوتها لهجة أكثر برودة من صقيع ليل يناير وهي تسأله عن (رأفت)، ثم ما لبثت أن أنهت الاتصال متحججة برغبتها في نيل قسط من الراحة بعد يوم المليونية الطويل.
لم يجرؤ، وهو المقدام، أن يفاتح أخاها بشأنهما، ليس وطلب (وجيه) المفترض مايزال طازجاً، فاكتفى بمراقبة الأجواء من بعيد، ليستكشف ما آلت إليه الأمور.
وبتزامن غير مقصود، دعا كلاهما الله أن تكون (سلمى) زوجته يوماً.

******

المعادي

استجاب (زياد) لرغبة أخيه، واستطاع نقله إلى اقرب مستشفى من منزل (علا) في المعادي، حتى تستطيع متابعة (مودي) في نفس الوقت دون قلق.. فالمعادي مازالت تتمتع بالهدوء الذي تفتقر إليه أغلب مناطق العاصمة في هذا الوقت المضطرب. في الوقت نفسه، سيحصل (مازن) على رعاية صحية

أفضل في هذا المستشفى الخاص الذي يقف حراس مسلحون على أبوابه لحماية مرضاه.

كانت هناك الكثير من الأوضاع الغامضة التي لم يفهمها (زياد) في البداية، لكنه بمرور الوقت أدرك بعضها ولم يجد بُداً من السؤال عن البعض الآخر لتتضح الصورة أكثر.

اقترب منها وهي تقرأ القرآن بخفوت بالقرب من فراش شقيقه الغائب عن الوعي قسراً بفضل المسكنات القوية، فجلس صامتاً كي لا يقطع تلاوتها. لكنها شعرت به فصدّقت والتفتت إليه متساءلة بعينيها، ليقول هو بهدوء:

ـ"كنت عاوز أفهم حاجة غامضة شوية.. استهداف (مازن) مفهوم، لكن استهدافك انتي ليه؟ حسب كلامك الشخص اللي حاول يفتح شقتكم مكانش عاوز يسرقها، فانا مش فاهم كان جاي ليه بقى؟"

شردت عيناها بعيداً للحظات، قبل أن تجيبه:

ـ"مش أنا الهدف.. (مودي) هو الهدف".

لمحت انعقاد حاجبيه والدهشة التي ظللتهما، فتابعت موضحة:

ـ"أنا الوصية القانونية على (مودي) بعد إصرار أمه على الطلاق مقابل التنازل عن حضانته.. فجأة بعد سنة من وفاة بابا افتكرت ان لها ابن سايباه وهو عمره شهور. ولإنها عارفة إن مفيش قانون هيديها الولد فكرت تخطفه، وخطفته فعلاً".

قطعت عبارتها وهي تمس بطنها بأسى ثم تابعت:

ـ" وبسبب اللي حصل يومها فقدت حملي اللي مكنتش أعرف بوجوده أصلاً. فيبقى الاحتمال الأقرب وسط الانفلات الأمني دا إن الراجل مكانش حرامي، خصوصًا إنه كان مغطي وشه زيّ الاتنين اللي خطفوا (مودي) المرة اللي فاتت".

ارتسم الضيق على وجهه وهو يعلم للمرة الأولى بفقد أخيـه لطفلـه، وعـاد لعينيه مشهد دموعه الحبيسة وهو يواسي العم (عزيز) في مصابه.. لم يكـن يعلم أن تلك الدموع على الجنين الذي ذهب قبل أن يفرحا بوجوده، بـل لم يكن يتخيـل أن يعـانى هـذان الزوجـان في مسـتهل حيـاتهما الجديـدة بهـذا الشكل بدلاً من أن يتمتعا بكل لحظاتها.

أما هي، فصمتت وشريط ذكريات ذلك اليوم يعاودها بقوة، وكأنها تعيشـه من جديد.

كانت في طريقها و(مودي) إلى مدخل البناية كي يصحبهما (مـازن) في رحلـة إلى الملاهي، حينما ظهر ملثمان مـن العـدم ليجـذب أحـدهما الصـغير منهـا بغتة. قاومته ليلطمها بكفه بقوة أطاحت بها لتقـع عـلى وجههـا فتصـطدم جبهتها برخام الدَرَج وتفقد وعيهـا، ليختفـي هـذان المهـاجمان وبصـحبتهما (مودي).

أفاقت في المستشفى لتجد نفسها وحيدة من كليهما.. أخيها وزوجهـا. فقـط (منار) كانت إلى جانبها في تلك اللحظة.. مهلاً.. كـان شـيطانها حـاضراً بقـوة أيضًا، وهو من أوحى لها بفعلتها الحمقـاء. فعنـدما أتاهـا ضـابط الشــرطة لأخذ أقوالها فيما حدث وعلى من تُلقي الاتهام، لم تجد أمامها سوى (مازن) لتتهمه بخطف الصغير.

حاول الضابط إثناؤها عن الاتهام، وكذلك فعلت (منار) التي كادت تلطمهـا على وجنتها الأخرى علها تفيق من ذلك الهذيان. لكنهـا كانـت مُصــرة عـلى اتهامها له، وكل الغمـوض الـذي أحـاط حياتهـا مـع زوجهـا يتجسـد أمامهـا عملاقًا ليبرر لها ما تفعله. فإن لم يكن هو خاطف الصغير، فعلى الأقل فعلها الخاطف انتقاماً منه، وهو لا يفتقر إلى عداوات، وإلا فما تفسير غيابه عنهـا في تلك الأزمة سوى أنها بتدبير منه؟

وحدها (منار) احتفظت بعقلها في تلك اللحظات، لتنبهها إلى أن (بهيرة) والدة الطفل لابد وأن تكون خلف الاختطاف لأنها المستفيدة الأولى منه، واستطاعت أخيراً إقناعها بتقديم بلاغ رسمي ضدها.

في قسم الشرطة، فوجئت بوجوده بمكتب الضابط، واكتشفت كيف خاطر (مازن) بحياته مهاجمًا (النشار)، حتى علم بتحالفه مع (بهيرة) التي تصادف كونها زوجة أحد شركائه في عالم البيزنس القذر. شعرت بنظرات الضابط و(منار) تكاد تصفعها على حقارتها في اتهام زوجها، وهو الذي استغل كل امتيازاته لاستعادة أخيها قبل أن تهرب به (بهيرة) خارج مصر. ولسوء حظها، زل لسان الضابط ليُفاجأ (مازن) باتهامها المجنون.

تجمدت نظراتها على وجهه في تلك اللحظة، وهي ترى اشتعال الغضب في مقلتيه، لكنه أجاد لجام شياطين غضبه أمام الضابط وتظاهر بالابتسام قائلاً إن حصانته تحميه من أي اتهام مماثل، قبل أن يغادر معها مكتب الضابط، فيتركها بالردهة وتنهب خطواته الأرض خروجاً من مبنى القسم. أخرج غضبه في إطار سيارته الذي ركله بمقدمة حذائه عدة مرات اهتزت لها السيارة حتى كادت تئن ألماً، لولا أن شعر بالألم يغزو ساقه قبلاً، فتوقف لاهثاً وأصلح هندامه، ثم عاد إليها حاملاً زجاجة عصير بفاكهتها المفضلة هامساً بسخرية:

ـ"سمعت إن نقص السكر في الدم بيخلي الواحد يخرّف.. اشربي عصيرك واطلعي برا نتكلم".

كانت سخريته تذبحها، ناهيك عن شعورها بالندم لتسرعها في اتهامه بشكل رسمي. لذا ما إن ارتشفت العصير وشعرت بتغلغل السكريات في خلاياها المتوترة حتى صارحته بمدى افتقادها له حينما أفاقت، وأن شعورها بالوحدة في تلك اللحظة الحالكة أفقدها ما تبقى من تعقلها، فأصبحت أشبه بقطة شرسة تنبش مخالبها في وجوه الجميع بلا استثناء.

عاتبها بألم، وهو الذي هاجم عش الـدبابير بنفسـه انتقاماً لهـا ممـن أذاهـا واختطف أخيها. لكنه سامحها حينما رأى ندمها الساطع في عينيها الغارقتين بالدموع.

في تلك اللحظة داهمت أحشائها آلام غريبة لم تفهم كنهها، ولم تكـن تعلـم أنها نذير فقدان جنينها. فقد كان كل اهتمامها وقتها هو نجاح الشـرطة في العثور على الصغير قبل خروجه من مصر إلى الأبـد. وبالفعـل عـاد الصـغير ليقضـي ليلته في بيتهما كعادته، وبـدا أن الأمـور سـتعود إلى نصـابها ثانيـة، لولا أنها....

قاطع سيل ذكرياتها صـوت نحنحـة هادئـة، فانتفضـت ملتفتـة إلى (زيـاد)، لتسمعه يقول في حرج:

ـ"معلش يا (علا) بس كان لازم استأذنك الأول.. (كـاميلا) في مصـر وعـاوزة تطمن على (مازن)".

وأضاف بهذه الجملة عبئاً جديداً.

** ** **

(١٤)

الاثنين ٧ فبراير
العاشرة صباحاً
المعادي

مسحت فمه بمنشفة نظيفة بعدما ساعدته في تناول إفطاره، وتابعت الممرضة وهي تعطيه جرعات الأدوية والمسكنات وتنصرف بابتسامة لزجة مخصصة لذلك المريض الوسيم، الذي لم يعرها أي اهتمام لسوء حظها.

اقتربت تصفف شعره بأصابعها بخفة أثارت دهشته، فسألها:

ـ"هو فيه إيه؟ مش عوايدك يعني".

هزت كتفيها ببساطة مجيبة:

ـ"هو لازم يبقى فيه حاجة عشان أهتم بجوزي حبيبي؟ وبعدين لو مش عوايدي اعتبرها ياسيدي عوايدي من النهاردة".

قالتها وهي تقترب أكثر لتطبع قبلة دافئة على جبهته، المكان الوحيد الذي لم تصبه لكمات المهاجمين، هامسة بدعاء أن يحفظه الله لها ويحميه من كل سوء. تلكأت شفتاها قليلاً، وهي تدس أنفها في مقدمة شعره وكأنها تستعيد رائحته لتشعر بالأمان، فقال ساخراً:

ـ"لا كدا مش طبيعي.. هو حد قالك إني هموت ولا حاجة؟"

شهقت مبتعدة، ثم لاحت نظرة عتب بعينيها الزرقاوين وهي تهمس باختناق:

ـ"فال الله ولا فالك.. مهو انت مش هتحس باللي فيا لانك معشتش الرعب اللي أنا عيشته من وقت ما (حمزة) قال لي عالحادثة. الشيطان ملعبش براسك كورة وخلاك مش عارف هتشوف نصك التاني ولا لأ. ما...".

خنقتها العبرات فصمتت، ليجذبها هو إلى جناحه بعيداً عن ضلعيه المصابين، ويحتويها قدر استطاعته هامساً بحب:

ـ"آسف يا روحي مقصدتش أضايقك، أنا بس وحشني وشك الأحمر فقلت أنكشك بأي حاجة".

أخفت وجهها في صدره، وكأنما تثبت لنفسها أنه ما يزال معها، فمسد ظهرها برفق وهمس بتلاعب:

ـ" طب إيه بقى؟ احنا في مستشفى على فكرة".

ابتعدت في حرج ولكزته في كتفه الأيسر قائلة بغيظ من بين أسنانها:

ـ"أنا غلطانة اني بحبك وانت عمّال تتريق.. ماشي يا(مازن).. لنا بيت يلمنا".

هم بمشاغبتها ثانية حينما ارتفعت طرقات هادئة على باب الغرفة، أعقبها ظهور (زياد) خلفه وهو يقول بابتسامة مشاكسة كأخيه:

ـ"صباح الخير عالحلوين.. معايا ضيوف.. ندخل ولا نستنى؟"

ابتسم (مازن) بدوره وقال مرحباً:

ـ" لو ضيوفك حلوين زيك يتفضلوا طبعًا".

أما هي فساد الترقب ملامحها وارتفعت دقات قلبها وهي تعلق بصرها بفرجة الباب التي اتسعت أكثر فأكثر حتى كشفتها... (كاميلا آدمز)

***

العاشرة صباحًا

قصر العيني

نقل إحدى القنوات الإخبارية نبأ وقوع هجمات على مقر قطاع الأمن المركزي بمدينة رفح المصرية، وتحدثت عن وقوع مناوشات بين الضباط والبدو، وإصابة البعض من الطرفين، و...

لم تنتظر متابعة الأخبار على تلفاز حجرة الأطباء بالمستشفى، فهرعت إلى هاتفها تتصل به، ودقات قلبها تسابق رنين الهاتف للوصول إليه. وكلما

أعادت الاتصال، تزايد القلق بداخلها وشيطانها يوسوس لها بالكثير الـذي لا تريد التفكير فيه.

أخيراً أتاها صوته المنهك على الطرف الآخر، فهتفت به في لهفة:

ـ"(سيف).. طمنني عليك عامل إيه"؟

أجابها بغيظ مكتوم:

ـ"دا وقت اتصال يا (لميس)؟ الدنيا مقلوبة وانتي عاوزة تطمني؟"

ارتُج عليها للحظات نسيت فيها حـروف الأبجديـة، قبـل أن تتمالـك نفسـها لتقول:

ـ"آسفة مكنتش أعرف انت في العريش ولا رفح.. قريت خـبر عـن هجـمات على قطاع الأمن المركزي قلت اتطمن. وعمومًا واضح انك كويس. سلام".

همت بإنهاء الاتصال ليهتف بها متراجعًا:

ــ"استني يـا مجنونـة انتـي.. خـلاص اتصـلتي ورديـت علـيكي، بـتقفلي ليـه دلوقتي؟"

اختنق صوتها بالعبرات وهي تعاتبه بضيق:

ـ"مش عاوزة أعطلك أكتر.. أنا غلطانة إني مشيت ورا قلبـي وقلقـت عليـك. بعد كدا ابقى اقفل موبيلك أحسن وقت الاشتباكات".

زفر بتـوتر وهـو يـدرك في قـرارة نفسـه كيـف جرحهـا بحديثـه، لكنـه قـال بكبرياء:

ـ" لا أنا غلطان ولا انتي غلطانة يا ستي خلاص.. وعمومًا أنا في العريش مش رفح لإني مش بنزل تشكيلات. بس دا لا يمنع إني أقف على برج الحراسة زي العساكر.. عشان كدا انفعلت عليكي لإني كنت لسه داخل أنام".

لم تجبه، فقال بصبر نافذ:

ـ"خلاص يا (لميس) متعمليهاش حكاية.. قلنا الموضوع انتهى. لو بابا أو ماما سألوكي عرفيهم إني في العريش مش رفح، لإني غالبًا هعمل بنصيحتك دلوقتي وأقفل الموبيل عشان اعرف أنام شوية".

قالت بآلية:

ـ"حاضر.. أي أوامر تانية يا فندم؟"

رق صوته ليستعطفها:

ـ" ما تبقيش قلبك اسود بقى.. انتي عارفة إني لما بكون في الشغل ردودي بتبقى غير متوقعة.. معلش أنا آسف انها جات فيكي المرة دي. طب أقولك خبر كويس؟ احتمال أنزل أجازة خلال يومين".

قفز قلبها طربًا، حتى أنها نسيت إهانته الموجعة، لتقول بسعادة حقيقية:

ـ"بجد؟ هينفع تنزلوا أجازات في الوضع دا؟"

ابتسم في ثقة لعلمه بنجاح أسلوبه في مصالحتها كالعادة، وأجابها بهدوء:

ـ"سمعت كلام كدا بس مش مؤكد إنهم ممكن ينزلوا جزء مننا أجازة، خصوصًا اللي كان عليهم الدور في النزول زيي كدا.. يالا يا ستي خبر حصري أهو، بس دا سر.. متقوليش لحد، هعملها مفاجأة".

قالت بسعادة:

ـ"سرك في بير".

***

المعادي

تقدمت بقوامها الفرنسي الذي لم يغيره تعاقب نحو عشر سنوات، وكأن الزمن وقف عاجزاً أمامها لا يستطيع التأثير في ملامحها المغرية. شعرها الأحمر مازال نارياً، وإن قصرت خصلاته قليلاً حتى باتت تداعب كتفيها مع حركتها المتأنية بغنج. أما عيناها الخضراوان فتألقتا ببريق الزمرد عندما جابتا أرجاء الغرفة لتتوقفا على وجهه المتجمد.

واصلت اقترابها لتنحني وتطبع قبلة خفيفة على جبهته، لم يستطع تفاديها بسبب دعامة عنقه التي تقيد حركته، قبل أن تقول بلهجتها الأمريكية:
-" أوه عزيزي المسكين.. يبدو أن مصيرنا اللقاء على أسرة المستشفيات.. لكنني للأسف لن أستطيع إعادة تأهيلك هذه المرة، فقد غيرت مهنتي قبل سنوات".
رمق أخيه بنظرة نارية، ثم قال لها بابتسامة صفراء:
ــ"شكراً عزيزتي.. لدينا أخصائيين أكفاء. والحادث ليس بخطورة المرة السابقة".
هزت رأسها متفهمة، ثم أدارت بصرها إلى (علا) ومدت كفها مصافحة بمودة:
-"لابد أنك زوجته الجديدة.. أنت جميلة للغاية، لكنني لم أتوقع أن أرى شقراوات في مصر".
صافحتها (علا) بهدوء وأشارت إليه بالجلوس على مقعد قريب قائلة بانجليزية سليمة:
-"ربما لأن جذوري ليست مصرية، وإنما من روسيا.. أذربيجان".
ارتسمت الدهشة على ملامحها وهي تقول بابتسامة واسعة:
-"أووو.. (مازن) يجمع الأمم المتحدة في منزله إذاً".
ابتسمت (علا) بهدوء لتتبع (كاميلا) موجهة حديثها إلى (مازن):
-"حاولت مقابلتك في تونس أثناء تغطيتي الثورة التونسية، لكنك غادرت سريعاً. وحينما أتيت هنا حاولت مقابلتك في ميدان التحرير لكنك كنت كالزئبق.. تجيد الهرب".
أجاب بحيادية:

ـ"لم أمكث في تونس طويلاً لأن الأمر انتهى سريعًا دون تدخل أممي. أما في ميدان التحرير فأنا مجرد واحد ضمن ملايين، لا فضل لي عليهم.. كلهم أفضل مني كمصريين وثوار".

هزت كتفها محاولة ألا تبدو مهتمة:

ـ"على الأقل لم أكن لأراك على فراش المرض ثانية.. فأنت تعلم كم يؤذيني ذلك".

طار بنظراته إلى زوجته، ليجدها تتعامل ببرود شديد، وكأن عبارة (كاميلا) الأخيرة لم تطرق مسامعها، حتى أنه تمنى ذلك بالفعل متوجساً من المشاجرة القادمة والاتهامات التي ستقذفه بها كالعادة.

ولحسن حظه، دقت الممرضة الباب في تلك اللحظة لتدخل وتدفع أمامها عربة مدولبة تحمل عدة معدات طبية. تبادلت نظرة باسمة مع (زياد) لتقول بأدب:

ـ"لو سمحتوا محتاجين المريض لوحده عشان الدكتور جاي يتابع الحالة".

انتهز (زياد) الفرصة ليقول مسرعاً:

ـ"هيا بنا (كاميلا).. أرى أنه لا يصح وجودنا وقت الفحص.. هيا لأعيدك إلى الفندق".

ثم ما لبث أن غمز بعينه في الخفاء لشقيقه قائلاً:

ـ"هرجعلك على آخر النهار كدا عشان أشوف اخبارك ايه".

وحينما اقترب من الممرضة همس لها مبتسماً:

ـ"برافو عليكي.. عملتي زي ما قلتلك".

***

الإسكندرية

منتصف النهار

القائد إبراهيم

جلست على حافة الكورنيش وأعطت ظهرها للشارع لتستطيع تأمل البحر بأمواجه الهادرة.. كان ما تفعله في هذا الوقت من العام جنوناً لا ريب، لكنها كانت تقريباً في عالم آخر، شاردة تتقاذفها أمواج الذكريات تماماً كما يفعل البحر الآن بما يحويه. لم يكن لجوءها إلى الذكريات سوى وسيلة للهروب من التفكير المستمر على شتى الأصعدة، ما بين هموم شخصية تؤرقها كسائر بني وطنها، وهموم وطن ينتفض بقوة ليخلع عنه نير استبداد الحاكم وشيعته.

أعادتها رنته المميزة إلى الواقع، فتهللت ملامحها وهي تلتقط الهاتف من جيبها وتجيبه في سرعة تحمل شقاوتها المعتادة:

ـ" يادي النور يادي النور... أخيراً فكيت عن كيسك واشتريت موبيل".

أتاها صوته ضاحكاً على الطرف الثاني هو يجيبها:

ـ"كيس مين يا بنتي؟ هو احنا حيلتنا اكياس؟! دا موبيل كان عند(منار) جابتهولي أمّشي حالي بيه بدل ما أنا على وشك أجوّز أختي للي يسلفني موبيله".

احتقنت أذناها فهتفت بغيظ:

ـ" اتلم يا (رأفت) بدل ما أجيلك".

ارتفعت ضحكاته لتثير غيظها أكثر فتزجره بالمزيد من الوعيد، إلى أن تمالك نفسه ليقول بجدية مفتعلة:

ـ" بجد بقى انتي قاعدة عندك في الطراوة وسايباني بين الاتنين زي ما اكون في كماشة.. (وجيه) كلمني فعلاً في إنه عاوز يتجوزك ومتمسك بيكي، خصوصاً إن لو مبارك مشي حياتكم سوا مش هتبقى مهددة زي زمان".

سألته بعفوية ندمت عليها لاحقاً:

ـ"(وأكرم)؟"

أجابها بخبث:

ـ"غريبة يعني... كنت فاكرك مش مهتمة".

أرجحت ساقيها بلا مبالاه، لتقول:

ـ"أنا فعلًا مش مهتمة، بس انت بتقول الاتنين عاملين عليك كماشة، فقلت أعرف عملوا إيه... فضول يعني مش أكتر".

قال متفهمًا:

ـ" أهاا.. طيب ما دام فضول بقى، (أكرم) ما اتكلمش بوضوح، بس في وسط الكلام لوحدنا لمّح أكتر من مرة إنه أخد موقف مع والدته وأضرب عن الجواز لإنه مش هيتجوز غير اللي قلبه اختارها بموافقة أمه.. يعني لو هي فضلت رافضة فهو مش هيتجوز نهائي حتى بعد موتها.. بصراحة مش عارف هو صح ولا غلط، وهل دا فيه عقوق لها ولا إيه.. بس مش هو دا المهم بالنسبة لي".

سألته باهتمام حاولت ألا تبديه:

ـ" وإيه هو المهم بالنسبة لك؟"

زفر بقوة قبل أن يسألها بجدية:

ـ" المهم هو انتي.. كل الكلام دا في الهوا.. انتي عاوزة مين؟ مين فيهم لما يتقدم لك رسمي هتوافقي تتجوزيه وتشيلي اسمه وتخلفي عياله؟ مين اللي انتي مستعدة تتنازلي عن أي حاجة عشانه، وبنفس راضية؟"

صمتت لبرهة، تسترجع في ذهنها لقطات عديدة، قبل أن تجيبه في وجوم:

ـ"هتصدقني لو قلتلك معرفش؟ الأغرب بقى إني ممكن أرفض الاتنين بدون ندم. مانكرش إن كل واحد فيهم كان له دقة مخصوص في قلبي، بس الاتنين هزوا ثقتي فيهم. (وجيه) هز ثقتي فيه لما كان بيقلل من كل حاجة أعملها

ويسفّه رأيي ويحسسني إني واحدة شـمال لمجـرد إني مـش لابسـة إيشـارب على شعري. أنا سِبته باختياري وقتها صحيح، ومعرفش ليه كنت بدوّر عـلى حد فيه صفاته الكويسة عشان يكون جوزي. بس لما رجـع وشـفته وعرفـت إنه لسه ماتجوزش، محسيتش بأي حاجة... حتى محنِتش لذكرياتنا زمان".

سألها بخفوت:

ـ" طب و(أكرم)؟"

تنهدت بعمق لتجيبه:

ـ" أهو دا كمان حكايته حكاية... الـلي يشـوفه بيـنط لي في كـل مكـان كأنـه مراقبني، واللي يشوف اهتمامه وقلقه وسربعته عشان نـرتبط في ٣ أسـابيع، مايشوفش الموضوع اللي اتقفل بالضبة والمفتاح بسبب مامته. أنا مـش ضـد إنه يبرها ويسمع كلامها، بس مش لدرجة إن حياتي تتوقف على كلمة منهـا أو من أي حد تاني.. عاوزني أثق فيه إزاي دا وأسلمه مفاتيحي كلها؟ عرفـت بقى أنا ليه قلتلك الاتنين مش أهل لثقتي؟"

قال معترضاً:

ـ"أيوه يا (سلمى) بس....".

قاطعته بحسم:

ـ" بس إيه؟ انت سألتني مين فيهم ممكن تتنازلي عن حاجة عشـانه بـنفس راضية، وأنا دلوقتي بقولك ولا واحـد فـيهم... لسـه محـدش فـيهم وصّـلني للدرجة دي من الثقة، وأنا مش هتجوز كِمالة عدد".

ثم عادت تتأمل البحر.

***

المعادي

تابعها بنظراته في ترقب، وهي تتحدث بخفوت إلى الممرضة قرب الباب، قبل أن تأتيه وابتسامتها الطبيعية تزين محياها قائلة:

ـ"بتبصلي كدا ليه؟ كنت باتعرف عالممرضة عادي يعني".
رفع أحد حاجبيه دون اقتناع لتضحك بعبث طفولي:
ـ" خلاص يا (مازن).. كنت باسألها على معاد دكتور العظام عشان ظهري اللي واجعني من يومين دا".
ضغط راحتها بكفه السليمة وقال مشفقا:
ـ" آسف اني تعبتك معايا اليومين اللي فاتوا، و.."
قاطعته وهي تضع أصابعها الباردة على فمه قائلة بحزم:
ـ" بيتهيألي مفيش داعي تكمل لإنك هتقول كلام يزعلني".
لثم اصابعها وعاد يكتنفها في راحته ليبثها بعض الدفء، وقال مبتسماً:
ـ"خلاص يافندم.. اتكلمي انتي.. هتتخانقي امتى؟"
عقدت حاجبيها متسائلة:
ـ" اتخانق ليه؟ ربنا ما يجيب خناق".
أشار بعينه للخارج قائلاً:
ـ" عشان (كاميلا) وزيارتها الغريبة".
ضحكت في رقة لتشاكسه:
ـ" انت فاكر إنها جات من غير علمي؟ دكتور (زياد) قالي امبارح وأنا قلتله تشرف.. احنا مش هنمنع الضيوف".
زادت دهشته أضعافًا وهو يسألها:
ـ"يعني كنتي مستعدة؟ عشان كدا اتكلمتي معاها ببرود كأنها واحدة عادية".
اقتربت تتأمل عينيه قائلة بثقة:
ـ"مهي فعلًا واحدة عادية. مراسلة لقناة امريكية عاوزة تتطمن على صديق قديم شارك في الثورة. أنا استقبلتها على هذا الأساس، وانت مقصرتش الصراحة.... مديتهاش وش".

ضحك معها قبل أن يقول بحذر:
ـ" بس انتي عارفة إنها كانت مراتي الأولانية، وقبلها كانت اخصائية العلاج الطبيعي اللي تابعت إعادة تأهيلي في أمريكا".
هزت كتفها قائلة:
ـ" أديك قلتها.. كانت مراتك. دلوقتي أنا بس مراتك.. عنيك مش بتلمع غير ليا... قلبك مش بيدق غير معايا.... بتشع دفا ليا أنا وبس، وأي ست تانية بالنسبة لك هوا".
تأمل ثقتها الجديدة به صامتًا، ثم قال متعجباَ:
ـ" اللي يشوف غيرتك من (أنجلينا جولي) من شهر ميشوفكيش دلوقتي".
ضحكت بقوة هذه المرة واكتسى وجهها بحمرة خفيفة:
ـ" ماتفكرنيش بقى... كمية المفاجأت اللي شربتها يومها تهد جبال".
همس بصدق وهو يقربها من جانبه السليم:
ـ" بحبك".
أراحت رأسها على كتفه وهي تسترجع في ذهنها ذلك اليوم قبل شهر تقريباَ..
يومها اصطحبها الى عشهما الجديد في إحدى التجمعات السكنية الجديدة، ليوقظ بداخلها شكوكًا طالما تجاهلتها... فمن أين لصحفي شاب بجريدة معارضة امتلاك سيارة ألمانية موديل نفس العام وفيلا خاصة من طابقين؟
لم تحاول يومها التفكير بمنطقية، وإنما قفزت سريعًا إلى استنتاجها الخاص بأنه ربما يكون عميلًا لجهة أمنية، مستندة إلى مهاجمته الجميع دون أن يخش الأمن أو من يهاجمهم.
واجهته بشكوكها، ليشتعل غضباَ منها، ثم يلقي إليها عقد امتلاك سيارته التي اشتراها بالتقسيط، وعقد الفيلا التي ساهم والده بأكثر من نصف ثمنها، تمامًا كما ساعد (زياد) في شراء منزله بأمريكا.

لكن رصيد المفاجآت يومها لم يقف عند هذا الحد، وهي تكتشف أن ما يحمي زوجها من بطش الأمن هو حصانته الدولية كأحد المسؤولين بالمفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. فعمله بالأمم المتحدة يمنحه حصانة خاصة في أي دولة يعمل بها، خاصة إذا كان لا يحمل جنسيتها... وفي حالة (مازن) كان جواز سفره الأمريكي سببًا إضافيًا لعدم ملاحقته أمنيًا.

لذا كان من الطبيعي أن تثور من إخفائه كل تلك الحقائق عنها، وهي تتهمه بأنه لا يثق بها ويعتبرها شخصًا هامشيًا في حياته. وفي غمرة غضبها تذكرت غيابه الطويل عن الصحيفة، لتسأله في حنق:

ـ" قولي إنك كنت بتغيب عن مصر عشان سفيرات النوايا الحسنة.. قابلت (أنجلينا جولي) كام مرة على كدا؟"

لم يملك وقتها إلا الضحك على تغييرها مجرى الحديث بطريقة جعلته يفقد الكثير من غضبه، ويتفق معها على أسس جديدة في حياهما، أهمها ألا يكون بينهما أية أسرار.

لكنه عاد وأخفى عنها أمر صفحته على موقع فيس بوك...

رفعت رأسها عن صدره لتقول بغضب مصطنع:

ـ" نسيت.. لسه فيه خناقة، بس مش دلوقتي".

** ** **

(١٥)

الثلاثاء ٨ فبراير

التاسعة صباحاً

المعادي

أتمّت ارتداء ملابسها في هدوء، كيلا توقظ الصغير النائم في فراشها، ثم التقطت حقيبتها وغادرت الغرفة على أطراف أصابع قدميها استعدادًا للذهاب إلى مقر عملها في الجريدة، حينما أتاها صوت والدتها تقول محتجة:

ـ" ممكن أعرف انتي نازلة ليه، إذا كان شغلك ممكن يخلص من هنا بعد رجوع النت؟"

حركت عينيها بملل لتقول بعدها بهدوء مصطنع:

ـ" يا ماما يا حبيبتي مفيش صحفي بيشتغل من بيتهم. كفاية إني مبقيتش أعتصم في الميدان مع جوزي عشان ماسيبش (مودي) لوحده كتير، خصوصًا في غياب (علا) و(مازن) عنه. ودلوقتي بروح الجرنال ساعتين وعالظهر بكون مخلصة شغلي. متنسيش إن (علا) و(راندا) كمان في أجازة، و(سلمى) لوحدها بتنقل اللي بيحصل في اسكندرية. الجورنال قوته نزلت النص تقريباً، ولازم الموجود يغطي غياب الباقيين".

هزت أمها رأسها بعدم اقتناع قائلة:

ـ" وأنا مالي؟ افرضي طلع عليكي بلطجي وعمل فيكي حاجة، هيبقى الجورنال بتاعك ينفعني؟ مش كفاية اللي بيحصل لك من يوم ٢٨ لحد النهاردة؟"

ربتت على كتف والدتها وقالت تهادنها:

-" يا حبيبتي اللي حصل لي كان ممكن يحصل الأسوأ منه بس ربنا ستر لإنك دايماً بتستودعينا قبل النزول. دا غير إن مفيش بلطجية بالنهار... على حد علمي يعني".

قالت الجزء الأخير من عبارتها بابتسامة واسعة واستدارت نحو باب الشقة، لتجد مقبضه يدور من الخارج ثم ينزاح ليكشف (سيف) خلفه.

تسمرت قدماها في موضعها وشعور غريب بالاختناق يكتنفها، وهي تسمع صيحة والدتها المبتهجة وتراها تتخطاها لتقفز متعلقة بعنق ابنها الوحيد العائد بعد غياب.

لا تدرِ لمَ تذَكَرت (مودي) وانفعاله حينما رأى صورة (سيف)... لقد كان الصغير على حق، فمن تراه أمامها الآن ليس أخاها، فهو لا يختلف كثيراً عمن دهسوهم وأطلقوا عليهم الرصاص في ميدان التحرير وما حوله.

شعرت بدمائها تفور داخل أوردتها، لتُصدر-رغم برودة الجو- وهجًا انعكس على بشرتها الناعمة وجعلها أقرب لمريض بالحمى.

رأته يرفع رأسه عن كتف والدتهما الباكية، ويبتسم لها كعادته. لكنها لم تعد (منار) القديمة التي سترد ابتسامته بقفزة شقية لتتعلق بعنقه هي الأخرى وتمطر وجهه بقبلاتها.. لم تعد (منار) الخجولة التي ستلتزم الصمت وهو يوبخها على خطأ ما من وجهة نظره، أو الشقيقة المشاغبة التي ستجذب حقيبة سفره لتفتش جيبها الخارجي بحثًا عن قطعة شيكولاته مستوردة اشتراها لها من أسواق العريش. وبالتأكيد لم تعد تراه ذلك الفتى الوسيم الذي كانت تتأبط ذراعه في النادي لتثير غيظ الفتيات، فقد تغير كل شيء.

اليوم، هي (منار) الثائرة، فتاة التحرير التي رأت الموت بعينيها ومازالت دماء الشهداء تعطر كفيها.. دماء (رنيم) و(مينا) وغيرهم الكثير. أما هو،

فمجرد تابع لأسياده، ينبح على من يأمرونه بمهاجمته، دون أن يفكر في صحة ما يفعله. وأنى لثائر وتابع أن يجتمعا تحت سقف واحد؟

اجتثت جذورها طواعية، وتحركت نحو الباب كأنها لا تراه، ليفاجئها وهو يمسك ذراعها قائلاً بغضب مكتوم:
ـ"أنا هوا قدامك ولّا حاجة؟ مفيش حمدالله عالسلامة؟"
أزالت كفه عن ذراعها قائلة بجمود:
ـ"اشمعنى انت أقولك حمدالله عالسلامة وأخو (رنيم) ميقولهاش؟ ليه (أنجيل) اتحرمت تقولها ل(مينا)؟ ليه أفرح برجوع القاتل وأهل الشهيد قلبهم محروق عليه؟ ليه..."
قاطعتها صرخة أمها المستنكرة كي تصمت، فنقلت بصرها بينها وبين (سيف) لتقول بنفس الجمود:
ـ"أنا كنت نازلة عشان ماتشوفيش الموقف دا.. هو اللي خلاني أتكلم".
همت بالخروج ليستوقفها قائلاً بألم:
ـ"كنتي عاوزة أخوكي يموت يا (منار)؟ كنتي عاوزاه يتقتل عشان ترتاحي؟"
صرخ جزء موجوع بزوايا قلبها 'بعد الشر عنك'، لكن لسانها عجز عن نطقها، فآثرت استكمال طريقها لتغادر المنزل، ليواصل هو في إصرار:
ـ"أخوكي مقتلش حد يا (منار) عشان تقولي عليه قاتل. أخوكي دخل الشرطة عشان يحميكي انتي واللي زيك. أخوكي كان مرمي عالحدود وبينضرب عليه نار وأر بي جي وشاف الموت أكتر من مرة عشان يحمي البلد".
التفتت إليه لتقول من بين أسنانها:
ـ"اللي دخلوا الشرطة دهسونا بمدرعاتهم اللي من فلوسنا.. ضربوا علينا غاز ورصاص وخرطوش دافعين تمنه برضه من فلوسنا، ودا كله عشان يحموا اللي سرقوا فلوسنا ويمنعونا نقول كفاية ظلم. قدام كل ظابط انضرب عليه نار

في سيناء، ألف واحد زميله ضربونا وأهانونا في اقسام وسجون ومعتقلات، وفي الآخر داسوا عالباقيين في الشارع.. تبقى قاتل ولا مش قاتل؟ السيئة بتعم يا حضرة الظابط وكلكوا في سلة واحدة".

ـ"(منار)... انتي اتجننتي ولا إيه؟"

صفعتها العبارة بصوت والدها الغاضب، فاهتز ثباتها وهي تستدير لتراه واقفًا على باب غرفته مبهوتاً بما سمعه من حوار بين شطري ثروته في هذا العالم: ابنه وابنته.

هتف بها مستنكراً:

ـ"إيه اللي بتقوليه لأخوكي الكبير دا؟ هو دا اللي اتعلمتوه في الميدان؟"

رفعت رأسها في اعتداد لتجيبه بثبات:

ـ" بعد إذنك يا بابا أنا ماجبتش حاجة من عندي.. أنا وحضرتك والعالم كله شاف كلاب مبارك عملت إيه فينا من يوم ٢٥ ولحد معركة الجمل. وللأسف لو أخويا شغله لسه في القاهرة كان عمل زي باقي زمايله، حتى لو قتل أخته".

هم والدها بالرد ليسبقه (سيف) بالحديث إليها:

ـ" أيوه يا (منار) كنت هنفذ الأوامر.. لو بلطجية هاجمت قسم الشرطة ولّا القطاع اللي باشتغل فيه كنت هتعامل بالسلاح الحي ودا حقي. لو شوية عيال دخلت على مبنى المحافظة تولع فيه كنت هتعامل بالسلاح الحي ودا برضه حقي.. ولو إرهابيين هاجموا سجن فيه مسجلين خطر هتعامل بالسلاح الحي لإن دا شغلي اللي باخد مرتب عليه.. باخد مرتب عشان أحميكم. أدينا سبنا الشوارع ليكم.. ورونا بقى هتحموا نفسكم إزاي".

ضيّقت عينيها في تحدٍ لتجيبه:

ـ"هنحمي نفسنا ونحميها. هنسهر في لجان شعبية وهننظم المرور بنفسنا. على الأقل محدش فينا هيتنطط عالتاني ويقول له أنا اللي بحميك وانت نايم، ولا حد في إشارة هيطلب رشوة عشان يلغي المخالفة. خليكو سايبين الشوارع للناس، يمكن البلد تعمر".

ضحك بسخرية ليخفي غليانه الداخلي قائلًا:

ـ" طب ما تمسكوا سلاح بالمرة وتحموا الحدود".

قالت بسخرية مماثلة:

ـ" دا على أساس ان انتوا اللي بتحموها برضه؟ ربنا يخليلنا الجيش اللي حمانا في التحرير.. الجيش والشعب إيد واحدة".

تعالت ضحكاته هذه المرة حتى اغرورقت عيناه بالدموع، ليقول بقهر جاهد لإخفائه:

ـ" بقى دلوقتي ربنا يخلي الجيش؟ خلاص بقيتوا حبايب؟ ربنا يهنّي سعيد بسعيدة ياختي، وبكرا نقعد جنب الحيطة ونسمع الزيطة... مش بتقولوا كدا برضه؟"

همت بالرد، ليأتيها صوت (مودي) المفزوع بعدما أيقظه الشجار فخرج مستكشفًا، لكنه ما إن رأى (سيف) حتى عادت إلى ذهنه الصغير صورة الضابط ومدرعات الأمن المركزي، فصرخ ينادي أخته خوفًا من أن يقتله 'عمو الظابط'.

احتضنته لتهدئ من روعه، فيما أخفى وجهه الصغير بين طيات حجابها، وهو يختلس النظرات المرتعبة كل حين إلى وجه ذلك العملاق المخيف الذي كان صديقه يومًا ما، قبل أن يصبح مصدر ذعره، هامساً بصوت باكٍ:

ـ"عاوز أروح عند (علا) و(مازن)... مفيش عندهم 'عمو الظابط'.

***

منتصف النهار

استقبلت صغيرها بشوق، رغم أنها كانت تراه يوميًا حينما يُصر (مازن) على ذهابها إلى منزل (منار) كيلا يشعر الطفل بالغُربة. لكنها على أي حال كانت تفتقده بمجرد خروجها من باب المنزل، وكأنها تفترق عن ابنها الحقيقي.

اليوم يأتي إلى المستشفى للمرة الأولى، وسيرى صديقه (مازن) مغطى بالجبائر، ولاشك أنه سيجزع لذلك. فهو لن يستطع حتى معانقته بسبب إصابات رقبته وضلعيه. لكن أتراه يتفهم ذلك ولا يهرع إليه كعادته؟

تذكرت كيف استيقظت اليوم على اتصال (منار) وصوتها المختنق. لم تفهم منها الكثير، سوى عودة (سيف). لكنها توقعت مواجهة قوية بينهما ولا ريب، فكلاهما ينتمي إلى المعسكر المعاكس للآخر. ولمعرفتها بمدى رعب (مودي) من صورة (سيف)، بادرت صديقتها بطلب إحضار الصغير إليها، على الأقل كيلا يزعجهم ببكائه.

شعرت به يهزها فانتبهت، لتسمعه يقول بحماس:

ـ"فين (مازن) بقى؟ وحشني كتيييير".

ابتسمت لتجيبه بهدوء:

ـ" بص أنا هوديك ل(مازن) بس نتفق الأول اتفاق... لما تدخل سلم عليه من بعيد عشان هو متعور جامد. إيده ورقبته وصدره بيوجعوه، عشان كدا مش هيعرف يحضنك. بس أنا هشيلك عشان تعرف تبوسه اتفقنا"؟

أومأ برأسه ولم يفارقه الحماس بعد، ففتحت باب الغرفة بهدوء ليطالعها وجه زوجها المبتسم، والذي أغرى الصغير بالانطلاق نحوه كعادته. لكنها كانت أسرع وهي تُحكم قبضتها على ذراعه قائلة بتحذير:

ـ"احنا اتفقنا على إيه؟"

ضحك (مازن) على نظرة عينيها المتوعدة للصغير الـذي تجمـد مكانـه وهـو ينقل بصره بينهما في ترقب، وقال من بين ضحكاته:

ـ" سيبيه يا مفترية.. الولد خايف تتحولي لوحش وتاكليـه. تعـالى يـا حبيبـي وحشتني".

اقترب (مودي) في حذر، لتتبعه هي وتحمله كما وعدته كي يسـتطيع تقبيـل صديقه. لكن النظرات الزاجرة هذه المرة كانت من نصيبها هي، حينما قـال (مازن) بغيظ:

ـ"أنا مش قلتلك ترتاحي؟ نزلي الولد وريّحي ضهرك عالسرير التاني".

اتسعت عيناها باستنكار بالغ وهي تقول:

ـ" (مـازن) انـت عـمّال تقـول كـلام غريـب مـن يـوم السـبت وأنـا سـايباك براحتك، بس كدا الموضوع قلب هِس هِس... حبيبي أنا مش حامـل، وحتـى لو حامل مش هيبان دلوقتي. فبلاش القلق الأوفر دا. مش عشان أنا قلقانة عليك تردهالي.. مش نقوط في فرح شعبي هو".

تزايدت ضحكاته حتى باتت تؤلم صدره، فوضع كفـه السـليمة عـلى موضـع الألم ليقول من بين ضحكاته القصيرة:

ـ"يخرب عقل شيطانك.. انتي بتجيبي الكلام دا منين؟ بقى دي لغة صـحفية جدودها روس وعايشة طول عمرها في أرقى شوارع المعادي؟"

أخرجت لسانها مغيظة وجلست على الفراش الموازي قائلة:

ـ"أهو كدا وإن كان عاجبك يا سيادة سفير النوايا الحسنة".

رفع بصره للسماء داعياً:

ـ" يسمع من بؤك ربنـا وتبقـي حـرم سـيادة السـفير، بـس بالدشدشـة الـلي حصلتلي دي معدتش أنفع نواية تسند الزير حتى".

ضحكت حتى كادت أن تستلقي على الفراش، قائلة:

ـــ"صباح الألـــش... واضـــح إن الأخ (مـــودي) خـــلى المـــزاج عـــالي النهـــاردة، وبالمناسبة دي يالا عشان ناكل لإني جعانة جدًا".

شاكسها ثانية:

ـ" لازم تجوعي طبعًا.. ابني مفجوع زيي وزمانه خلص على أي أكـل عنـدك جوا".

أمســكت وســادة فراشــها ورفعتهــا كأنهــا ســتقذفه بهــا، لكنهــا تراجعــت في اللحظة الأخيرة لتقول عبارتها المعتادة:

ـ"برضه مش هرد عليك... لينا بيت يلمنا"

** ** **

(١٦)

الأربعاء ٩ فبراير

أمام مجلس الوزراء

أسند ثلاثتهم ظهورهم إلى سور مجلس الوزراء في الحصار الذي ضربه الشباب حول المبنى لمنع أعضاء الحكومة من الاجتماع بداخله، وهو ما دفع الوزراء إلى إستخدام الأبواب الجانبية في البداية، ثم ما لبث رئيس الوزراء أن نقل مقر عمله إلى مكتبه القديم بوزارة الطيران المدني. كان الشباب مقتنعين بهذا الحصار، فإذا كان الميدان لا يعترف بالنظام، فهو بالتبعية لا يعترف بأي حكومة تعمل تحت رايته، ولن يهدأ حتى يسقط النظام وتُحاكم رموزه.

جلسوا سوياً، لكن عقل كل منهم كان شاردًا في اتجاه. كان (وجيه) يفكر في أسرته التي تركها بالإسكندرية، ونصفه الآخر الذي لا يعرف هل سيجتمعان أم لا؛ أتراها تمنحه الفرصة من أجل تاريخهما القديم، ليُثبت لها أنه الأجدر بها؟ أمازالت ترى فيه صورة فارسها الذي أحبته في مستهل حياتها، وفرّقت بينهما الأيديولوجيات؛ أم أنه حقًا مجرد صفحة قديمة طوتها بمرور الوقت.

(أكرم) كذلك كان حائرًا في نفس الفتاة، التي تذهب إلى القائد إبراهيم يوميًا لتنقل برشاقة قلمها كل ما يحدث لثوار الإسكندرية. يعرف شجاعتها جيدًا، بل كان شاهدًا عليها يوم انفجار كنيسة القديسين أمام بيتها. يومها، وما إن تمالكت نفسها من هول الموقف، حتى هرعت إلى الشارع تسجل بكاميرا هاتفها الذكي أول مشاهد لذلك الحادث المروّع، وتنقل إلى المصريين كيف اغتال بعضهم فرحة البعض الآخر. اليوم تمر أربعين يومًا على حادثة القديسين، لكنهما الآن أبعد ما يكونا عما كانا عليه حينها. يومها كان صوتها

هـو أول صـوت يسـمعه في العـام الجديـد، لكنهـا تضـن عليـه الآن حتـى بسماعه.

أما ثالثهما، فلم يستسغ بعد عودة (سيف)، نسيبه الذي لا يطيقه. لم يخف عليه منذ البداية عدم ترحيب (سيف) بـه وسـط الأسرة، وهـو مـا لمسـه في شروطه التعجيزية لإتمام الخطبة، وأولها أن يشتري شقة تمليك. لكنه لم يشأ الوقوف عند هـذه النقطـة، وبـذل كـل مـا بوسـعه كي يـبرهن أنـه يسـتحق (منار) ولن يستغنِ عنها. بل لم يخف عليه أن (سيف) لا يراه يرقـى لنسـب أسرة المستشار (العليمي)، رغم كونه من أسرة لا تقل أصلًا ولا جاهًا عنهم.

لذا، تعمد أن يعقد قرانه على (منار) في غيـاب أخيهـا... ربمـا كـان أنانيًـا في ذلك، لكنه كان مضطراً لثقته في أن (سـيف) لـن يـتردد في اخـتراع أي سـبب لتأجيل الزيجة، إن لم يكن إلغائها.

والحقيقة أن (سيف) لم يكـن ليعـدم أسـباباً تُسـهل عليـه مهمتـه في إلغـاء زيجة شقيقته ... فهي أخته الوحيدة التي تمنى لها زواجًـا مـن شـخص قـوي ناجح، هو على النقيض تماماً من هذا الفنان البوهيمي الذي يحمل كاميرتـه الاحترافية على كتفه طوال الوقت كمصوري الشاطئ.

والأدهى أن هذا البوهيمي عضو بحركة سياسية تهاجم الرئيس الذي يعمـل هو لحماية نظامه؛ فكيف تُراه يسمح بمثل تلك الزيجة التي ستجعل حياتها مهددة دومًا باختفاء زوجها في غياهب سجن أو معتقل ما.

كان (رأفت) يدرك كل ذلك في قرارة نفسه، لكنه يرى أنه الأقدر على إسعاد (منار)، والأجدر بحبها، طالما كانت تبادله نفس المشاعر.

خرج من أفكاره على رنة هاتفه، فالتقطه ليجد اسمها يتراقص عـلى شاشـته بشقاوة مثلها، فأجابها بابتسامة:

ـ "إيه اليوم الجميل دا؟ أصحى على اتصال من (منار)، ودلوقتي اتصال منك؟ أنا مش هستحمل كل الدلع دا".

أجابته ضحكتها الصافية، وكأنها لا تحمل همًا يؤرقها، قائلة:

ـ" نقول إيه في قلبنا الطيب بقى.. أدينا بنرفع روحك المعنوية".

رمق جاريه بنظرة سريعة، قبل أن يقول بصوت خفيض يحمل سخريته:

ـ" عقبال ما ترفعي الروح المعنوية لواحد من الاتنين اللي جنبي".

زمجرت بغضب مفتعل:

ـ" وبعدين؟ مش قلنا نبطل كلام في السيرة دي؟ أنا بكلمك عشان أعرف الدنيا أخبارها إيه عندكم.. البلد كلها اضرابات واعتصامات النهاردة وكأن الناس ما صدقت.. سكك حديد ومستشفيات وحتى في نقابة الصحفيين.. الكل عامل إضراب... حتى موظفين شركات البترول اللي واكلينها والعة أساسًا".

ضحك هو ليقول متعجباً:

ـ" سبحان الله.. كل اللي له حق واللي مالوش طلع فجأة وقال عاوز حقي.. بعد ماكانوا بيقولوا علينا هنخرب البلد، دلوقتي بقوا عاوزين يقلدونا لمصلحتهم، مش لمصلحة البلد".

تنهدت بسخط، قبل أن تقول:

ـ" لا وإيه... لسه فيه ناس شايفة إن حرق الميدان باللي فيه أحسن حل. تخيل ماما شافت تقرير عالتلفزيون جات فيه ست كبيرة كدا في سن تيتة... تيتة دي بقى كان عندها اقتراح ظريف... قالتلهم افتحوا جنينة الحيوانات وهاتوا الوحوش اللي فيها التحرير، كل اللي فيه هيهربوا على بيوتهم... تخيل؟"

هز رأسه، وقد أثار تخيل المشهد غضبه، ليقول من بين أسنانه:

ـ" مهو للأسف الجيل اللي خنع ستين سنة واتعود عالخنوع، صعب تقوليله أنا هديك حريتك.. هو اتعود عالعبودية خلاص.. ربنا يسويها من عنده".
تنهدت ثانية مرددة آمين.
ثم ما لبثت أن سألته باهتمام:
ـ" هتعملوا قُداس الأربعين بتاع حادثة القديسين؟"
أجابها بثقة:
ـ" آه بإذن الله هنروح الميدان قبلها عشان نحاوط عليهم وهما بيصلوا.. دا أقل واجب يعني وهما بيحاوطونا في كل صلاة".
ابتسمت وانعكست الابتسامة في صوتها لتقول بمشاكسة:
ـ"أراهنك (وجيه) مش هيحضر، هيتحجج بأي حاجة.. احنا كمان هنعمل قداس في القائد إبراهيم كمان شوية إن شاء الله".
هم بمشاكستها بدوره، حينما لمح أحد المعتصمين معهم يشير إليه من بعيد، فقال مسرعاً وهو ينهض إليه:
ـ" طب خلي بالك من نفسك وما تتأخريش.. أهو (وجيه) كان بينفع ويوصلك كل يوم.. دلوقتي مين بيوصلك؟"
أجابته وهي تنهي الاتصال:
ـ" هما مرتين عُمي اللي وصلني فيهم، متغنيش وترد على نفسك.. قال (وجيه) قال".

*****

الاسكندرية
القائد إبراهيم
كالعادة، تُظهر الشدائد معادن الرجال، وفي تلك الايام كانت تُظهر أجمل ما في هذا الشعب.. تلاحمه.

حضر القداس مصريون من جميع الأطياف، وليس مسيحيين فحسب..
حضروه ليبرهنوا للخائن الذي اغتال فرحة إخوانهم أنه لن يكون له عليهم سلطان، ولن ينجح في كيده ضد هذا الشعب المترابط إلى يوم القيامة.
عادت إليها ذكريات ذلك اليوم البغيض حية تتداعى أمام عينيها، ومشاهد الدماء وصراخ الجرحى وبكاء المكلومين يدوي بأذنيها وكأنها تعيشه من جديد، ولم يمر عليه أربعون يومًا.
ورغمًا عنها استعادت باقي ذكريات اليوم، حين هاتفها (أكرم) بمجرد انتصاف الليل وبدء العام الجديد.. كان إصراره على الوصول إليها يرضي غرورها ويسعدها كأي فتاة تحب الشعور بأنها مرغوبة. لذا دغدغتها كلماته الناعمة وهو يخبرها كيف أراد أن يكون صوتها أول ما يسمعه في العام الجديد.. لكن أكثر ما أسعدها كان وجوده في الاسكندرية، على بُعد أمتار من منزلها، ليتنفس معها نفس الهواء في الساعات الأولى من العام الجديد.
ثم حدث ما حدث.. فزعت حينما سمعت دوي الانفجار، وهرعت إلى الشرفة لترى مدى الدمار الذي حاق بشارعهم أمام الكنيسة.
لكن حتى في هذه اللحظة كان إلى جوارها.. هرع إلى منزلها ليتلقاها بين ذراعيه حينما فقدت الوعي، وهو من أفاقها، بل وهو من رافقها الى الشارع لتكون أول من غطى الحادث إعلامياً...
تنهدت بعمق وهي لا تدري.. أتحزن على علاقتهما التي وُئدت في مهدها، أم تمنحه ثقتها من جديد ليصبح شريكها في رحلة المستقبل.
هل تمنحه الفرصة؟ أم تمنحها للآخر الذي يبدو أكثر نضجًا وتعقلًا واعتدالًا عن ذي قبل؟
هل...
ـ" ازيك يا أستاذة؟"

التفتت بحدة، بعدما اقتحم ذلك الصوت الهادئ صومعة ذكرياتها، لتجد وجهًا مصريًا مألوفًا تظلله ابتسامة ثقة، وإن لم تستطع استكشاف حقيقة نظراته المستترة خلف نظارة شمسية قيّمة.

لم يكن الوجه ما لفت انتباهها، قدر الزي العسكري الذي يرتديه، والنسر الرابض فوق كتفه متحفزًا.

حاولت أن تمنح ملامحها بعض اللين وهي تبتسم بتوتر متسائلة:

ـ"حضرتك تعرفني؟"

اتسعت ابتسامته وهو يعرفها بنفسه قائلًا بنفس الثقة:

ـ" رائد (مروان بدير)، واتقابلنا قبل كدا على فكرة".

عقدت حاجبيها محاولة تذكر وجهه دون جدوى، ليتبع هو:

ـ"لما رحتي تصوري قسم العطارين يوم ٢٩ يناير وواحد من العساكر غلّس عليكي".

تذكرت الموقف فجأة، وصورة هذا الضابط تحتله، وهو يعنّف الجندي لتعامله الفظ معها، ثم يعتذر بنفسه عن الموقف ويسمح لها بالدخول.

لم تلتفت يومها لملامح ذلك الضابط المهذب، ربما لأن الدماء كانت تغلي بعروقها بمزيج من التوتر والغضب من أسلوب الجندي، وربما لأنها تطأ بقدمها أطلال قسم الشرطة الذي أحرقه البعض في اليوم السابق، بل وربما لأن ما شهدته من وقائع قبل يوم واحد لم يفارق مخيلتها بعد.

ابتسمت بهدوء وهزت رأسها تحييه قائلة:

ـ"أهلا سيادة الرائد.. دلوقتي افتكرت حضرتك.. خير بتعمل إيه هنا؟ مفيش وجود لقوات الجيش في القائد إبراهيم حسب ما شفت من أول نزولكم".

أومأ برأسه موضحاً:

ـ" دا صحيح.. أنا هنا مش بصفة رسمية.. أنا هنا لإن صديقي مات في انفجار الكنيسة".

ارتسم الأسف على محياها وهي تقول بتأثر:
ـ"البقاء لله.. الله يرحمه ويرحمهم جميعًا.. الحادثة كانت بشعة، وللأسف مش قادرة أنسى تفاصيلها لإني مازلت عايشاها".
سألها باهتمام:
ـ"هو حضرتك مسيحية؟"
أجابته بنفس التأثر:
ـ" مسلمة بس بيتي قُدام الكنيسة.. دا غير إن الجرنال طلب مني تغطية الحادثة فنزلت وسط الدم والصريخ أنقل الصورة فيديو وصور و...".
سألها بغتة في حماس:
ـ"هو انتي (سلمى الإسناوي) اللي نشرتي الفيديوهات على قناتك الخاصة عاليوتيوب؟"
حدقت فيه لبرهة، قبل أن تجيبه بابتسامة هادئة:
ـ"أيوه أنا (سلمى)... هي قناتي مشهورة أوي كدا؟"
أجابها بحماس متزايد:
ـ"الفيديوهات دي هي اللي شهرتها، وجات بعدها فيديوهاتك للثورة زودت الناس عليها".
تأملته قليلًا، رغم انزعاجها من نظارته، لتقول بدهشة:
ـ" دا انت متابع بقى.. عمومًا إني اقابل حد من متابعيني دا شيء يسعدني".
قال بامتنان:
ـ" أنا اللي سعيد جدًا إني قابلتك النهاردة، رغم إني لما جيت أسلم عليكي مكنتش أعرف إنتي مين تحديدًا".
ابتسمت بسعادة تلازمها كلما رأت دليلاً على نجاحها، فشكرته بخفوت وهمت بالانصراف ليبتدرها بقوله:
ـ"يا ترى هتسمحي لي نشرب فنجان قهوة سوا؟"

تشنجت ابتسامتها، وهمت بقذفه بعبارة نارية كعادتها، لكنه أسرع متابعاً:

ـ"أرجوكي متفهمنيش غلط.. أنا كنت عاوز أقعد معاكي لإن عندي كلام كتير يهمني يوصل للناس في الشارع، وعاوزك انتي توصليه، بس من غير إشارة ليا".

ضاقت عيناها باستفهام صامت، فأوضح:

ـ"هفهمك كل حاجة صدقيني، واحنا بنشرب القهوة".

** ** **

(١٧)

الخميس ١٠ فبراير

المعادي

وقفت تتميز غيظًا وهي تراقبه ينهض من فراشه متحاملًا على شقيقه ويُكمل ارتداء ملابسه، بعد إصراره على مغادرة المستشفى. لكنها لم تحتمل الصمت فهتفت بحنق:

ـ"كدا يا دكتور (زياد)؟ بقى بدل ما تعقله عشان يكمل علاجه في المستشفى بتساعده يخرج منها وهو في الحالة دي؟"

أجابها هو بهدوء مستفز:

ـ"أي حالة دي؟ واقف على رجلي والحمد لله وخلاص بقيت كويس.. أقعد في المستشفى ليه بقى؟ عشان أثبت لهم إني اتهزمت؟ مش أنا اللي يتدارى في كسر ولا شرخ".

هتفت بحنق متزايد:

ـ"اللي يسمعك بتقول كسر بالبساطة دي يفتكره حاجة هايفة، مش عملية وجبس وموال مش هنخلص منه قبل كام شهر.. دا غير الضلعين المشروخين في صدرك، ولا دول كمان حاجة سهلة؟ يا (مازن) انت مبتعرفش تتنفس براحتك بسبب الألم، عاوز تنزل الميدان وتهتف كمان؟ حرام اللي بتعمله فيا دا والله".

قالتها وانهارت على المقعد خلفها وقد غلبتها عبراتها فسالت على وجنتيها دون تحكم، لتسمعه يهمس بتعاطف بالقرب منها:

ـ"حبيبتي الموضوع مش مستاهل دموع.. مانا مش هنزل لوحدي، هتبقي معايا انتي و(مودي)... الحكاية قربت يا (علا) وهنفرح كلنا خلاص.. الإشاعات مالية البلد إن مبارك هرب، دا غير الاضرابات اللي بتزيد كل

شوية، حتى في نقابة الصحفيين ومستشفى القصر العيني.. رؤساء العالم كمان معادوش بيدعموه، وأولهم أوباما.. النظام بيترنح يا (علا) وأنا مش هسامح أي حد يحرمني من فرحتي وسط رفاق الميدان بتنحي مبارك".

أضاف (زياد) بحماس:

ـ"الجيش واقف معانا يا (علا) وفي ضهرنا.. وواضح إن الثورة جات على هواهم عشان يمنعوا توريث جمال مبارك... هانت أوي يا (علا).. مش بعيد ينيمونا بحكاية خطاب الرئيس دي وهوب نلاقيهم بيعلنوا تنحيه أو هروبه فعلًا".

مسحت دموعها بطفولية، وهي تنقل بصرها بينهما، لترى نظرات التشجيع التي تشع من أعينهما، وعادت لتقول بتردد:

ـ"أنا خايفة عليك".

احتضن كفها بكفه السليم ولثمه برقة قائلًا بثقة:

ـ"متخافيش.. أنا عاوز أعيش ١٠٠ سنة قدام عشان أربي ولادنا وأحفادنا كمان".

ابتسمت في خجل، وهمست:

ـ"ربنا يديك طولة العمر في طاعته يارب".

بادلها الابتسام وعيناه تبلغانها رسائل صامتة خجل أن يصرح بها أمام شقيقه الأكبر، ثم قال بحماس:

ـ"يالا بينا.. هنطلع من هنا عالتحرير على طول إن شاء الله، وبإذن الله هنفرح أووي الليلة دي".

***

ميدان التحرير

احتشدت مئات الآلاف من الشعب بانتظار خطاب الرئيس، الذي يتوقعون أن يكون خطاب تنحيه.

انتظروا، وتأخر الوقت، ليبدأ البعض في توسيع دائرة معارفهم مع المحيطين بهم، كي يتغلبوا على برد الليل القارس بحرارة التعارف والترحيب.

كان بيان المجلس الأعلى للقوات المسلحة، بشأن انعقاده وبحث ما يمكن اتخاذه من إجراءات في ظل الظروف الراهنة، قد بعث الأمل بقوة في الصدور في أن ساعات مبارك على رأس النظام باتت معدودة. لذا تحمل المتظاهرون درجات الحرارة المنخفضة، واستعاضوا عنها بدفء مشاعرهم الوطنية، ورجفة الترقب للنبأ الذي طال انتظاره بتنحي الرئيس.

ووسط هذا الزحام الرهيب، تلاقت الوجوه على غير توقع... فقد قرر نحو مليون شخص قضاء هذه الليلة في الميدان انتظاراً للنصر.

جلست إلى جانبه بالقرب من المنصة، وقد سقط أخوها نائمًا بجوارهما في وداعة. لحفته بدثار صوفي ثقيل، واكتفت بمشاهدة هذا الطوفان البشري يغني من أجل الثورة.

"كلنا إيد واحدة... هدفنا حاجة واحدة... إرحل.. إرحل.. إرحل".

دندنت الأغنية معهم، تحت نظراته الباسمة، حينما لمحت فجأة وجهًا مألوفًا فقفزت هاتفة:

ـ"مش ممكن... (سلمى)".

لم يكن بمقدورها اختراق الزحام، فانتظرت حتى اقتربت الأخرى في ملابس أقرب ما تكون لساكني الإسكيمو، بقبعة الفرو التي اعتمرتها ومعطفها الثقيل وكوفيتها وقفازيها الصوفيين. تعانقتا في محبة حقيقية وشوق صادق، قبل أن تقول (سلمى) بمرح:

ـ"بلدكوا ساقعة كدا ليه؟! دا احنا في اسكندرية أدفى بكتير".

ضحكت (علا) لتقول بمشاغبة:

ـ"أتاريكي لابسة هدوم من القطب الشمالي. أنا برضه أول مرة آجي بالليل، بس (مازن) نبهني فجيت بهدوم تقيلة".

ثم أردفت باهتمام:
ـ"انتي جاية مع (منار) ولا مين يا جميل؟"
هزت رأسها نافية:
ـ"لأ جاية مع أصحابي.. حبيت أعملها مفاجأة ل(رأفت)، خصوصًا إنه كان ممكن يعارض سفري في الظروف دي.. بس والله الدنيا بيس ومكانش فيه مشاكل في الرحلة".
ثم تابعت بضحكة مرحة:
ـ"لو تشوفي وش (رأفت) لما لقاني قدامه... كأنه شاف عفريت. مكانش مصدق، دا غير حضن المطارات اللي زمانه اتصور وهينزل على القنوات الحكومية وتحته عنوان علاقات غير شرعية في التحرير".
احتقن وجه (علا) وعبارة صديقتها تعيد إليها ذكرى شكها البغيض بزوجها، فمدت كفها لتعانق أصابع كفه السليمة، وهي تواصل حديثها مع صديقتها الثائرة السكندرية.
انضمت إليهم (منار) و(رأفت)، ثم انضم (حمزة) و(راندا) التي بررت حضورها بقولها:
ـ"أنا صحفية.. مكاني هنا مش في البيت ولا في طنطا. صحيح أنا في أجازة بس خلاص قطعتها. لازم أشارك معاكوا وميفوتنيش يوم زي دا".
لكن الدهشة الحقيقية كانت من نصيب (منار)، التي فوجئت بوالدها أمامها. تصلبت في وقفتها وتجمدت عيناها على ملامح وجهه البشوش، ولسان حالها يهتف به 'بتعمل إيه هنا'؟
وكعادته قرأ نظراتها، ففتح لها ذراعيه قائلًا:
ـ" انتي نسيتي إن أبوكي معارض قديم لمبارك ولا إيه؟"
ثأثأت بكلمات متفرقة:
ـ" بس.. با.."

اقترب ليحتويها في أحضانه ويهمس في أذنها بدهاء:

ـ"أمّال انتي فاكرة انا وافقت على (رأفت) من غير ما أعرف انه ثورجي؟ أنا وافقت عشان كدا أصلًا".

غاصت في أحضانه وسالت دموعها على صدره وهي تردد:

ـ"يا حبيبي يا بابا".

ثم ما لبثت أن رفعت عينيها إليه متسائلة:

ـ"ماما مجاتش معاك؟"

مسح دموعها بأصابعه قائلًا بمرح مصطنع:

ـ"بطلي طمع.. معاكي الراس الكبيرة بحالها، عاوزة إيه تاني؟"

ابتسمت من بين دموعها ولم تشأ قول المزيد، فهي تعلم جيدًا أن والدتها لن تنضم إليهم يومًا، لاسيما بعد مواجهتها الحادة الأخيرة مع (سيف)، والتي أغضبت الجميع منها. أصبح (سيف) يتحاشاها، وكذلك تفعل والدتها. أما والدها فلم يبادلها الحديث كعادته سوى في تلك اللحظة.

تدرك أنها ربما بالغت في رد فعلها عند رؤية أخيها، وأنها ربما ما كان يجب عليها الحديث معه بهذه الحدة.. فرغم كل شيء هو أخيها الوحيد، ومستودع أسرارها بعد (علا). لكن مرآه في ذلك اليوم أعاد إلى ذهنها آلام الأسر المكلومة، وغضبها من كل من يرتدون زي الشرطة، ومن ثم كان انفجارها به.

انضمت إليها صديقتها الجديدة (نجلاء) وزوجها الذي أصبح مرابضًا معها في الميدان منذ مليونية الجمعة السابقة، وتحلقوا جميعًا في مواجهة إحدى الشاشات العملاقة في انتظار خطاب مبارك المرتقب.

وقفت بينهم تراقب شاشة العرض، وهي تتجاهل عمدًا النظرات المصوبة إليها. كانت تشعر بها تكاد تنفذ عبر طبقات ملابسها الثقيلة لتبعث بالقشعريرة في جسدها، لكنها كانت مصرة على تجاهل النظرات وصاحبها.

قابلت (وجيه) برفقة شقيقها عند إحدى بوابات الميدان، ولم يخف عنها لمعة عينيه حينما رآها. لكنها رغم ذلك أومأت له برأسها بالتحية، دون أن تختصه بحديث منفرد. فهو بالنسبة لها زميل مقاعد الدراسة ومظاهرات القائد إبراهيم فحسب.. حتى الآن.

أما (أكرم) الذي يحاصرها بنظراته عن بُعد، فلم تره صراحة، لكنها شعرت بوجوده، وسمعت شقيق (مازن) يناديه ويطلب منه شيئًا لم تتبينه.. يبدو أن أواصر الصداقة بين هؤلاء الشباب قد تعمقت في ليالي وأيام الميدان التي افتقدت مثيلتها في الإسكندرية لعدم وجود اعتصام دائم.

أمسكت بهاتفها تداعب شاشته، لتصلها رسالة نصية تحمل كلمة واحدة.

"وحشتيني"

ولم تكن تحمل أيًا من رقميهما.

***

ارتفعت أحذية المتظاهرين في مواجهة الشاشات العملاقة رداً على خطاب مبارك الطويل الذي انتهى قبل قليل دون أن يعلن تنحيه.. فقط تفويضه لنائبه في اختصاصات رئيس الجمهورية وفقًا للدستور.

كان الخطاب مخيبًا لآمال الكثيرين، فبغض النظر عن الملل من طول الخطاب في سرد مكرر لوطنيته واهتمامه بوطنه وخدمته له طيلة ٦٠ عامًا، لم يخرج المشاهد بجملة مفيدة تبرد نار غيظه. حتى وعوده الجوفاء بمحاسبة المسؤولين عن مقتل شهداء جمعة الغضب لم تشف صدور المصريين الموغرة في الحقد تجاهه، وفي نهاية الخطاب فوّض نائبه للقيام بمهامه.

صرخ البعض قهرًا، وبكى آخرون، لكن الأغلبية هتفت "إرحل... إرحل".

شعور بالبرودة اجتاح جسدها وهي تتشبث بذراعه السليم وتسمعه يهتف بقوة متجاهلًا آلام صدره:

-" لازم يرحل.. لازم يرحل.. عشان كل قلب انحرق على ضناه لازم يرحل.. عشان عم (بشندي) وعم (عزيز) لازم يرحل.. عشان اللي اتحرقوا في القطر واللي غرقوا في العبارات واللي ماتوا في العشوائيات لازم يرحل. إرحل. إرحل".

تحجرت الدموع في عينيها وهي تسمع هتافه وتشعر بحرقته، وتتخيل رد فعل أولئك المكلومين على هذا الخطاب الهزلي الذي أصاب الجميع بالهياج.

دقائق وظهر نائب الرئيس على الشاشات، ليطالب شباب التحرير بالعودة إلى منازلهم كيلا يعطلوا مسيرة الاستقرار.

وازداد الهياج في الميدان، وصرختهم تزلزل الأرجاء "مش هانمشي.. هو يمشي... الشعب يريد إسقاط النظام".

قرر بعضهم الزحف تجاه مبنى اتحاد الإذاعة والتلفزيون المجاور في ماسبيرو، رغم ما قد ينطوي على ذلك من مخاطر حال قررت قوات الحرس الجمهوري المرابطة أمامه التعامل مع المتظاهرين. فيما قرر آخرون الزحف في الغد إلى قصر العروبة، مقر رئاسة الجمهورية في مصر الجديدة، وأسموها جمعة الزحف أو التحدي.

شاهدت بعينين ذاهلتين الوجه الآخر لشباب الميدان- ومنهم زوجها وأصدقائه- وكيف انتفخت عروقهم غضباً وهم يهتفون بسقوط مبارك ونظامه ويتفقون على ما سيفعلونه في الغد.

تابعتهم في صمت، قبل أن تتخذ القرار...

لن تغادر الميدان حتى يرحل مبارك.

** ** **

(١٨)

الجمعة ١١ فبراير

بيان جديد من المجلس الأعلى للقوات المسلحة لم يمثل فارقًا بالنسبة للكثيرين في الميدان ما دام لم يعلن عزل مبارك. فقد استقر عزم ثوار التحرير على محاصرة ماسبيرو وقصر الرئاسة، فيما قرر إخوانهم في الإسكندرية الزحف إلى قصر رأس التين بعد صلاة الجمعة.

أما الباقون في الميدان- وما أكثرهم- فكان قُوتِهم في ذلك اليوم الهتاف الغاضب وأغنيات سيد درويش والشيخ إمام، حتى قاربت الساعة السادسة مساء.

حينها كشفت شاشات العرض الستار عن وجه نائب الرئيس يقف متجهمًا، وخلفه حارسه الشخصي المستاء، ليتلو البيان الذي أثلج صدور قوم مؤمنين بقوتهم ووحدتهم.

" قرر الرئيس محمد حسنى مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد، والله الموفق والمستعان".

صرخات جذلى وزغاريد مبتهجة وصواريخ ملونة افترشت أرض ميدان التحرير وسمائه، وأبهجت ملايين المصريين في شتى بقاع العالم بعد أن انزاحت الغُمة التي جثمت على الأنفاس ثلاثين عامًا.

ليس المصريون فحسب، بل شاركتهم الشعوب العربية الفرحة، وخرج مواطنوها يوزعون الحلوى في الشوارع ابتهاجًا بانتصار ثورة اللوتس وشباب يناير الحر.

حتى الأمهات الثكلى، خرجت زغاريدهن محشرجة بدموع الحزن ووجع الفقد، لكن سقوط قاتل أبنائهن منحهن الأمل في أن يشهدوا محاكمته يومًا أمام قضاء نزيه يرد الحقوق المستلبة إلى ذويها.
ماما (تريز) كانت إحداهن، وهي تقفز بنشاط غادرها منذ مقتل ابنها الوحيد، وتطلق العنان لزغرودتها الباكية أمام ابنتيها الذاهلتين، هاتفة من بين دموعها:
ـ"افرح يا (مينا) وارتاح... هم مبارك خلاص انزاح".

وحده (سيف) شعر بالمرارة وهو يشاهد صيحات المبتهجين على شاشات التلفاز ويسمعها بوضوح في الشارع تحت شرفته. فلم يكن يتخيل أو يقبل أن تكون نهاية رجل عسكري بمثل هذه المهانة.. هو كشخص عسكري يرفض ذلك تمامًا، ويرى الموت أهون من مثل تلك النهاية.
انتحى بنفسه جانبًا في غرفته، وأغلقها عليه رافضًا أي حديث مع والدته أو (ميس). فما يراه في المستقبل القريب لا يراه هؤلاء المتقافزون في ميادين مصر فرحًا، وبالتأكيد لا يدعو إلى الابتهاج من وجهة نظره.
كان بوده لو يصرخ بهم "انتوا مش عارفين هببتوا إيه.. البلد هتضيع بسببكم".
لكن أحدًا لم يكن مستعدًا للإنصات له في ذلك اليوم، ولا أي يوم بعده.

***

وسط مشاعر البهجة التي تحيط الجميع، اقترب منها متغلبًا على تجاهلها المتعمد له، فبادرها بابتسامته العذبة:
ـ"مبروك عليكي نجاح ثورتك".
ابتسمت باتساع والسعادة تلون نظراتها قائلة:
ـ"الله يبارك فيك... دي مش ثورتي لوحدي، انت كمان شريك فيها".

قال موضحًا:

ـ"شريك متأخر أوي... لكن انتي كنتي مؤمنة بيها من الأول. عشان كدا هي ثورتك".

حافظت على ابتسامتها قائلة:

ـ"مش هتفرق خلاص.. المهم النتيجة".

ثم أتبعت صارخة بالإنجليزية:

ـ" أنا حرة.. كلنا أحرار".

تأمل سعادتها الحقيقية التي منحتها عُمرًا أصغر، وخصلاتها تتقافز حول وجهها بمظهر طفولي جذاب، ثم استجمع شجاعته ليقول:

ـ"انتي لسه بتعاقبيني على الموقف القديم؟"

التفتت إليه، ونضت البسمة على وجهها لتقول بجمود:

ـ"موقف إيه؟ ماحصلش بيننا مواقف تستدعي عقابك".

قال موضحًا:

ـ"بتعاقبيني لإني محاربتش عشان أفوز بحلمي، وحقي فيكي".

رفعت رأسها باعتداد قائلة:

ـ"محدش ليه حق فيا يا باشمهندس.. طول ما أنا حرة محدش ليه حق فيا، ولا هيكون".

سألها ببطء:

ـ" ولا حتى باعتبار ما سيكون؟"

أجابته ببطء مشابه:

ـ" مفيش ما سيكون يا باشمهندس.. الموضوع انتهى واتقفل. مشكلتي إني واحدة لو فقدت الثقة في حد، يستحيل ترجع تاني. وللأسف أنا فقدت الثقة فيك".

تلقى كلماتها كطعنات لرجولته التي خذلتها من قبل، ليقول بتفهم:

ـ" (وجيه) مش كدا؟"

هزت رأسها نافية وهي تجيبه بثبات:

ـ"هو كمان فقدت ثقتي فيه ومعادش ينفع أفتح صفحة شخصية جديدة معاه. دا غير إني مقدرش أضيع صداقة الميدان اللي بينكم بسببي. بكرا تكتشف إن أحسن حاجة خرجت بيها من تجربة الميدان هي صداقتك ب(وجيه) رغم اختلافكم. المهم متخلوش حد يفرق بينكم... ولا حتى أنا".

﴿ تمت بحمد الله ﴾

❤ إهداء ❤

إلى كل من دعموني، وساعدوني، وآمنوا بي.... شكرًا
إلى كل من أحبطوني، وقللوا من قيمة ما أفعل... شكرًا

فلولا ثقتكم -بعد توفيق الله- ما وصلت.
ولولا تلك الطاقة السلبية، ما أصررت على تخطيها ودحرها.

شكرًا لكل من أنفق وقتًا في مراجعة فصول روايتي، طيلة أربع سنوات.
وشكرًا لمن أرهقتهم في رحلة البحث عن غلاف.
شكرًا لمن أضاؤا لي الطريق للمواصلة، وزودوني بالآراء الإيجابية المحفزة.
وشكرًا لمن اقترحت خروج هذه الرواية للنور بهذا الشكل.
لن أذكر أسماء، فأنتم تدركون أن مكانتكم في القلب أرقى وأسمى من أن توضع في نهاية كتاب، مهما بلغت قيمته.
دمتم لي، ودامت محبتكم.

رباب فؤاد

■ أعمال سابقة للكاتبة:

١- خفقات دامعة ٢٠١٢
٢- حقيقة حب ٢٠١٤
٣- نصف ملاك ٢٠١٤

تابعوني على صفحتي:

www.facebook.com/Rabab.ElShahawy

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ►

٢٠١٥

الكتاب	النوعية	المؤلف
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
خفقات دامعة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
رسم قلب	كتاب جماعي	كتاب جماعي
اديني عقلك وامشي حافي	كوكتيل ساخر	محمد أبو جاد الله
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع
تحوت.. الإله المنتظر	رواية	كريم الشهاوي
الخروج من مصر الجديدة	رواية	إسلام محمد عيسى
جرعة نيكوتين - ط٣	مجموعة قصصية	محمد طارق

٢٠١٦

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
ثورة محظورة النشر	وثائقي	محمد عبد الغفار
أزمة ثقة	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
انتفاضة العملاق الداخلي	كتاب تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي
فانتوبيا	كوكتيل أدبي	إسلام علي/إلهامي مجدي

